إيناس

(روايـــة)

أ. د. إياد قنيبي

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٢١/١١/٦٢٤٦)

٨١٣,٩
قنيبي، إياد عبد الحافظ حماده
إيناس / إياد عبد الحافظ حماده قنيبي.- عمان: المؤلف، ٢٠٢١
( )ص.
ر.إ.: ٢٠٢١/١١/٦٢٤٦
الواصفات: / الروايات العربية// الأدب العربي// العصر الحديث/
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

مُقَدِّمَة

هذه الرواية هي للباحثين عن الفائدة مع المتعة..

واقعيةٌ فيها دروس عميقة وعصارات تجارب ومشاهدات كثيرة..

الإخوة الذين أطلعتهم عليها اتفقوا على أن التشويق فيها يزيد مع التقدم في القصة، بحيث «تَعلق» في نهاياتها ويصعب عليك تركها قبل إتمامها..

ليست محصورة في سن معين، بل نُقَدر أنها مناسبة من سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة فصاعداً...

أردتها أن تكون رواية يقرأها القارئ وحده، أو يقرأها الأب أو الأم مع أبنائهما على شكل جرعات يومية، فتجتمع العائلة على شيء نافع مُسلٍّ، ثم يمكن أن يناقشوا مواقفها وفوائدها، ويبسط الوالد المفاهيم للأبناء الأصغر سنًا..

قسمتها إلى ٢٦ فصلاً، يحتاج كل منها ما معدله ١٥ دقيقة في القراءة..

ملاحظة: الأسماء المذكورة في الرواية هي على سبيل التمثيل فقط، ولا يُقصد بها أشخاص معينون إذا وقع تشابه في الأسماء، كما لا يقصد به ذم تجارة معينة. فكل ما تم وصفه من ممارسات وسلوكيات يقع فيه أناس كثيرون.

يسرنا سماع ملاحظات القراء على: QunaibiEnas11@gmail.com

د. إياد قنيبي

«من أين أبدأ؟»
إيناس (١)

- «صادق، أنا في الطريق حتى آخذك لاستقبال أخيك أشرف... فرحتنا اليوم فرحتان: نجحتَ في اختباراتك، وانتهت محنة أشرف التي استمرت ثلاث سنوات»...

- «آآآآه! ثلاث سنوات، ما أكثر أحداثها وتقلباتها...عن عمري الماضي كله! ها أنا أرى الشيب في رأسي ومع ذلك لم أولد إلا من شهور!

كيف سأستقبل أشرف؟ يجب أن أكون حذراً جداً لئلا أُنَفِّره!

لن ألومه على ما تسبب لي به من خزي، بل سأعوضه عما بخلت به عليه من حنان واهتمام طوال السنوات الماضية...

كيف أؤثر عليه ليختار الخيار الصحيح بين جناحٍ فارهٍ في قصر جده وغرفة مشتركة في شقة متواضعة؟

كيف أساعده لضبط بوصلته ورفع اهتماماته، ولئلا يقع فيما وقع فيه سابقًا؟

شاب في الحادية والعشرين...في مثل عمري يوم دخلتُ مضمار السباق الخطأ!..كيف أقنعه ألا يدخل المضمار نفسه ولا يكرر خطأ أبيه؟

كيف أنصح معه أخاه صادقًا ذا الثمانية عشر عامًا حتى لا يؤخذ بنجاحه في الثانوية العامة فيدخل مضمار السباق الخطأ هو الآخر؟!

النصح المباشر لا ينفع مع هؤلاء الشباب...فَلْأُحدثهم بالقصص...

القصص؟! هواية أختهما إيناس المفضلة...قراءة القصص على الكنبة بجانب مكتبة غرفة المعيشة في البيت الذي عشنا فيه سنين أنا وثلاثتهم مع أمهم حنان...

حنان؟!....هل أشفق عليك أم أغضب؟! لكِ عليَّ ديون بعملة المشاعر...أحببتِني وأعطيتِني الفرصة....وتلوح لي مؤخراً كثيراً نظراتك وأنت تترجيني...هل أكتفي بإنقاذ نفسي أم أمد يدي إليك؟

بأي قصة أُحدث ولديَّ؟...بأي قصة...بأي قصة...

لماذا لا أحدثهما....بقصتي أنا؟!

بقصتي أنا مع أنهما ولداي؟!

نعم، فقد عاشا معي ولم يعيشا! ورأيا نهايات قصتي ولم يريا مبتدأها...

هل سأقص عليهما أحداث خمسة وأربعين سنة عشتها؟!

نعم، سألخصها في ساعات بأحداثها المتسارعة، وفوائدها العظيمة، مع آلامها وآمالها...

لكن هل أكون صريحاً معهما كما كنت صريحاً يوم حدثت إيناساً بورطتي؟!

نعم، سأصارحهما...سأقدم لولديَّ عصارة تجاربي لتكون بمثابة «مطعوم» يمنحهما المناعة فلا يتخبطا لعقود من عمريهما في التيه..

سأحدثهما كيف يحقق المرء كل ما تمناه ولا يحققه في الوقت ذاته!

سأحدثهما عن ضريبة الحفر طويلاً للبحث عن الكنز في المكان الخطأ!

سأحدثهما عن الغرق في الرمال المتحركة والعذاب بالنعيم والشرب من ماء البحر!

سأحدثهما عن أبي الذي بذرَ في قلبي بذرةً لم تنمُ ولم يُر لها ثمر لسنوات طويلة، لكنها لم تمت!

سأحدثهما عن أمي التي جرحتني بعمق لسنين طويلة إلى أن جاءتني البشارة...

سأحدثهما عن عمهما أمجد الذي لم يفصل بيني وبينه إلا غرفة أمي، ومع ذلك كان بيني وبينه في عالم الروح سنوات ضوئية!

سأحدثهما عن القصاصة التي بحثت عنها حثيثًا في غرفة أمي، في دواليبها...تحت مخدتها...تحت سريرها وفي كل زاوية من زوايا الغرفة...

وعن رحلة البحث المشابهة بعد ٢٣ عامًا!

سأحدثهما عن ضحيتي الأولى وكلماته الثلاثة التي أفزعتني، ثم رسالته بعد سنين طويلة...

سأحدثهما عن المكالمة التي فصَلتها مراراً من أخي سعيد، ثم تمنيت أني لم أفعل!

سأحدثهما عن المكر الذي يلبس ثوب الحكمة، ومخادعة النفس، والتعامل مع يقظة الروح كأنها أمرٌ قابل للتأجيل بنية استجلابه بزِرِّ استحضار يومًا ما!

سأحدثهما عن معنى ألا تستطيع ترك ما اعتدت عليه مع أنك لم تعد تستمع به بل يؤذيك وأنت تعلم!

سأحدثهما عن الحياد الكاذب...كيف يخدر المرء نفسه أنه لم يشارك في الأذية مع أن بإمكانه منعها...لكنه لا يفعل لأنه راضٍ عن نتائجها!

سأحدثهما عن جرأة فتاة قرَّرَتْ أن تخالف والدَيها العاقَّين ولا تقبل لنفسها أن تكون جزءاً من «ديكور» شخصيتهما!

سأحدثهما عن يوم تمنيت ألا تغرب شمسه مع أنه لم يكن باليوم الجميل!

سأحدثهما عن رهبة إلقاء أغلال تضعها أنت بنفسك حول عنقك!

سأحدثهما بهذا كله....

لكن...هل سأتحمل كم الألم في هذا كله؟! وهل يتحمله معي أشرف وصادق؟

علي أن أتحمل، فنهاية قصتي ليست حزينة...وتقلباتها مخاض ميلاد جديد...

من أين أبدأ القصة مع ولديَّ؟

ربما من لقطةٍ من يومٍ عاديٍّ قبل خمسة وثلاثين عاماً تمثل شخصيتي وشخصيات أبي وأمي وإخوتي....يوم كنت في العاشرة من عمري...

يوم استيقظت على صوت أبي «أبي السعيد»:

- «قُم يا ولد! قُم يا سمير...الساعة ٧:٣٠، ستتأخر عن باص المدرسة...لا دين ولا دنيا. لا صليت الفجر حاضراً ولا أفطرتَ معنا ولا حضَّرتَ نفسك للمدرسة».

أبي...الرجل الطيب العصبي صاحب بقالة «الأُسرة» التي كدح فيها طويلاً لينفق علينا ويُعِفَّ نفسه وأسرته عن إراقة ماء وجوههم في طلب المساعدة من الناس في الظروف الاقتصادية الصعبة التي مرت بها البلاد...

يومَ سمعت حوار أمي «أم السعيد» لأبي:

- «مش بهذه الطريقة يابو السعيد!»

أمي الحنون التي تزوجت أبي وهي في مقتبل شبابها، وتحملت ضيق وضعه المادي في سنواتهما الأولى وكانت وفية له حنونة علينا.

يوم استيقظت على رائحة البيض المقلي بالسمنة البلدية والشاي بالنعنع من بقايا الفطور...فقمت متثاقلاً بعد سهر لمنتصف الليل على التابلت الذي أخفيتُه عن والدي...

لأرى أخي الأكبر سعيداً، ذا الستة عشر عامًا متأنقًا في لباسه، يسقي نباتات المنزل...

ولأرى تالة، الفتاة الرقيقة ذات الخمسة عشر عامًا، تمسك بكتابها المفضل «افهم نفسك» وتنظر لأبي وهو «يبهدلني»...تحرك حاجبيها وتزمُّ شفتيها وتهز رأسها كأنها تقول له:

- «غلط يا بابا غلط...هذه كلها رسائل سلبية تراكِمُها في نفس سمير»، ومثل ذلك من العبارات التي كنا نرى أنها «تتفلسف بها علينا»

من كثرة قراءتها في كتب النفس والتربية.

ثم لأجلس على الطاولة حتى آكل مما تبقى، ببيجامة النوم وبشعر منفوش، فيبهدلني أبي:

- «ألف مرة قلت لك اغسل يديك قبل أن تأكل»...فأتوجَّهُ نحو مغسلة المطبخ...

لأرى عاصمًا، ذا الاثني عشر عامًا، يغسل الصحون مع أمي، وهي تقول له -وتتعمد أن تُسمعني-:

- «خَلَص يا عاصم، الله يرضى عنك، يكفي أنك فاجأتنا بتحضير الفطور...تعالي يا تالة ساعديني، يكفي قراءة، خلي عاصم يحضر نفسه للمدرسة»...

أتقدم للمغسلة، وكأنْ لا أحد عليها، فينظر إليَّ عاصم باستياء، وأنظر إليه وهو يلبس السماعات الطبية لمشكلة السمع التي يعاني منها...فيشير إليَّ بعينيه أن: «صبح على أمك على الأقل»!

- «الله يصبحك بالخير يَمَّا»...وأعود للطاولة لآكل...

أنهي طعامي...أتوجه لغرفتي المشتركة مع أمجد، «آخر العُنقود» في بيتنا، ذي الثماني سنوات، يبحث عن كتبه ودفاتره المبعثرة ويترجى تالة أن تساعده في البحث عنها لئلا تؤنبه المعلمة، خاصة وأنه ينوي أن يعمل مشكلة اليوم و«يخربش» على كتاب زميله أحمد كما خربش أحمد على كتابه أمس، فيريد أن يكسب المعلمة إلى صفه سلَفًا بترتيب أوراقه وكتبه...

يذهب سعيد وتالة وعاصم بسيارة عمي الأصغر «صهيب» إلى

مدرستهم.

ويأتي باص مَدرستنا أنا وأمجد...فيخرج له أمجد وأتأخر أنا .. يملأ الباصُ الحارةَ ضجيجاً بصوت الزامور كما يتكرر كثيراً، ثم أخرج وأنا أضع قميصي في البنطلون وحقيبتي مفتوحة ورباط حذائي مفلوتٌ وشعري منفوش...

هههه! ذكرياتُ بيتنا في حي السرايا....الذي حلت محل بيوته البسيطة عمارات طويلة ومكاتب ومحلات تجارية...

سأبدأ لولديَّ بهذه الذكريات، ثم أطوي لهما المراحل وأختصر المسافات الزمنية لأقف معهما على مفاصل حياتي وعِبَرها»...

صعد صادقٌ السيارة فقاطع صمت أبيه...

سنتركهما ينطلقان لاستقبال أشرف، ونعود إلى حيث تَركنا سمير في قصته، لنعد منها خمسة أعوام، حين أصبح سمير في الخامسة عشرة...

كبر أبو السعيد وأصيب بضعف العضلة القلبية، فلم يعد قادراً على القيام بالبقالة وحده...جرب توظيف من يساعده في البقالة، لكنه لم يجد من يلائمه، خاصة مع عصبية أبي السعيد وعدم تحمله لأخطاء الموظفين.

كان سعيد مُقبِلاً على السنة الرابعة من دراسة الهندسة المدنية... بينما عاصم في السابعة عشرة من عمره، طَموحٌ يحلم أن يدرس تصميم الأجهزة المساعدة على السمع ويَبرز في هذا الفن ليساعد من يعانون

مثله...عاد من المدرسة يومًا فرأى أباه يلهث، واضعًا يده على رأسه بضيقٍ ظاهر:

- «ما لك يا أبي؟»

- «لا شيء..ارفع الكرتونة يا بني على هذا الرف»

كان أبو السعيد قد حاول رفعها لكنها ثقُلت على قلبه الضعيف فسقطت منه..

أثَّر المنظر في عاصم...وتنازعه طرفان: حلمه بالنجاح في تصميم السماعات من جهة، ورغبتُه في التخفيف عن أبيه من جهة أخرى. وبعد أيام أخبر أباه بقراره التوقف عن متابعة الدراسة ليسنده في البقالة. حاول أبو السعيد أن يثنيه عن ذلك ليتابع دراسته، لكن عاصمًا أصر، وكان أبو السعيد في الواقع سعيداً بذلك لأنه يحتاج بالفعل سنداً له في البقالة.

أحدَث عاصم فرقًا في بقالة «الأُسرة»، وجوَّاً جديداً...ومع حاجة الزبائن أحيانًا إلى رفع أصواتهم ليسمعهم عاصم إلا أن حسن تعامله وابتسامته الطيبة كانت تجعلهم يفضلون ارتيادها على غيرها.

أما تالة فقد دخلت تخصص «علم النفس» في الجامعة، لكنها لم تجد فيه ما تبحث عنه من فهم النفس الإنسانية ومعرفة عوامل طمأنينتها. ونقاشُها مع زميلاتها اللواتي يكبُرنها أشعرها بأن السنوات القادمة لن تكون أحسن حالاً بكثير. فتَرَكَتْ الدراسة الجامعية واستمرت في القراءة وحضور الدورات المتخصصة في التربية والصحة النفسية بشغفٍ واهتمام.

أمجد الآن في الثالثة عشرة من عمره، بدأت تتشكل ملامح شخصيته المتأثرة بأخته الكبرى، وصديقته في نفس الوقت، تالة...وقد وضعَ لنفسه هدفًا أن يكون طبيبًا، فجدَّ في دراسته والمطالعات التي تساعده على هدفه، وكان في الوقت ذاته يتردد على البقالة ليساعد أباه وعاصمًا.

أين سمير من هذا كله؟ صرف عليه أبوه كثيراً في المدارس الخاصة دون جدوى..فقرر نقله هذا العام إلى مدرسة أقل تكلفة...اعترض سمير، خاصة وأنه كان يأنس بأصدقائه في مدرسته.

كانت لحظةَ صفاء ذهن لدى أبي السعيد...فقال بنبرة هادئة:

- «يا بُني، أنت تذهب إلى المدرسة للتسلية، وأنا أُرهقت من أقساط المدارس، وكله دون جدوى».

- «أعدك يا أبي أن أشد همتي...أعطني فرصة».

- «أعطيتك فرصًا كثيرة وهددتك من قبل بالنقل وكل مرة تعدني وتخلف».

- «آخر فرصة يا أبي..صدقني هذه المرة سأتغير».

أشفق أبو السعيد على ابنه، فأبقاه في مدرسته لكن بشروط:

- «طيب ممنوع بعد الخامسة مساء تمسك أي موبايل أو جهاز إلكتروني، وعليك أن تدرس أولاً بأول. والأهم أن تحافظ على صلاتك».

- «طيب، موافق».

تحسَّنَ سمير بعدها، والتزم بصلاته وأقبل على الدراسة بالفعل، لكنه

ما لبث أن عاد إلى الالتهاء عن الدراسة...

أثار ذلك غضب أبيه..فتدخلت الأم وطلبت من تالة أن تُكلم سميراً...

ساحلاً في كرسيه وواضعًا رجلاً على رجل قال سمير:

- «لماذا تلاحقونني في موضوع المدرسة؟ عاصم خرج من المدرسة، وأنت خرجتِ من الجامعة...ما شاء الله عليكما ها أنتما مبسوطان»..

- «ليس موضوعنا المدرسة والجامعة يا سمير..موضوعنا أن تكون جاداً فيما أنت فيه، أن يكون لك مشروعك الذي تعمل عليه..عاصم يساعد أبي...أنا أتعلم وأُعلِّم...أنت ما مشروعك؟ لو أنك تركت المدرسة وتعلمتَ ما ينفعك لما لُمناك».

- «أنا في الخامسة عشرة وتريدين مني أن يكون لي مشروع؟!».

- «طبعًا! بل وينبغي أن يكون لك مشروع من قبل هذا»...

طال النقاش وحوله سمير إلى هزل وتهرُّب...

في نهاية العام قرر أبو السعيد أن يُخرج سميراً من المدرسة، وبدأ يبحث له عن حرفة تؤهله لكسب الرزق...

لكن سميراً لم يكن جاداً في أي شيء يتوجه إليه!

فقد تَرَك تعلُّم النجارة لأن صاحب المنجرة يرهقه...

ثم ترك العمل في مطعم تابع لصديق أبي السعيد لأن الموظفين يكلفونه بتنظيف الأرض أحيانًا...

ثم ترك التعلم عند ابن عمه الميكانيكي لأن المحل فيه «روائح

كريهة»...

ثم ترك دورة تصميم مواقع النت لأنه وجدها «معقَّدة»...

ثم ترك دورة تصليح الموبايلات لأن المركز الذي تقدم فيه الدورة بعيد والمواصلات متعبة....

في النهاية، قرر أبو السعيد ألا يُتعب قلبه -المتعب أصلاً- أكثر من ذلك، واستسلم، ورفع يده عن سمير، فلم يعد يأمره ولا ينهاه ولا يوجهه، إلا بـ«بهدلاتٍ» غاضبةٍ بين الحين والآخر..

مرت خمسة أعوام...كان سعيد قد تخرج وعمل في شركة هندسية وتزوج ورزق بولد (عبد الرحمن) وبنت (لين)، وهو الآن في السادسة والعشرين...محبوب، مُتقن لعمله، وله هيبةٌ على ما فيه من تواضع....

تالة، ابنة الخامسة والعشرين، متزوجة من ابن عمها ولديها طفلاها «عائشة» و«محمود»...أصبحت اسماً معروفاً في عالَم دورات التربية والصحة النفسية على صغر سنها. مرت حياتها مع زوجها ببعض التعثرات كونه سريع الانفعال...ولم تستطع بما أوتيت من علوم النفس أن تغير من طباعه كثيراً...لكنها مع مرور الوقت استوعَبَته أكثر فأكثر...

عاصم، سندُ أبيه، وسَّع البقالة وزاد أصنافها. وهو الآن في الثانية والعشرين، وقد خطب ابنة صديق والده اللحام. والغريب أن عاصماً

بدأ التدخين من سنتين مع تجنبه -كأبيه- لبيع الدخان في البقالة حرصًا على الرزق الحلال، ويقول:

- «على الرغم من أني مخطئ لكني لن أساعد غيري على الخطأ». ويتكرر أن يُسقط الديون عن بعض زبائنه المحتاجين.

أما أمجد، ابن الثامنة عشرة، فقد دخل كلية الطب بمنحة دراسية لتفوقه، وجعل التفوق في الطب اهتمامه الأكبر، إن لم يكن الأوحد، ليتفوق في سوق العمل الذي يشهد شيئًا من البطالة وقلة الأجور في كثير من التخصصات بما فيها الطب.

في زيارة من تالة لبيت العائلة:

- «تعال اجلس معنا يا أمجد. اشتقت لك»

- «دقيقتين لأنهي هذه الصفحات»

- «هذه ثاني مرة تؤجلني...سنرى هتين الدقيقتين!»

بعد دقائق:

- «ها؟! مرت الدقيقتان وأكثر...سأغادر بعد قليل»

- «صدقيني يا تالة عليَّ أن أقرأ الموضوع متكاملاً لأفهمه...أعطني دقيقتين»

- «أمجد، تحتاج أن تتوازن...لا تكن أحادي الاهتمامات...أعطِ كل ذي حق حقه»

قام أمجد وجلس مع العائلة مع أن ذهنه في كتاب الفسيولوجيا!

ماذا عن سمير؟ سميرٌ الآن في العشرين من عمره، وليس لديه عملٌ ولا شهادة ولا حرفةٌ يتقنها ولا علمٌ تعلمه، ولا هو متأهل للزواج وبناء أسرة. وحتى صلاته عاد يقصر فيها فيصلي يومًا ويترك أيامًا...يعمل في البقالة مع أبيه وأخيه بشكل متقطع ليطلب من أبيه بعدها بعض المال الذي ينفقه مع أصحابه في رحلاتهم وتجوالاتهم...يبحث عن كسب سريع من بيعه -عبر الإنترنت- لبعض الملابس القديمة أو القطع المستعملة التي يُحَصِّلها من أسرته أو أقاربه...ويبقى عاطلاً عن عمل الدين والدنيا أيامًا...وهمه اليوم الذي يعيشه فحسب.

كان أبو الأولاد «أبو السعيد» قد بلغ الثانية والستين من عمره...اشتد مرضه وتكرر إدخاله إلى المستشفى. فطلب من عاصم أن يعجل بالزواج ليشهد عرسه ولئلا تُذهب الحوادثُ بهجة اليوم المنتظر.

ماذا حصل مع أبي السعيد؟

وكيف أثر ذلك على سمير؟

وكيف بدأ شَتات سمير يتركز في اتجاه واحد؟

وهل كان الاتجاه الصحيح؟

فلنتابع.

«تجسير الهُوَّة»
إيناس (٢)

تزوج عاصم بحضور أبيه...وكانت فرحة للعائلة، بما فيهم أبو السعيد الذي حفظ لابنه عاصم وقفته معه وتضحيته بطموحه ليسنده... فكان وجهه مشرقًا يحبس دموع الفرح وهو يرى ابنه عاصمًا عريسًا...

بعد ثلاثة أسابيع من عرس عاصم، توفي أبو السعيد.

توفي وترك خلفه ذكرى طيبة وألسنة تلهج بالدعاء له.

والملفت للنظر أن سميراً، على ما فيه، لم يكن أقل حزنًا وتأثراً من إخوته على موت أبيهم. فقد كان سمير «عالةً» على أبيه كالطفل، فأحس بعد وفاته بالشوق الشديد إلى أبيه الذي لطالما تحمل حماقاته وحاول أن يساعده في شق طريقه دون جدوى! واشتاق حتى لـ«بهدلات» أبيه وعتابه له...

مع أن وفاة أبيه كانت متوقعة، إلا أنها كانت صدمة لسمير...جعلته يخرج من دوامة غفلته قليلاً...فانتظم في صلاته وأصبحتَ تراه يجلس أحيانًا في زاوية المسجد يقرأ القرآن...

كان بينه وبين أمه بعض الجفوة، إذ لطالما ردَّ بجفاءٍ وهي تنصحه وتحاول إيقاظه من غفلاته..بعد وفاة أبيه بدأ سمير يلتفت إليها:

- «فقدتُ أبي...لا زالت أمي حية»

بدأ يحاول التقرب إليها، وإن كان يجد صعوبة في ذلك. لكنه أحس بحاجته إليها وحاجتها لجبر خاطرها بعد وفاة زوجها، فتحسن تعامله مع أمه، وأصبح يعانقها ويقبلها إذا دخل البيت، بتكلُّفٍ وتردُّدٍ، إذ لم يعتدْ على إظهار العاطفة لها.

لكن أمراً ما بدأ يوتِّر سميراً!

في الأسبوع التالي لوفاة أبي السعيد، كان أبناؤه يجتمعون بشكل شبه يومي عند أمهم لتونيسها وتخفيف وحشة فقدها لزوجها...وبدأت مواضيعهم تعود للحديث عن حياتهم اليومية، فيتكلمون أمام سمير بكلام من مِثل:

- «كيف البقالة يا عاصم؟»

- «الحمد لله...كلمتُ جارنا أبا أحمد لأستأجر منه مخزنه وأضمه إلى البقالة لتوسيعها..ماذا عنك يا سعيد؟»

- «بعد انقطاعٍ، جاء لمكتبنا مشروع جديد والحمد لله: تصميم جسر على دوار الزهور»

وأمجد يكلم تالة:

- «كيف تفاعل طالباتك في دورات التربية؟»

- «من أجمل ما يكون سبحان الله! بعضهن يقلن لي: محاضراتك تؤلمنا من جهة، لأننا ندرك أننا مارسنا التربية على غير أساس، لكننا في المقابل أصبحنا نفهم أنفسنا أكثر، فضلا عن أولادنا، ونستمتع بتطبيق ما نتعلم عندك، بل ونفكر في الإنجاب من جديد لنبدأ مع أبنائنا الجدد بداية صحيحة....ماذا عنك أنت يا «وَحْش الطب»؟ ما مللتَ من القراءة؟»

- «إذا مللت فتحت فيديوهات الفسيولوجيا والتشريح...من الطب إلى الطب، لا أستمتع بشيء آخر!»

- «الله يستر من انغماسك هذا»

كان سمير يسمع هذه الحوارات ويفكر:

- «ما هذا؟!...كلهم ناجحون...كلهم عندهم مشاريعهم...إلا أنا!» فتقع كلماتهم عليه كالسياط! نجاحهم يستفزه ويُشعره بالدونية!

أحياناً وهم يتكلمون عن آخر أخبارهم وإنجازاتهم ينظرون إلى سمير بانتظار أن يقول هو ما عنده...ثم ينتبهون أنهم نظروا إلى الشخص الخطأ! فماذا سيكون عند سمير ليَذكره؟! فيصرفون النظر عنه سريعاً لئلا يحرجوه!

وكان هذا الموقف يُشعر سميراً بأنه لا شيء!

ثم جاءت اللحظة الفارقة...

بعد أسبوعين من وفاة أبي السعيد، تلقى سمير مكالمة من أخيه الأكبر المهندس سعيد:

- «سمير، نحتاج أن نجتمع لتقسيم الإرث».

- «تقسيم الإرث؟!»...فكَّر سمير في نفسه...لم يكن هذا الموضوع قد خطر بباله بعد.

تم الاتفاق على الاجتماع في اليوم التالي.

جلس الأبناء لتقسيم الإرث... اتفق الإخوة على ألا يباع البيت حالياً حفاظا على شعور أمهم وذكرياتها فيه، فتَبْقى أم السعيد في البيت مع سمير

وأمجد كونهما غير متزوجَين.

ستقسم الأرض التي كان يملكها أبو السعيد على كل من زوجته أم السعيد وسعيد وتالة وأمجد...ويتملك عاصم بقالة «الأُسرة» مقابل أن يدفع تسعة آلاف دينار لسمير، وبذلك ينال كلٌّ نصيبه الشرعي.

في هذا النقاش كله كان سمير قليل الكلام، تُقترح أمامه الحلول والتقسيمات فيوافق، واجماً مضطرباً يشعر بشعورٍ غريب...إنه شعور اليُتم على كَبَر! كان من قبلُ «عالةً» على أبيه... والآن عليه أن يشق طريقه لوحده، وأن يتحمل مسؤولية نفسه...ولم يعد له من «أبويةِ» أبيه إلا هذه التسعة آلاف دينار والسكنى في البيت الذي سيباع يوماً ما. لا أحد من إخوته أظهر له دور الأب من حيث الاستعداد لتحمل نفقاته وتبِعات قلة جِدِّيته. أحس سمير أن وفاة والده تركته «مكشوفاً» بلا كنفٍ يرعاه...

ولأول مرة، أحس سمير بمرارة الفرق الكبير بينه وبين إخوته، وبنوعٍ من الحسد تجاههم!

غادر الاجتماع وهو يقول في نفسه:

«ماذا أفعل؟ لا أتحمل هذا الشعور! لا أريد أن أكون أقل من إخوتي.. كلهم عندهم عملٌ يدر عليهم المال أو شهادة أو دراسة، إلا أنا!»...«لكن ماذا أفعل؟ عشرون سنة ضاعت من عمري..كيف أجسر الهوة بيني وبينهم؟»

اجتمع شتات أفكار سمير على المال، على اعتبار أنه الشيء الذي يمكن أن يزاحم به إخوانه.«أريد أن أحصل على المال والمكانة بأي شكل، نعم...بأي شكل من الأشكال!»

كانت هذه لحظة دخوله مضمار السباق، مشحوناً بالخوف من الوصف بالفشل، وألم الشعور بالدونية، ومستعداً للتبرير لنفسه...

تجسير الهوة بنفَسٍ طويل، وتحمُّلُ تبعاتِ تقصيره طوال السنوات الماضية لم يكن خياراً بالنسبة لسمير...إذ أنه قارن بإخوته، وجعل معيار المقارنة بينه وبينهم ماديـاً، فأبصر فرقـاً مؤلماً..وهو لم يتعود أن يتحمل الألم ولا يصبر عليه...فاراد أن يغطي هذا الفرق بأي شكل.. «لكن كيف؟ من أين؟»

فكر سمير طويلا ثم قرر أن يجرب التجارة بالسيارات المستعملة. دخل تطبيقـاً للبيع على الموبايل وبدأ يستعرض السيارات وخصائصها ويرى أقربها إلى المبلغ الذي معه. وجد سيارة أعجبته، سأل صاحبها عن ثمنها فقال له:

- «سأكون صريحا معك: سيارتي تساوي عشرة آلاف دينار، لكن بها أعطال عديدة سأطلعك عليها ولذلك أنا مستعد لبيعها بتسعة آلاف وخمسمئة دينار».

ساوم سميرٌ الرجل كثيراً إلى أن قبل بتخفيض السعر إلى (٩٣٠٠) دينار. كانت آلاف سمير التسعة التي ورثها من أبيه قد تناقصت على حاجياته وطعامه. فطلب من أخيه سعيد أن يقرضه (٤٠٠) دينار فأعطاه، واشترى سمير السيارة. ثم انطلق بها إلى صديقه «هشام» صاحب محل تصليح سيارات:

- «هشام، اشتريت هذه السيارة وأريد بيعها. انظر ماذا يلزم لتصليحها ؟ »

بعدما تفحصها قال هشام:

- «انظر...إذا أردت تصليحاً حقيقياً بحيث لا تُتْعب المشتري بعد فترة فستكلفك (٣٥٠) ديناراً، وإذا أردت تصليحات أي كلام، تمشاية حال، فيمكن أن أصلحها لك بـ (١٥٠) ديناراً فقط، لكن لا أكفلها لك. سوق القطع المستعملة متباين في جودته بشكل كبير».

كان هذا أول اختبارٍ من نوعه لسمير وأمانته....فكر متردداً بين خوف الحرام من جهة، وشعار «أريد أن أحصل على المال بأي شكل» من جهة أخرى.

- «أنت ما رأيك يا هشام؟»

- «بكم ستبيعها؟»

- «بـ ٩٩٠٠ دينار...رقم جذاب».

- «عليك بكم؟»

لم يصارحه سمير...«علي بـ٩٤٠٠».

- «يعني إذا اشتغلنا فيها شغلاً على أصوله ستربح ١٥٠ ديناراً....لا شيء...جهدك يستحق أكثر من هذا»...

سكت هشام قليلاً، أشعل سيجارة، ثم قال:

- «كل الناس يصلحون أي كلام...إذا الكل سيشتغل حسب الأصول لا أحد سيربح في المستعمل المحتاج لتصليح».

- «لكن الواحد يخاف الحرام».

- «أنا لم أقل لك أنا إذا صلحناها بقطع أرخص فستخرب بالتأكيد..

ممكن تمشي مع المشتري...إذا أردت حلاً وسطاً بِعها ثم إذا تعطلت قطعةٌ من القطع التي سنضعها وراجَعَك المشتري صلحها له على حسابك...لا يموت الذيب ولا تفنى الغنم».

بدا هذا حلًّا «وسطاً» مغرياً لسمير! حاول مساومة هشام ليصلح تصليحاً «حسب الأصول» بتكلفة أقل لكن هشاماً اصر أنه لا يستطيع. فاتخذ القرار بسماع «نصيحة» هشام!

- «طيب على...»

أراد سمير أن يقول: «طيب على بركة الله»، لكنه أحس أن العبارة «مش راكبة»...كيف تكون على بركة االله وفي العملية غش مُبَطن؟! فعاد وقال:

- «طيب صلحها بـ ١٥٠».

هشام:

- «توكلنا على الله»!

كان هذا ظهراً...في صلاة العصر فكر سمير في نفسه: «أتصل بهشام وأقول له يصلحها حسب الأصول لأبدأ بداية مباركة»...انشغل بعد الصلاة، نسي...تذكر، تكاسل عن الاتصال، أجَّل، نعس، نام..فاتته صلاة المغرب...جمعها إلى العشاء..فكر في الاتصال بعدها..أجل لليوم التالي..انشغل في صبيحة اليوم التالي...ثم اتصل ظهراً:

- «هشام، خايف نكسب خَطِيَّة في المشتري...خلص، صلحها بالتكلفة الأعلى»...

- «تأخرتَ يا صاحبي، صِرت شاري القطع وبدأت في التركيب..ما

عليك، توكل على الله، إن شاء الله بيمشي حالها»...

في داخله، كان سمير مسروراً أن صاحبه بدأ بالتصليح الأقل تكلفة، وأقنع نفسه أنه «حاول» أن يتدارك الأمر!

أنهى هشام إصلاحاته الترقيعية بعد يومين...فأخذها سمير ووعده أن يسدد تكلفة التصليحات عندما يبيع السيارة، ثم عرضها للبيع...بدأ يستقبل المكالمات...عايَنها عدة أشخاص عبر ثمانية أيام، إلى أن جاء «علاء»: موظفٌ شابٌّ في شركة شحن...عاينها ثم التفت إلى سمير:

- «على الأمانة...نظيفة؟»...

- «والل....»..أراد سمير أن يحلف لكنه تدارك نفسه...

- «صدقًا ممتازة»..

ساوم علاء سميراً على السعر...رضي سمير في النهاية بـ٩٨٥٠ وأقنع نفسه بأن هذا يخفف وطأة التصليحات الترقيعية...سلمه علاء المبلغ وقال:

- «هذه حيلتي..جمعتها ديناراً بدينار عبر السنوات الماضية».

تردد سمير للحظة وهو يرى ابتسامة علاء فرحًا بهذه السيارة...لكنه أقنع نفسه سريعًا:

- «ما فرقية مئتي دينار في التصليح بالنسبة لسعر السيارة؟ إن شاء الله لن تتسبب له في مشاكل....لو دفع قليلاً ما المشكلة؟ كل الناس يفعلون ذلك...أريد أن أربح...لا أطيق أن أرى إخوتي ينجحون وأظهر أنا أقل منهم كأني غبي فاشل!».

استلم علاء السيارة وانطلق بها...وانطلق سمير بالـ٩٨٥٠

ديناراً...«٤٠٠ دينار ربحي في سيارة واحدة...بداية ممتازة!» عاد للبيت...صلى الظهر...أثناء صلاته بدأ يجمع ويضرب ويحسب في ذهنه!:

- «٤٠٠ دينار خلال ١١ يوماً من شراء السيارة إلى بيعها...يعني في الشهر حوالي ١٢٠٠...يعني...أستغفر الله....﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾»...يتابع القراءة ثم تهجم عليه الأرقام ثم يتابع!

سلم من صلاته ثم أمسك الموبايل سريعاً ينظر في عروض السيارات المستعملة...يريد أن يشتري سيارة أخرى...للحظةٍ تذكر: «عليَّ أن أرد لأخي سعيد الـ(٤٠٠) دينار التي استَدَنْتُها منه، ولهشام الـ(١٥٠) ديناراً تكلفة تصليحاته. لكن، لماذا لا أؤخر السداد لأستفيد من المبلغ وأتمكن من شراء سيارة أفضل؟ سعيد هو أخي، وعليه أن يساعدني، ولديه مال أكثر مني، وهشام هو صديقي، وهو أصلاً قليل الأمانة، صلح السيارة «تمشاية حال»، فليس له أن يتوقع أخذ حقه مباشرة. سأؤخر سداد المال لهما».

عبر يومين عاين سمير عدداً من السيارات إلى أن وقع اختياره على إحداها...لكن المبلغ الذي معه لا يكفي...يحتاج ٥٠٠ دينار...«وجدتها! أستدين من أمي».

مع انشغال سمير بالهدف الذي حدده لنفسه، أصبحت بؤرة تركيزه في المال، وما عدا ذلك خلفية باهتة لا يراها سمير وإن كانت في مجال بصره! وبدأ الأشخاص الذين لا يخدمونه في تحقيق هذا الهدف يخرجون من دائرة اهتماماته، ولا يعودون إليها إلا إذا أراد الاستفادة منهم لتحقيق هدفه... ومن هؤلاء أصحابه في الطفولة والشباب، ومنهم: أُمُّه!

كانت أم السعيد قد شُخِّصت في تلك الفترة بمرض الحمى الذؤابية... وفي قلبها غُصَّة من سمير أنه قلما يسأل عنها أو يجلس معها...قلما يستيقظ إذا حاولت إيقاظه لصلاة الفجر...يفطر أو يتعشى أحيانـًا معها ومع أمجد وهو شارد الذهن...وإذا كلَّمَتْه يجيب وهو ينظر في الموبايل يقلب النظر في السيارات...تسكت أحيانـًا لينتبه فيرفع نظره عن الموبايل:

- «عفواً...آآ...نعم يَمَّا» فينظر فيها وعيناه شاردتان...مختلف كثيرا عن أمجد العطوف الحنون، والذي يتابع أمر أدويتها ومراجعاتها الطبية على الرغم من انشغاله الشديد بدراسته.

الآن، هو بحاجة إلى أُمِّه ليستدين منها!

مرَّ سمير بمحل فواكه واشترى لأمه جوافة...دخل البيت:

- «أم السعيد، اشتريت لك جوافة من التي يحبها قلبك، تعالي نأكل مع بعض»

فرحت أم السعيد وتفاجأت بهذه الحركة غير المعتادة من سمير:

- «الله يرضى عنك ويسلم إيديك».

أكلا معـًا...استحى سمير من مفاتحة أمه بالموضوع مباشرة... أخَّرها حتى المساء...ثم بدأ «يدردش» معها:

- «يمَّا هل تعلمين أني بدأت أتاجر في السيارات؟»

- «ما شاء الله! الله يفتح عليك».

- «بعت سيارة وربحت فيها ٤٠٠ دينار»

- «ما شاء الله! الله يزيدك ويوسع عليك»

- «انظري...هذه هي السيارة التي أفكر في شرائها...إيش رأيك فيها؟»

- «جميلة...أحب اللون الأسود على السيارات».

كانت أم السعيد مسرورة بهذه الدردشة التي لم تعتد عليها من سمير. ولم تعلم المسكينة مغزاه منها.

- «المشكلة أنها غالية يمَّا...المبلغ الذي معي أقل من ثمنها بـ(٥٠٠) دينار فقط»...

سكتت أم السعيد ولم تدرك المغزى، فتابع سمير:

- «لو أن أحداً يقرضني هذه الخمسمائة دينار فسأربح فيها وأرد له دَينه».

هنا قالت أم السعيد ببراءة وعفوية:

- «طيب أنا أعطيك يا بني»

شَبَكَتْ السُّنارة!...

- «لا لا يا أمي...أنت تحتاجين هذا المال»..

- «لا يا بني...انتظر»..

قامت أم السعيد وأحضرت إسوارة كان أبو السعيد قد أهداها لها في بدايات زواجهما...

- «خذها وبعها يا سمير».

عرف سمير الإسوارة...

- «هذه من أبي يا أمي..تعز عليك بالتأكيد»...

- «ما عليك...عندي غيرها منه رحمه الله. اشترِ السيارة، ولما تبيع وتربح أرجع لي ثمنها»...

- «طيب الله يسلم إيديك يا حبيبتي ويحفظك لنا...أعدك بسداد الثمن في أقرب فرصة».

انطلق سمير ليشتري السيارة... فأحست أمه مع هدوء البيت بأن ما حصل لم يكن عفوياً، ابتداء من الجوافة وانتهاء بالدردشة غير المعتادة! ووقع في قلبها من ذلك غصة! لكن مع ذلك رجتْ لابنها التوفيق في تجارته.

اشترى سمير سيارته الثانية. كانت تحتاج تصليحات بسيطة، لكنه استحى أن يصلحها عند هشام وهو لم يسدد له تكلفة تصليحات السيارة الأولى. فأصلحها في محل آخر، ثم عرضها للبيع وباعها.

مرت خمسة وعشرون يوماً وسمير يبيع ويشتري السيارات المستعملة...اتصل هشام صاحب محل تصليح السيارات بعدها:

- «كيفك سمير؟»

- «الحمد لله، هلا بهشام».

- «سمير، عفواً، لم أرغب أن أطلب منك، لكنك تأخرت في السداد».

- «آه، معك حق يا هشام. معلش سامحني، تأخرت عليك...لكن أُبشرك أن تجارتي في السيارات تسير على ما يرام، أعطني أسبوعاً واحداً و أعدك أن أسدد حسابك».

اغتاظ هشام:

- «لا يا سمير، من هنا إلى غدٍ، إن لم تعطني مالي فلن أصلح لك أية سيارة مستقبلاً. لقد تأخرت كثيراً».

- «لَه لَه...كُلُّه ولا زعلك يابو الهُشُم. غداً صباحًا يكون المال عندك».

وبالفعل، أعطاه حسابه في اليوم التالي.

ماذا حدث في هذا اليوم مع علاء مشتري السيارة الأولى المخدوع بالتصليحات الشكلية؟

وماذا حصل لطالب الطب المنهمك في دراسته أمجد؟ فلنتابع.

«ما لك يا أمجد؟»
إيناس (٣)

مدير شركة الشحن التي كان علاء «مشتري أول سيارة من سمير» يعمل فيها مديرٌ صارم ويطالب الموظفين ألا يتأخروا أبداً عن بدء دوامهم الساعة الثامنة. ولذلك اشترى صاحبنا السيارة على بساطة حالته المادية، لأنه كان يتأخر أحياناً في المواصلات رغماً عنه فيؤنبه المدير.

لم تمر على شرائه السيارة إلا أسابيع قليلة ومع ذلك بدأت الأعطال تظهر! توقفت معه السيارة وهو ذاهب إلى العمل، تفاجأ، فاتصل بسمير، لكنه كان نائماً...فذهب صاحبنا يبحث عمن يصلح سيارته...جاء بالميكانيكي ومضت ساعة وهو يصلحها ثم طلب من علاء (٤٠) ديناراً فدفعها وهو متضايق وحزين على سيارته التي اشتراها حديثاً...

وصل عمله متأخراً كثيراً...استدعاه المدير:

- «هذه آخر مرة..لن أتحمل تأخرك مرة أخرى».
- «صدقني يا حضرة المدير اشتريت سيارة لئلا أتأخر، ومع ذلك...»
- «ليست مشكلتي...الشغل لازم يمشي. مع السلامة..على مكتبك».

استيقظ سمير...رأى المكالمة الفائتة من علاء...تعكر مزاجه... تردد في الرد عليها أو إهمالها:

- «على وجه الصبح؟! يا أخي حلّ عني!»

عاد فقال لنفسه: «لكن بلاش أبدأ تجارتي بهذا الشكل...إذا كانت تكلفةً بسيطة فسأتحملها»:

- «ألو».

- «سمير؟»

- «نعم تفضل».

- «أنا علاء الذي اشتريت منك السيارة الهونداي البيضاء من أسابيع».

- «نعم، أهلا...تفضل، كيف ممكن أساعدك؟»

- «أخ سمير السيارة اليوم تَعَطَّلَتْ وأخبرني الميكانيكي أن العطل بها قديم، وقد تكلفتُ في تصليحها».

- «لا، مستحيل! السيارة ممتازة وما كانت محتاجة لشيء وأنا تأكدت من ذلك قبل أن أبيعك إياها».

- «هذا ما حصل معي».

- «غريب جداً! على كلٍّ كم كلَّفَتْك؟».

- «أربعين ديناراً. لكن ليس هذا المهم..الأهم أني تعطلت عن عملي وأكلت بهدلة».

- «لا حول ولا قوة إلا بالله...صِدقاً غريب ما حصل معك...على كل لن أرضى لك المضرة، وفي النهاية هذه سيارات مستعملة وممكن تحصل حالات شاذة. سأتكفل أنا بتكلفة التصليح. ابعث لي رقم حسابك وسأحول لك المبلغ عليه».

- «يبدو أنه خدعني! لو كان صادقًا لما عرض التكفُّلَ بالتكلفة بهذه السرعة. لا، لا....﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾...الرجل كان بإمكانه ألا يتكفل بالتكلفة...لعله صادق وانخدع بالسيارة لما اشتراها»....

أرسل علاء رقم حسابه لسمير، وحول له سمير مبلغ الأربعين ديناراً بالفعل:

- «يا خسارة! فرحنا بالـ٤٠٠ دينار التي كسبناها من هذا الرجل وها هي تنقص...على كل خليني أُحَلِّل لقمتي أبركُ لي».

أحس سمير أنه أدى ما عليه كاملاً بالأربعين ديناراً التي دفعها! وقرر في نفسه أنه لن يتحمل أية تكاليف إضافية إذا اتصل به علاء لاحقًا.

بعد «يوم الجوافة» المميز! أفطر سمير مع أمه وأمجد يومين، ثم عاد للتثاقل عن الاستيقاظ للفجر وللفطور معهما.

لكن أمراً آخر أزعج أم السعيد: أمجد...هناك تغيُّرٌ ملحوظٌ في مزاجه...أصبح هو الآخر يتثاقل عن الاستيقاظ للصلاة...ملامح وجهه فيها شيء من الكآبة...ما عاد «يدردش» مع أمه كالعادة...

جلست معه أمه على الفطور:

- «أمجد، ما لك يا حبيبي؟»

- «لا شيء يا غالية».

- «مش على بعضك».

- «يمكن بالي مشغول بالامتحانات..لا تحملي هم يا حبيبتي».

أكل أمجد لقيمات ثم انطلق إلى الجامعة.

- «معقول أن أكون قد تسببت بالكآبة لأمجد؟ معقول لأني شغلته عن دراسته التي كرس حياته لها؟ شغلته بكثرة المراجعات الطبية ومتابعة الأدوية؟ هل أصبحتُ حِملاً على أولادي؟ أمجد لا يصارحني... من يمكن أن يكلمه؟... تالة..سيكون أمجد صريحاً معها».

واتصلت أم السعيد بابنتها تالة...

مساء ذلك اليوم أخذت تالة السيارة من زوجها، اتصلت بأمجد:

- «أمجد، أريد أن أذهب معك إلى التلة التي كان أبي رحمه الله يأخذنا إليها في طريق المطار».

- «بصراحة مشغول يا تالة..عندي اختبارات».

- «أنا لا أسألك، أنا أخبرك! وها أنا في الطريق...جهزت لك كوباً من عصير الفواكه الذي تحبه. انتظرني أمام البيت بعد ربع ساعة».

كان أمجد مشغولاً بالاختبارات بالفعل، لكنه كان محتاجاً لتالة وارتاح لفكرة الذهاب معها...

لاحظَتْ تالة اختلاف ملامح أخيها واختفاء بريق عينيه وإشراقة وجهه....انطلقا باتجاه التلة...كلَّمَتْه في الطريق قليلاً:

- «كيف دراستك؟»

- «الحمد لله»

- «كيف علاقتك بالله؟»

- «الحمد لله».

- «تمام؟»

- «لا تمام...الواحد لا بد أن يكون مقصراً».

- «ما قراءاتك وأنشطتك مؤخراً؟».

- «لا شيء...الدراسة تأخذ وقتي كله. وأحياناً أكون مع الغالية في المراجعات الطبية».

- «اشرب العصير وهو بارد».

- «سلم الله يديك».

- «ويديك».

وصلا التلة...جلسا على صخرة ونظرا باتجاه الغروب....

- «ما لك يا أمجد؟».

- «تعبان».

- «لماذا يا صديقي؟».

- «لا أعلم...عندي اكتئاب..ذهبت لطبيب نفسي وشخصني ووصف لي أدوية. لم أخبر أمي بذلك».

- «بدأتَ تأخذ الأدوية؟»

- «لا..مترددٌ..أفكر في البدء بجلسات العلاج النفسي اللادوائي... لكن ممكن بعد الاختبارات...الآن مشغول».

- «في رأيك ما السبب في الاكتئاب الذي تحس به؟»

- «لا أدري...أقول لعلها فورَةُ حزنٍ متأخرة على وفاة والدي رحمه الله...أو لعلها الحزن على مرض أمي...أو ضغط الدراسة».

- «هل أيٌّ من هذه العوامل جديد؟»

- «لا».

أمسكت تالة بيده:

- «أمجد...ما تعانيه الآن هو نتيجةٌ لعدم التوازن في حياتك...أُحادية الاهتمامات التي لطالما حدثتك عنها...والتي تؤدي إلى الهشاشة النفسية وسهولة الانكسار...أخي الحبيب، كلنا سعداء باهتمامك ونجاحك في دراستك. لكن الحياة ليست كلها دراسة. تذكر قول نبينا صلى الله عليه وسلم: «فأعطِ كل ذي حق حقه». نفسك لها حقها عليك...تحتاج بناء علاقات اجتماعية، تحتاج أن تُرَوِّح عن نفسك، تلعب الرياضة...وقبل هذا: وِرْدُك اليومي من القرآن وتعلُّم دينك...»

- «آآآآه يا تالة! هجرتُ هذا كله بالفعل! كنت أقول: أشد همتي في الدراسة في البدايات لأؤسس لنفسي قاعدة معلوماتية صلبة ثم أعود لحياتي...ثم مرت الأيام وأصبح وقتي قليل البركة والصفحة تأخذ مني ثلاثة أضعاف ما كانت تأخذه مني في دراستها سابقًا...أعيد الفيديو مرتين وثلاثة لأفهمه وأنا الذي كنت أفهم من أول مرة، وفوق هذا كله لستُ سعيداً».

- «التوازن شعار حياة، يجب أن يكون حاضراً دائمًا ولا يؤجَّل ولا يعلق على إنجاز».

- «صدقتِ».

- «متى تنتهي اختباراتك؟»

- «بعد غدٍ».

- «طيب، لن أقول لك سَنُعِدُّ برنامجًا من اليوم...أنهِ الاختبارات،

ثم بعد غدٍ زُرْني في بيتي لننظم سوية برنامجاً متوازناً لك».

- «طيب إن شاء الله. تنصحينني أن آخذ الأدوية التي وصفها الطبيب حتى ذلك الحين».

- «يمكنك أن تتمهل..حتى لو بدأتَ بأخذها فهذه الأدوية لا تعطي مفعولاً سريعاً».

- «نعم..درستُ ذلك».

- «طيب، تعال نعود لتستأنف دراستك، وموعدنا بعد غد...سأقول لأمي أن أمجد مضغوط وسأساعده في إدارة وقته ويعود يتحسن بإذن الله».

التقى سمير بأخيه أمجد وأمه على صينية الكفتة التي طهتها أم السعيد للعشاء...لاحظ سمير كآبة أمجد...سأله بعد العشاء:

- «ما لك؟»

لم يعتَدْ أمجد من سمير أن يسأله هذا السؤال أو أن يلاحظ مشاعره أصلاً! فصارحه رغبةً في استمرار الحديث معه:

- «تعبان نفسياً...سأقول لك بصراحة لكن لا تخبر أمي»

- «أبشر»

- «ذهبت للطبيب وقال لي معك اكتئاب».

- «اكتئاب؟!»...تنازع سميراً شعوران: هو لا يحب أن يرى أخاه على هذا الحال، لكنه في الوقت ذاته شعر أنه «أخيراً، أمجد ليس أحسن مني ولا أنجح مني...هو جادٌّ في دراسته مقدَّرٌ من الجميع ومتدين...

ومع ذلك أصابه الاكتئاب ولم يصبني. لستُ أقلَّ منه...الله يحبني إذ لم أُصَبْ بالاكتئاب مثل أمجد. أنا فيَّ خيرٌ كثير وأقوى من أن أكتئب».

- «طيب أخذت أدوية؟»

- «لا...تكلمَتْ تالة معي واتفقنا أن نعمل معًا برنامجًا لي لاستعادة التوازن النفسي».

- «التوازن النفسي؟»

- «نعم...أنت بحاجة إلى ذلك أيضًا يا سمير...ما رأيك أن تعمل معنا برنامجًا لك؟»

- «لا يا عم...أنا متوازن ومبسوط وأموري فل الفل والحمد لله.. على كُلٍّ سلامتك، ما تشوف بأس».

لم يُرِدْ أمجد أن يجادل أخاه:

- «الله يسلمك»... وانصرف إلى دراسته.

بعد جلسة أمجد مع تالة وتنظيم البرنامج، بدأ يتحسن ببطء، ويجد صعوبة في الالتزام بالبرنامج، خاصة مع تراجع صحة أمه... كانت تالة تعززه وتتابعه...ويأخذ منها ذلك وقتًا فينفعل أحيانًا زوجها العصبي:

- «تالة! تالة! لا يوجد أي قميص مكوي أطلع به على الشغل وأنت على التلفونات!»

- «لحظة يا أمجد...حبيبي بسُّوم (اسم الدلال لـ«باسم»)، مع أمجد واللهِ...تحملني...(والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)...شاركني الأجر...ثواني وأكوي لك قميصًا»...«أمجد، أعود لك بعد قليل».

الجميل في باسم أنه على صعوبة طباعه يُهَدِّئه ذكر الله...فسكت وأعدَّ حقيبته ريثما كوت له تالة القميص.

بقيت أم السعيد تشعر بالألم لشَغلها أمجد عن دراسته وبرنامجه الذي أعده مع تالة، فاتصلت بجارةٍ صديقةٍ لها أرملةٍ:

- «أم علي، أنا مستحية أطلب منك هذا الطلب...أمجد ابني طالب طب كما تعلمين.. ومؤخراً انشغل كثيرا عن دراسته بمرضي. هل ممكن تزوريني الفترة الصباحية ليطمئن أن عندي من يساعدني إذا احتجت؟»

- «على الرأس والعين يا أم السعيد. ابني عليّ قادم بعد أسبوعين إن شاء الله لأسافر معه...حتى ذلك الحين سأرابط عندك إلى أن تملّيني».

- «له يا حبيبتي، لا أملّك أبداً...البيت بيتك».

ألحت أم السعيد على أمجد أن ينتبه لدراسته وبرنامجه المتوازن:

- «خالتك أم علي عندي...لا تقلق».

كانا أسبوعين ذهبيين لأمجد...التفت إلى دراسته، وانضم إلى دورة شرعية على النت، وسجل في نادٍ رياضيٍّ، وذهب في رحلة مع أصحابه... كان أمجد يتصل بأمه كل ساعة أو ساعتين، وبين المحاضرات...أمه تحتاج أن تشغل سماعة الموبايل (السبيكر) لتسمع بشكل أفضل...

- «كيف حالك يا حبيبتي؟»

- «الله يرضى عنك. الحمد لله».

- «ناقصك حاجة يا نور عيني؟»

- «الله ينور دربك وعمرك...مش ناقصني شيء...دير بالك على

حالك».

- «حالي بخير ما دمتي بخير يا تاج راسي».

وأم عليّ تسمع هذا «الغَزَل»، والذي تفخر به أم السعيد...فهي تباهي بأن ابنها يعاملها بهذه الطريقة وأنها غالية عليه بهذا الشكل، وأمجد يعلم ذلك ويريد أن «ينفش رأس» أمه ويُشعرها بالاعتزاز أمام صديقاتها ويبهج قلبها...على ما فيه من بقية اكتئاب يغالبه.

انقضى الأسبوعان وسافرت أم علي، لكن تالة كانت قد اتصلت بإخوتها ليقفوا بجانب أمهم ولا يتركوا المهمة لأمجد، فهو بدوره بحاجة للمساعدة.

بدأت تالة تتردد على أمها في الصباح...

عاصم، صديقُ أمه المقَّرب منذ الصغر، أصبح يترك المحل للموظف الذي يساعده أحيانـًا ليذهب ويطمئن على أمه ويساعدها.

وكان أقلهم زيارة للبيت سعيد، لبعد بيته وانشغاله الشديد بأعماله، لكنه كان يتصل بأمه ويزورها في عطلة نهاية الأسبوع، وتتطوع زوجته أحيانـًا بزيارة حماتها.

اقترب يوم عيد الأضحى....ماذا حصل مع أم السعيد في العيد؟

وماذا حصل في الناحية الأخرى مع علاء، المشتري المخدوع؟

وما موقف سمير في الحالتين؟

فلنتابع.

«أمي ليست حِملاً»
إيناس (٤)

صبيحة يوم عرفة، قبيل عيد الأضحى، اشتد مرض أم السعيد حتى اضطر أمجد وعاصم إلى نقلها إلى المستشفى. تلقت علاجًا مكثفًا، ومَعَهُ أدعيةُ أبنائها ومحبيها إلى أن استقرت حالتها صباح يوم العيد.

لم يكن سمير يعلم بهذه التطورات لانشغاله بموسم بيع السيارات قبيل العيد...اتصل به أمجد وأخبره...فجاء إلى المستشفى ليجد إخوته جميعًا ومعهم باسم زوج تالة في قاعة الانتظار...سُمح لهم بالدخول فدخلوا واطمأنوا على أم السعيد.

لو أطلَّ سمير من زجاج قاعة الانتظار في المستشفى لرأى مشهداً فاته دون أن يعلم عنه! إنه مشهد علاء، المشتري المسكين المخدوع، وهو يدفع سيارته إلى جانب الطريق بمساعدة بعض المارة.

لم يكن هذا العيد سعيداً بالنسبة لعلاء! صلى صلاة العيد وعاد فأفطر مع زوجته وابنه وتجهزوا ليذهبوا إلى منزل والدَيه، حيث كان يجتمع هو وإخوته وعوائلهم كل عيد فيُعَيِّدون أمهم (يعطونها العيدية) ويُعيِّدُ كلٌّ أخ أبناءَ إخوانه في ساعة بهيجة.

استيقظ صاحبنا علاء سعيداً لأن هذا أول عيد معه فيه سيارة كباقي إخوته، وبالتالي سيستطيع أخذ زوجته وابنه، ولن يحتاج للخروج من صلاة العيد مباشرة إلى المواصلات، حيث يصرف وقتا طويلاً إلى أن يصل منزل والديه.

خرجت العائلة مسرورة في السيارة التي اشتراها صاحبنا من سمير... لكن، في منتصف الطريق تعطلت مرةً أخرى! تفاجأ صاحبنا وتورط: ماذا يفعل؟ استعان ببعض المارَّة ليزيح السيارة إلى جانب الشارع، ثم حاول الاتصال بسمير. كان سمير في قاعة الانتظار في المستشفى. رأى اسم علاء فتمعَّر وجهه وتمتم في نفسه:

- «أووووف! أنا في إيش ولَّا في إيش!.... أمي تعبانة، وانشغلنا عن البيع والشراء... روح صلح السيارة وحل عني! اسمها سيارة «مستعملة»، «مستعملة»... تتوقعها أن تكون سوبر ديلوكس يعني؟!»...

وفصل الخط على علاء.

حاول علاء الاتصال مرة ثانية فحول سمير الموبايل لوضعية الصامت...اتصل علاء مرة ثالثة دون جدوى. فاتصل بميكانيكي يعرفه ليصلح السيارة فلم يرد أيضاً، فاليوم يوم عيد والكل مشغول.

علم صاحبنا أنه سيكون من الصعب تحصيل أي ميكانيكي لهذا اليوم، فوقع في حيرة:«ماذا أفعل؟ هل أوقف (تكسي) لأذهب مع عائلتي إلى بيت والدي؟ لا أعرف كم سيكلف تصليح السيارة. المبلغ الذي ادخرته بالكاد للعيدية سأحتاجه الآن لتصليحها. هل يُعقل أن يعطي إخوتي العيدية لأمي ولابني وأقف أنا متفرجاً؟ أم أستدين منهم؟ أستدين في العيد وإخوتي أحوالهم متواضعة كحالي؟!».

وهو يفكر بهذا الشكل اتصل به أخوه الأكبر، فقد كانوا جميعاً مجتمعين في بيت والدهم واستغربوا تأخره عنهم. لم يعرف علاء ماذا يقول لأخيه فلم يرد على الاتصال.

في النهاية كان القرار الصعب الذي اضطر لاتخاذه: أن يعود بزوجته وابنه إلى البيت، تاركين وراءهم السيارة المعطلة، ومضيعين الساعة البهيجة التي كانوا ينتظرونها.

أوقف صاحبنا تكسي، وعاد مع عائلته بخيبة أمل إلى البيت. كانت اتصالات كثيرة جاءته في هذه الأثناء من إخوته وهو لا يرد، إلى أن جاء اتصال من أبيه فاضطر للرد:

- «السلام عليكم يا أبي».

- «وعليكم السلام. أين أنتم يا علاء؟! الكل مجتمع وبعد قليل سننطلق».

- «سامحوني يا أبي، ظروف صعبة، حسبي الله على الذي باعني السيارة، تعطَلَتْ مرة أخرى. وأنا الآن في البيت».

- «في البيت؟! لماذا لم تأتوا إلينا بتكسي؟»

- «سامحني يا أبي، ظروف»...

استحى صاحبنا أن يقول لوالده أنه ليس معه ما يكفي لتصليح السيارة وتقديم العيديات، وأنهى المكالمة، وجلس كسير البال.

طبعاً، لم يكن سمير يعلم بشيء من هذه المعاناة التي تسبب فيها لهذا المسكين حين خدعه ليوفر بعض المال في التصليحات الشكلية.

انطلق إخوة سمير من غرفة أمهم لزيارات العيد، وانطلق سمير لزيارة صديق له ثم استكمال تجارته، وبقيت تالة عند أمها... وتواعدوا أن يلتقوا مجدداً عند أمهم قبيل المغرب.

بعد العصر اتصل سعيد بسمير:

- «أمي تحسنت كثيراً والحمد لله. سأذهب لأنزلها من المستشفى».

- «سآتي معك»...هذه الكلمة التي كان سعيد ينتظرها من سمير، لكن سميراً لم يقلها!

- «طيب الحمد لله...ممتاز»

- «الملتقى في بيت العائلة الساعة السادسة».

- «قد أكون مشغولاً في ذلك الوقت...على كلٍّ إذا استطعت سآتي»..

بنبرة حازمة قال سعيد:

- «المفروض تترك كل شيء وتأتي...الله أعلم كم تبقى أمي بيننا، وهذا يوم عيد!».

- «طيب طيب...سآتي».

اجتمع الأبناء عند أمهم الساعة السادسة...أحضر لها سعيد خاتماً ذهبياً ثميناً، وتالةُ معطفاً ليدفىء أمها في الشتاء، أما عاصم فقد قطع تذاكر ليأخذ أمه في عمرة إلى بيت الله الحرام:

- «شدي حيلك يا حبيبة الكل، معك شهر واحد لتقفزي كالغزالة إن شاء الله حتى أطلع معك عمرة يا صديقة عمري».

- «إن شاء الله، يا رب يَسِّر».

أمجد كان أقل إخوته مالاً...كان قد باع جزءاً من حصته في الأرض لسعيد، ليصرف على حاجياته وعلى أدوية أمه ومراجعاتها الطبية...وأمه قد باعت حصتها لباسم زوج تالة...ومالها في «الخزانة»...فكانت تفترض أن أمجد يأخذ من الخزانة ليصرف على علاجها، لكنه كان في الواقع يأخذ

من ماله هو، إلا المال الذي احتاجه لإدخال أمه المستشفى أمس، حيث شحَّ المال المتبقي لديه. ومع ذلك أحضر لأمه باقة وردٍ بسيطة على قدر طاقته مع كرتٍ كَتَب عليه: (حفظك الله تاجاً على رؤوسنا يا غالية).

ماذا عن هدية سمير؟ كان سمير يرى هذا كله من إخوته، ويسمع أمه وهي تترضى عنهم واحداً واحداً وتفرح بهدية كلٍّ منهم... ومع هذا لم يخطر بباله أصلاً أن يحضر لأمه هدية في العيد! ولم يستحِ من نفسه حين رأى نفسَه الوحيد بين إخوته الذي نسي أُمَّه من الهدية! بل لم يلاحظ ذلك ولم يخطر بباله أن يعوض هذا الخلل!

لقد كان مشغول البال بسيارةٍ «لُقطةٍ» (مميزة) يخاف أن تفوته! وكل ما لفت نظره في هدايا إخوته هو أن:

-«هدايا كهذه تدل على أن إخوتي معهم مال كثير...ماذا أفعل حتى يصبح لي مال مثلهم؟ تجارتي تنمو لكن ليس بالسرعة التي أرجوها»!

عندما أراد الأبناء مغادرة منزل أمهم، اقترب سعيد من سمير وهو مغتاظ من هذه الغفلة التي يراها في عيني سمير:

- «بالنسبة لد (٤٠٠) دينار التي استدنتَها مني، متى السداد؟»

تفاجأ سمير وارتبك:

-«آه، حقك علي، تأخرت عليك».

وحتى يبرر تأخره قال:

- «خُدعْتُ بإحدى السيارات وخسرت. أعطني أسبوعين وأسدد لك إن شاء الله».

سكت سعيد وهزَّ رأسه ولم يُرِدْ أن يحرج أخاه أكثر من ذلك ثم غادر.

انقضى العيد، واستمرت حالة أم السعيد في التحسن. فمَرَضُها من النوع الذي يتأرجح ويشتد ويخف. ومر أسبوعان أنهى فيهما أمجد الاختبارات النهائية للفصل الأول، وتماثل فيهما للشفاء من الاكتئاب، وبدأت إجازته القصيرة بين الفصلين.

فعاد إخوته لحياتهم العادية، وقل تفقدهم لأمهم...

ما إن بدأ أمجد فصله الدراسي الثاني حتى عادت صحة أم السعيد تتراجع من جديد..

- «تالة، أمي صحتها في تراجُع...زادت الطبيبة جرعة الدواء لكن التجاوب ضعيف»..

- «الله المستعان! طيب يا أمجد..لدي دورة تربوية أنهيها خلال أسابيع..سأحاول بعدها تفريغ وقتٍ لأمي ويكون باسم قد عاد من سفره إن شاء الله».

- «خلال أسابيع؟!»...فكر أمجد في نفسه...ظن أن تجاوُب تالة سيكون أقوى من ذلك...«مرت عدة محاضرات لم أدرسها بعد مع انشغالي بأمي».

لأول مرة توجه أمجد لسمير، والذي لم يكن قد لاحظ حالة أمه، حيث كان يمضي أكثر وقته خارج البيت وما عاد يتناول معها أيًّا من وجبات الطعام...كانت أم السعيد قد أرِقَتْ الليلة الماضية من الألم،

فتركها أمجد ولم يوقظها للفطور، وقال لسمير:

- «سمير، أمي رجعت تعبت».

- «الله المستعان».

- «تحتاج مراجعات عديدة»

- «طيب، أخبِرني صبيحة أيام المراجعات لأعطيك السيارة»...قالها سمير وهو يمشط شعره أمام المرآة استعداداً للخروج..

- «السيارة ليست أهم ما في الموضوع...من الصعب أن نترك أمي لوحدها في البيت».

- «أحضِرْ ممرضة وسأشاركك التكاليف».

- «ممرضة؟! أمي تحتاجنا يا سمير».

- «أمجد، فلنكن عمليين... لا نعلم كم سيطول مرض أمي. إذا أهملتُ تجارتي في هذا التوقيت ستفشل».

انطلق سمير، وترك أمجد، والذي قرر ألا يذهب ذلك اليوم للجامعة لأنه أحس أن أمه لن تستطيع أن تمضي النهار وحدها..

قطَّب أمجد حاجبيه:

- «ما هذا؟! إيش هذِي الخيبة؟! هل أصبحَتْ أمي حِملاً أحاول أن أرميه على غيري؟! بعد هذين الكفَّين اللذَين تلقيتهما من تالة وسمير لن أكلم سعيداً ولا عاصمًا»...

قام ليوقظ أمه..ثم عاد فجلس وقال في نفسه:«لكن أنا الأول على الدفعة على الرغم من الظروف التي مررت بها....هل سيفشل «الأول على الدفعة»

في الاختبارات؟ يا شماتة الحُسَّاد في الكلية! ولماذا أنا وحدي؟ أين إخوتي الأربعة؟! لو تقاسموا الحمل معي فلن أفشل في دراستي...«الحمل» مرةً أخرى؟! أمي أصبحت «حِملاً»؟! أين الدورات الشرعية التي حضرتُها؟ بل أين القرآن الذي أقرأه؟ أين ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾؟ هذا أول اختبار حقيقي لأرى هل أنا مِمَّن يتكلمون بلا عمل أم لا»...

«لكن كما قال سمير: «لا نعلم كم سيطول مرض أمي»...هل سأبقى معها طوال هذه الفترة؟ لماذا لا نكون «عمليين» ونحضر ممرضة؟؟»

«لا...أنا أعرف أمي..سوف تتحسس كثيراً من فكرة الممرضة».

قاطع تفكيرَ أمجد صوتُ أمه:

- «يا رب، بسم الله»...كانت تقوم بثِقل عن فراشها....فذهب ليساعدها...

- «لماذا لم تخرج لجامعتك يا بني اليوم أيضاً؟»

- «لا عليك يا غالية... سأَدْرُس المحاضرة من الكتاب وأسمع التسجيلات إن شاء الله»..

- «أرهقتك معي يا أمجد»... نظر أمجد في عيني والدته وهي تقول هذه الكلمات بحزن...فأمسك يديها وقبلهما:

- «لا تقولي ذلك يا حبيبتي...بل لي الشرف واللهِ».

- «روح يا أمجد، الله يرضى عنك وينور قلبك ويسهل لك حياتك ويدخلك الجنة بلا حساب ولا عذاب».

رقص قلب أمجد ونسي همه بهذه الكلمات:

- «الله! يسلم فمك ياغالية.... تعالي أعمل لك أحلى فطور»..

مر أسبوعان تراجعت فيهما حالة أم السعيد... وبدأت كليتاها تتأثران من المرض، فاحتاجت إلى زيارات متكررة لقسم غسيل الدم في المستشفى. كان سمير يرى أمه منحنية الظهر تمشي بإرهاق ليأخذها أمجد إلى المواعيد....وكان قصارى ما يفعله أن (يُصَبِّح) على أمه ويساعدها في ركوب السيارة وهو يقول: «سلامتك يَمَّا»... فقط! فباله مشغول تماماً بالسيارات والزبائن والتصليحات والربح!

لم يلاحظ سمير - مع انشغال تفكيره - أن أمه لم تكن تنظر إليه ولا ترد عليه وهو يقول لها: «سلامتك»، لأن صدرها لم يكن سليماً له!

تراكمت المحاضرات على أمجد...لاحظت أمه شرود ذهنه وتكدُّرَه على الرغم من محاولته إخفاء ذلك...وبينما هو بجانبها في المستشفى لجلسة غسيل دم:

- «أمجد...إيش صار بدراستك يا حبيبي؟»

- «ما عليك يا غالية... المهم الآن صحتك».

كان أمجد ينظر في كتاب التشريح الذي كان يحمله... متظاهراً بأنه يدرس حتى لا تشعر أمه بأنها عطلته عن دراسته، وإلا فهو لا يستطيع التركيز في أجواء المستشفى وكثرة الأصوات... استغرب أن أمه لم ترد على كلامه هذا. رفع نظره إليها... دموعٌ تنساح على خدَّي هذه المرأة الطيبة بصمت وهي تعض على شفتيها تحاول ألا يصدر صوتٌ لبكائها...ترك الكتاب جانباً وقام، أمسك بيدها ووضع يده الأخرى على جبينها وقبَّل خدها:

- «أمي، ما لك يا حبيبتي؟»

- «لا أحب أن أكون حجر عثرة في طريق نجاحك. أنت متضايق من تأخرك في دراستك وأنا أعرف ذلك»...قالتها أم السعيد بصوت متهدج.

- «حجر عثرة؟! أنتِ برَكة حياتي...أنت نور عَينَيَّ...أنت توفيقي ونجاحي يا أم السعيد»...وانهال على يدها يقبلها تارة ويقبل خدها تارة... إلى أن جاءت الممرضة.

تنحى أمجد بينما الممرضة تفصل خط جهاز غسل الدم وتُجَهز أم السعيد للخروج...

ما القرار الذي اتخذه أمجد بعدما رأى دموع أمه؟

ومن الشخص الذي دخل على حياة سمير ليغيرها جذرياً؟!

وما الكلمات الثلاثة التي أرسلها المشتري المخدوع علاء؟

فلنتابع.

دعوة مظلوم
إيناس (٥)

لم تمر دموع أم السعيد بسهولة على قلب أمجد! بينما كانت الممرضة تجهز أمه للخروج قال في نفسه: «أمي حساسة وتفهم ملامح وجهي مهما أخفيت...أريد أن أتفرغ لها قلبًا وقالبًا... ولن أستطيع فعل ذلك ما دمت في الجامعة. لا أريدها أن تبقى تفكر في دراستي...سأُسْقِط الفصل وأخبرها بذلك لأضعها تحت الأمر الواقع وأتفرغ لها»...

«لكن إسقاط الفصل يعني خسارة العام الدراسي كله...علي أن أعيد السنة كاملة وأخسر الفصل الأول! بل وربما أنقطع عن الجامعة لأكثر من عام إن لم يساعدني أحد في العناية بأمي»...

«وماذا تنفعني دراستي بل شهادة الطب كلُّها إن كانت على حساب صحة أمي ونفسيتها؟! هل أدرس لأعالج الناس على حساب علاج أمي وراحتها؟! سأحافظ على شعورها وكرامتها مهما كان الثمن، واللهُ لن يضيعني».

عندها، أحس أمجد بطمأنينة عجيبة! وتوقف تردده تمامًا، ولم يعد لديه أي حزن على فوات الدراسة، واتخذ القرار: «سأُسقط هذا الفصل غداً وأتفرغ لأمي». أحس أن بعض زملائه المنافسين في الكلية سيشمتون... استخرج جواله وكتب على مجموعة الكلية: «زملائي الأعزاء، سأُسْقِط هذا الفصل وأعود لكم عندما تستقر حالة أمي بإذن الله. دعواتكم»... قبل أن ينشر كلامه هذا فكَّر:

«ماذا أريد بكلام الناس؟ ليبقَ هذا بيني وبين الله»... فحذف كل ما كتب وأعاد جواله إلى جيبه وهو يقول في نفسه:

«واللهِ لن يضيعني الله!».

عاد أمجد بأمه إلى البيت. لم يُحَدث أمه بما عزم عليه لئلا تجادله...

في اليوم التالي، اطمأن أمجد إلى أن والدته أفطرت وذهبت تنام للقيلولة وبجانبها جوالها إذا احتاجت أن تتصل به... فذهب إلى الجامعة، أسقط الفصل، ثم عاد سريعًا باتجاه البيت، وبدأ يراسل بعض دكاترته ليخبرهم بالسبب لئلا يتفاجؤوا، فازداد في أعينهم رفعة، إلا دكتور فسيولوجيا الأمراض، والذي اتصل بأمجد فور وصول رسالته، وجعل يُحَمِّق أمجد ويحاول إقناعه بفكرة توفير ممرضة تلازم أمه وترافقها للمستشفى، إشفاقًا على هذا الشاب النجيب أن يتأخر في دراسته...لكن أمجد تمسك بقراره بطمأنينة.

عاد أمجد إلى البيت ومعه كنافة له ولأمه:

- «أم السعيد، تعالي نحتفل»...

- «بماذا؟»

- «قررتُ أن أتخصص من الآن»

- «بهذه السرعة؟ ألا تتخصصون بعد إتمام الطب العام؟!»

- «قررت أن أتخصص من الآن في ملء عينيَّ منك وكسب رضاك وإسعادك يا غالية»..

لم تفهم أم السعيد...أمسك أمجد بيديها:

- «أسقطتُ الفصل لأكسب شرف ملازمتك والتفرغ لك...وكان هذا أسعد قرارٍ في حياتي».

بكت أم السعيد:

- «لماذا يا بني؟! لماذا؟!»

- «أم السعيد، واللهِ إني لسعيد بهذا القرار...الدنيا كلها تهون لأجلك...أويس القرَني فاتته صحبة النبي صلى الله عليه وسلم لأنه لازم أمه وكان بها بارًّاً، فقال فيه النبي عليه الصلاة والسلام أنه خير التابعين، وأمر الصحابة أن يطلبوا من أويس الدعاء لهم على جلالة قدرهم...أنا ماذا يفوتني؟ دراسة فصل؟ لا شيء من أجلك يا غالية. تعالي نأكل الكنافة وهي ساخنة».

مع أن أمجد كان ينتظر الخير من بره بأمه، لكنه لم يكن يتصور كم سيكرمه ربه على موقفه هذا وعلى السعادة التي يدخلها على قلبها!

استمر سميرٌ في تجارته...لا زال هو وصديقه هشام يغشان -أحياناً- في تصليح السيارات المستعملة، لكنْ غشاً أقلَّ سوءاً من الذي غشه في سيارة علاء، خوفاً من سوء السمعة ومن قلة التوفيق في التجارة. وزاد تأخره عن البيت، فأصبح نادراً ما يفطر أو يتعشى مع أمه وأمجد.

عاد مبكراً بعد يومين من إسقاط أمجد لفصله الدراسي...وأمجد يصلي المغرب في المسجد...مَّسى سمير على أمه وهو شارد الذهن ثم جلس على الكنبة الكبيرة في غرفة المعيشة، مقابل كَنَبة أمه، يُقَلب في جواله. كانت أم السعيد تنتظر من سمير أن يسألها عن صحتها أو يبدي

استعداداً لأخذها للمراجعات الطبية...مرت ربع ساعة ولم يفعل ولا رفع عينيه عن جواله!

- «آه...يا رب...باسم الله»....تعمدت أم السعيد أن تُسمع سميراً هذه الكلمات وهي تقوم من غرفة المعيشة إلى فراشها، لتُشعره بالحاجة إلى الاهتمام لعله يتطوع أن يأخذها إلى المواعيد الطبية ويخفف عن أمجد.

لكن سميراً كان يتفحص صُوَر السيارات....لم ينتبه أصلاً لصوت أمه وتأوهها! ثم قطع صمتَه رنة جواله من متصل:

- «مرحبا...معك زهير...أنت معلن عن سيارة كيا كارنز ٢٠٢٠؟»

- «نعم»

- «بكم آخر سعر؟»

- «١٤ ألف»..

- «كثير»

- «لا..سيارة بحالة ممتازة وماشية قليل وليست بحاجة إلى أي صيانة»

نظرت أم السعيد نظرة غضب وخيبة أمل، وسمير لا يلاحظ أيًّا من هذا!

قالت أم السعيد في نفسها: «يا من حَمَلتُه في بطني! أما أنا فلستُ بحالة ممتازة، وبحاجة إلى «صيانةِ» صحتي أشكالاً وألوانًا!».

اتفق سمير مع هذا المتصل «زهير» على موعد لمعاينة السيارة،

والتقى به في اليوم التالي: رجل في الحادية والأربعين من عمره، شعره رمادي مختلط بشيب، ثخين الشاربين... يعمل سكرتيراً لرجل ثري (أبو عزام).... تعرف على سمير وأُعجب بنشاطه، واتفق معه على شراء السيارة، التي كان زهير يريدها لابنه، ولاحظ أثناء معاملة «نقل الملكية» في دائرة الترخيص أن سميراً ذو علاقات واسعة... سأل زهير عن سمير أكثر فعرف أنه (صعد سريعًا) في تجارة السيارات المستعملة...

«يبدو أنه الشخص المناسب...أبو عزام طلب مني أن أفتح معرضًا للسيارات المستعملة وأُسَلِّمه لأحد موظفيه. لا أحد من موظفيه مؤهل لذلك وأبو عزام مع ذلك مُصِرٌّ»...

عرض زهير على سمير أن يفاتح (المْعَلم أبو عزام) بفكرة التعاون مع سمير بحيث يزوده برأس المال، فيفتح سمير معرضًا لبيع السيارات المستعلمة، ويتقاسم الأرباح مع أبي عزام.

لمعت عينا سمير! «رأس مال؟!...هذا الذي كنت أنتظره...أحتاج قَفزاتٍ سريعة».

- «موافق».

بعد يومين، اتصل زهير:

- «سمير، المْعلم أبو عزام رحب بالفكرة مبدئيًا، لكن يود أن يتعرف عليك أولاً... جدولُ أعماله مزدحم ولديه سفر إلى الصين عصر الجمعة القادمة. فأنسب وقت هو أن تشرفوني على الغذاء يوم الجمعة. تعال مبكراً، الساعة الثانية عشرة ليكون لدى المعلم وقت ليتعرف عليك».

قال سمير في نفسه:

- «الثانية عشرة ظهراً؟ هذا سيتعارض مع وقت صلاة الجمعة».

حتى ذلك الحين كان سمير، مع سهوه عن كثير من الصلوات، يحرص على حضور صلاة الجمعة...

- «طيب ممكن الساعة الواحدة؟»

- «طائرة المعلم على الساعة الرابعة، فعليه أن يغادر منزلي قبل الساعة الثانية ظهراً. لن تلحق أن تجلس معه كفاية إذا جئت الساعة الواحدة. لماذا لا تأتي مبكراً؟ عندك شيء؟».

استحى سمير أن يُصَرِّح بالسبب لزهير، والذي كان سمير قد لاحظ من قبلُ أنه يلبس خاتماً من ذهب، وخاف ألا يكون هناك وقت قريب مناسب للمْعلم المشغول، فيؤجل اللقاء كثيراً أو يتراجع عن الفكرة.

- «لا...ما في مشكلة...آتي الساعة ١٢».

انتهت المكالمة...

- «سأعمل أعمالاً من الخير لتعويض صلاة الجمعة... ربنا غفور رحيم...الجمعة، يعني بعد غدٍ، علي أن أتجهز جيداً لهذا اللقاء المرتقب».

انقضى يوم الأربعاء، وجاء يوم الخميس.... صاحبُنا (علاء) الذي اشترى أول سيارة من سمير، ينطلق بسيارته التي خُدع بها! وها هي تتعطل للمرة الثالثة وهو في طريقه إلى العمل! وها هو يستعين بالناس مرة أخرى ليزيحها إلى جانب الطريق... ثم يركب (تكسي) وهو خائف مستعجل لأن هذا كله أخَّره عن العمل وسيُغضب المدير الحازم.

وصل متأخراً نصف ساعة، فاستدعاه المدير لمكتبه:

- «علاء، نبَّهتك مراراً وحذَّرْتك أني لا أستطيع تحمل تأخيرك أكثر من ذلك».

- «حضرة المدير، ليس بيدي، واللهِ لقد تعطلَت السيارة و...»

قاطعه المدير:

- «بيدك، ليس بيدك، السيارة تعطلت، لم تتعطل، هذا كله لا يعنيني. إذا تقبَّلتُ أعذارك سيقلدك الموظفون الآخرون ويصبح الدوام في الشركة فوضى. يؤسفني أن أقول لك: تفضل، هذا كتاب فصلك من العمل».

خرج علاء مطروداً من وظيفته، وسار مهموماً في الشارع، بلا مال، بلا وظيفة، وإنما لديه سيارة معطلة على حافة الشارع لا يملك ما يصلحها به، ولديه زوجة وطفل ينتظران منه طعاماً يسد به جوعهما!

اتصل علاء بسمير، والذي كان نائماً...استيقظ...

- «أووووف! بعدين مع ثقيل الدم هذا؟!» فصل المكالمة و وضع الجوال على الصامت...وعاد للنوم...

جلس علاء على حافة الرصيف وكتب على الجوال (الموبايل) رسالة لسمير من ثلاث كلمات.

استيقظ سمير بعدها بأقل من ساعة... أفطر وحده، تجهز للخروج،

ثم فتح جواله...رأى اسم علاء:

- «أفّ...الآن سيقول لي السيارة فيها مشاكل». فتح الرسالة فإذا هي ثلاث كلمات فقط:

- «الله ينتقم منك»!

صُدم سمير! فهذه أول مرةٍ يدعو عليه أحد بهذا الشكل.. فاتصل على الفور بعلاء، لكن علاءً فصل المكالمة ولم يَرُد.

لقد قرر علاء أن يشكوَ أمره إلى الله ويدعو على سمير ولا يطلب من سمير شيئًا أبداً!

اتصل سمير مرة ثانية وثالثة ورابعة، وعلاء لا يرد.

هل كان سمير خائفًا من السيئات وعاقبة الظلم في الآخرة؟ لا، لم يكن هذا كله يخطر بباله كثيراً!

لكنه كان خائفًا ألا يوفقه الله في مقابلة غدٍ الجمعة مع المْعلم أبي عزام. لذا، فكر في إرضاء علاء ببعض المال.

لكن علاءً لم يرد أبداً.

حاول سمير أن يُخَلص نفسه من الشعور بالذنب: «لا يريد أن يرد... ماذا يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك؟ أنا أحسن من غيري... هناك من يغشون المشترين غشًا صريحًا. الكل يغش في تجارة السيارات. والذي يشتري عليه أن يتوقع ذلك ويتحمل بعض التصليحات...بغير ذلك لن يربح أحدٌ ربحًا معقولاً»...

قَلَّ خوف سمير...نظر إلى الرسالة مرة أخرى...انزعج...حاول الاتصال بعلاء...لم يرد علاء. فكر سمير في نفسه: «أصلاً هل يُعقل أن

السيارة تعطلت ثلاث مرات بسبب رداءة تصليحات هشام؟! لا أظن... أو...ربما...ليتني صلحتها بشكل جيد من البداية حتى لا يبقى هناك احتمال..على كلٍّ، لقد حاولت الاتصال به وعملت ما علي»...

ثم قرر سمير أن يتناسى الموضوع...

أمضى سمير يومه خارج البيت، عاد - كالعادة - متأخراً، ونام وهو يفكر باللقاء «العظيم» المرتقب مع أبي عزام وسكرتيره زهير في اليوم التالي.

ماذا حصل في هذا اللقاء؟

وما هو الحدث المهم الذي سيحصل في مكان آخر أثناء هذا اللقاء؟

فلنتابع.

«أنا معذور»
إيناس (٦)

استيقظ سمير على صوت المنبه فجر الجمعة...توضأ ثم توجه للمسجد ليصلي الفجر في جماعةٍ لأول مرة من شهور...طمعاً في أن يوفقه الله في مقابلة أبي عزام، ولتكون «تعويضاً جزئياً» عن صلاة الجمعة التي ستفوته اليوم!

في الصلاة، وهو واقف بين يدي الله، كان سمير يفكر بما سيقوله في مقابلة (المعلم) وكيف يعطيه انطباعاً مميزاً عن قدراته! لم يُفِقْ من سَرَحانه إلا في الركعة الثانية والإمام يقرأ سورة الإنسان، تحديداً عندما أعاد الإمام مرتين قراءة قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾...

عندما أعادها الإمام، أحس سمير أنها رسالة موجهة إليه...فهكذا هو: يحب الدنيا ويترك وراء ظهرة التفكير في يوم القيامةِ الثقيلِ!

قال في نفسه: «يبدو أني تعلقتُ كثيراً بالدنيا...لكن أنا معذور، لن أستطيع التركيز في أي شيء قبل ان أنجح وأُثبِت نفسي...لا أتحمل أن يقال عني فاشل غبي وأقل من إخوتي! إذا نَجَحتْ مقابلتي مع أبي عزام وقفزت قفزة كبيرة فسوف تستريح نفسيتي وأتفرغ للتفكير في ديني أكثر».

فأمر الدنيا لا يقبل التأجيل، أما حق الله فـ(سوف) يفكر فيه لاحقاً!

بقي بعد الفجر يقرأ القرآن لفترة...وفي طريق العودة من المسجد مر بمطعم وأحضر بعض الفلافل والحمص ليفطر مع أمه التي لم يفطر

معها من أسابيع.

عاد سمير للبيت، دقَّ باب أمه، لم تَرُدّ...فتح الباب، ليست في غرفتها...ذهب لغرفة أمجد...أمجد أيضاً ليس في غرفته.

ليس في البيت أحد!: «يبدو أنهما باتا خارج البيت الليلة الماضية... أين؟ ربما في بيت خالي كما تفعل أمي كل فترة. خسارة! كنت أريد أن تفطر أمي معي وترضى عني»...

جلس سمير يفطر وحده.

لماذا أراد سمير أن ترضى عنه أمه؟ ليَرضى عنه الله، وبالتالي يُرضي عنه أبا عزام ويعجب به فيقتنع بمشاركته في معرض سيارات...

أنهى سمير فطوره، وبدأ يحضر ما سيقوله لأبي عزام، وكيف يقنعه بقدراته في تجارة السيارات، ثم بدأ يفكر أين يفتحون المعرض، وكم يُدِرُّ عليه من الربح شهرياً، ثم ارتدى أفضل بدلة عنده، وتعطر بأغلى عطر، ومكث فترة أمام المرآة يُؤنِّق شكله. ثم خرج للمقابلة...ومرَّ في طريقه بمحل حلويات ليشتري طبقاً فاخراً لصاحب الدعوة زهير.

وصل منزل زهير...قرع جرس الباب وبدأ قلبه يخفق بقوة خوفاً من صدور أي خطأ منه أثناء المقابلة...استقبله زهير مُرَحباً وصحبه إلى الحديقة حيث كانت الجلسة قريبة من البركة حول طاولة مستديرة كبيرة. الحضور: المعلم أبو عزام، رجل سمين في السابعة والأربعين، له صلعة في معظم رأسه إلا مؤخرة رأسه، يمسك بأرجيلة في يده، ومعه زوجته وابنته حنان، وزوجة زهير ممسكةً بسيجارة في يدها، وزياد ابن زهير، شاب في السابعة عشرة... وأصوات الضحك تتعالى منهم جميعاً.

لـم يَعْتَدْ سـمير على هذه الأجـواء، لكنه حرص ألا يظهر أي استغراب. فجلس معهـم وعرَّفَه زهير عليهـم واحداً واحداً ثـم فُتحت مواضيع متنوعـة وشـارك فيها سـمير محاوِلاً إظهـار لباقةٍ وثقافة منوعة. كان الـمْعلم أبـو عـزام ينظـر إليـه أكثـر الوقـت وقليـلاً مـا يتكلم.

بعـد ربع سـاعة من وصول سـمير جاءته مكالمـة على جواله...إنه أخوه سـعيد. على الفور فصل سـمير المكالمة لئلا يخسـر اللحظـات «الثمينة» مع المعلـم! اتصل سـعيد مـرة ثانية وثالثة وسـمير يَفْصِل المكالمـة مُحْرَجًـا من الحضور، ثم أبقى جواله بوضعية الصامت...استغرب في نفسـه:

- «مـاذا يريـد سـعيد؟ ولمـاذا يلـح في الاتصـال؟ هـو قَّلمـا يتصـل بـي أصـلاً!».

بعـد فـترة، وُضـع طعـام الغَـدَاء، وكان فاخراً...حـرص سـمير أن يـأكل بالشـوكة والسـكين وألا يكثر من الطعام - مع أنه أحبه - ليأخذ عنه الـمْعلم وزهيـر انطباعـًا أنه «ابـنُ عِزٍّ».

أثنـاء ذهـاب المعلـم ليغسـل يديه بعـد الغـداء، وانشـغال الآخريـن بأحاديـث فيمـا بينهـم، اسـتخرج سـمير جوالـه ليرى لمـاذا اتصـل به سـعيد. وجـد مكالمتيـن فائِتَتَيْـن مـن سـعيد ورسـالةً منـه أيضـًا. فتحهـا فوجـد فيها: (أمـي في حالـة حَـرِجـة. تعـال إلى مستشفى الرحمـة)!

تفاجـأ سـمير! حالـة حرجـة! إذن عليـه أن يذهـب فـوراً. لكـن كيـف يذهـب؟ اللحظـات القادمـة هـي الحاسـمة في الاتفـاق مـع المعلـم. فهـم لـم يتكلمـوا في موضـوع الدعـم المـادي مـن المعلـم لسـمير وفتـح معـرض سيارات بعـد، بـل كانـوا يتعارفـون والمعلـم يفحـص شـخصيته.

فكر سمير في إخبار المعلم وزهير بسوء وضع أمه، لكنه خاف أن «يتشاءما» بتزامُن هذا الحدث مع التحضير للاتفاقية! كما أن المعلم سيسافر إلى الصين بعد هذا اللقاء. فإذا لم يتم الاتفاق الآن فسيؤجل، وقد يغير المعلم رأيه. احتار سمير وبدأ يضطرب...همَّ بالاتصال بأخيه سعيد ليَطْمَئِن على أمه، لكنْ جاء المعلم وزهير والشاي.

جلس الحضور، وبدأ زياد (ابن زهير) يذكر بعض المواقف المضحكة لمشاهير «اليوتيوبرز» والكل يضحك. أخفى سمير قلقه وتبسم...ثم فجأة، فتح زهير موضوع التعاون على تجارة السيارات مع سمير...رد المعلم باختصارٍ موجهـًا كلامه إلى زهير:

- «فكرة جيدة مبدئيًا...دعني أفكر في بعض الأمور، وأرد لك جوابًا أثناء الانتظار في المطار»...ثم غير المعلم الموضوع وعادوا إلى «نُكَت» زياد. علم سمير أنه لن يتم الاتفاق على أية تفاصيل في تلك اللحظة... وبدأ توتره على أمه يتصاعد:

- «عن إذنكم، محتاج أغادر»

قال زهير:

- «أين؟ الجاتو على الطريق».

- «اعذروني، لدي انشغال وأحتاج أن أغادر الآن. تشرفْتُ بالتعرف عليكم».

صَحِبَه زهير إلى البوابة الخارجية للحديقة:

- «المعلم لا يحب أن يعطي جوابًا مباشراً، لكن أظنه أعجب بشخصيتك..لا تقلق، سأقنعه».

- «إن شاء الله خير»...تصاعد عداد التوتر لدى سمير ولم يكن مزاجه رائقـًا للدردشة مع زهير، فسلَّم عليه على عجل، وانطلق في سيارته باتجاه مستشفى الرحمة.

اتصل سمير بسعيد، والذي لم يرد لأنه كان قد ذهب لصلاة الجمعة في مسجد المستشفى وأبقى جواله صامتـًا بعدها. اتصل بأمجد ولم يُجِبْه كذلك. اتصل بأخته تالا:

- «تالا، كيف أمي الآن؟»

ردَّت بصوتٍ خافتٍ وضعيفٍ مختلط ببكاء مكظوم، حيث كانت بجانب أمها...

- «أمي؟...أمي تحتضر».

- «تحتضر؟!»..اضطرب سمير وبدأ عرقه يتصبب:

- «في أي غرفة هي؟ أي طابق؟»

- «في العناية المركزة...خلص، السلام عليكم»...

بدأ سمير يتجاوز السيارات إلى أن وصل المستشفى...صعد سريعـًا إلى الطابق الذي فيه أمه...في قاعة الانتظار وجد عوائل إخوته، أزواجَهم وأبناءهم، وبعضهم يبكي! ماذا حدث؟ دخل سريعـًا إلى غرفة العناية المركزة...سعيد، عاصم، تالة، أمجد...كلهم حول السرير...

- «أين أمي؟»

لم يُجِبه أحد...

أعاد النظر في السرير....هاهي أمه مغطاة بالشرشف الأبيض...

لقد ماتت قبل قليل!

كان إخوته مصدومين! لم يتوقعوا أن يكون الموت قريباً بهذا الشكل.

سعيد...كان عاضًّاً على شفته يبكي بصمت، حزنه مختلط بندم، حيث كان مشغولاً بمشروع ضخم في الأسابيع الأخيرة، فيطْمَئِن على أمه بالاتصال فقط دون أن يزورها.

تالة...رفعت رأسها ونظرت إلى سمير قليلاً...عيناها حمراوان، دموعها تنهمر بشدة، تلتقط أنفاسها متقطعةً بين البكاء...طأطأت رأسها من جديد...كانت على وشك الانتهاء من الدورة التي تعطيها في التربية النفسية...وقد رتبت مع زوجها أن تبيت في الأيام القادمة عند أمها ويعتني هو بالأولاد.

عاصم...كانت تَذْكِرَتا السفر للعمرة له ولأمه في جيبه، أتى بهما ليقول لأمه: (شدي حيلك! موعد السفر بعد غدٍ)، ولم يعرف أن موعد سفر أمه للحياة الأخرى سيكون أسبق!

أمجد...لم تتحمله رجلاه، فكان جالساً على الأرض واضعاً رأسه بين ركبتيه يبكي كالطفل! لقد كانت أمه هي حياته في الفترة الأخيرة، بعد أن انقطع عن دراسته وخصص وقته للعناية بها وأَخْذِها للمستشفى والحنان عليها وقراءة القرآن على مسامعها وتسليتها بالدردشة معها عن ذكريات الماضي وذكرياتها مع أبيه. كانت أمه (لَهُ) في الأيام الأخيرة، (عاشَها) عن السنوات الماضية كلها، ولم يبقَ شيء يمكن أن يُكرِم به خاطر أمه ولم يفعله...ومع ذلك لم يشبع من نظرات الرضا الذي كان يقرأه في عيونها، لم

يشبع من أدعيتها له صباح مساء، ومن ضحكاتها -على الرغم من مرضها- عندما كان يمازحها ويؤلف له أبياتاً فكاهية ليسليها.

الكل مصدوم...لم يتوقعوا أن يخطف الموت أمهم من بينهم بهذه السرعة.

ماذا عن صاحبنا (سمير)؟ ليس في الأيام الماضية فحسب، بل في السنوات الماضية، كان أقرب إخوته في الظاهر إلى أمه! فغرفته بجانب غرفتها تماماً، يفصل بين سريره وسريرها جدار، حتى أنه كان يحتاج أحياناً أن يغطي رأسه بالمخدة ليستطيع متابعة النوم عندما كانت أمه ترفع صوتها بقراءة القرآن بعد صلاة الفجر! لكنه كان في الحقيقة أبعد عن أمه من إخوته جميعاً! أبعد من سعيد وتالة اللذَين يسكنان على مسافة عشرات الكيلومترات من منزل أمهم!

اقترب سمير برهبةٍ من السرير...كشف عن وجه أمه...قبَّلها...نزلَتْ من عينيه دمعة...مسحها...لكنه شعر في ذلك الموقف بشعور غريب! شعر بوجود حاجزٍ بينه وبين قلبه!

وصية أمهم من قديمٍ لسعيد: ألا يؤخروا دفنها بعد موتها. وبالفعل، تَمَّ تغسيلها وتكفينها والصلاة عليها، ودفنت مع غروب الشمس. وانتشر الخبر بين المعارف فجاؤوا للعزاء في بيت الأم، والذي أصبح اسمه الآن: بيت الوالدَين رحمهما الله.

أثناء استقبال سمير مع إخوته للمُعَزِّين، جاءته مكالمة من زهير. اضطرب سمير! هل يتنَحَّى في زاوية البيت ليَرُد؟ لا! إنه عزاء أمه...

ففصل سمير الخط ولم يرد. اتصل زهير مرة أخرى...انحرج سمير فتنحَّى جانبـًا ورَدَّ...

- «السلام عليكم»

- «وعليكم السلام. إيش يابو شريك؟! ثقْلان علينا من أولها؟! يكفي أنك لم تتصل لتسأل عن قرار المْعلم، وتفصل الخط علينا أيضـًا؟!».

تردد سمير في أن يخبر زهيراً أنه في عزاء أمه! مرة أخرى: حتى لا «يتشاءم» بذلك هو والمعلم!:

- «معذرةً، انشغلت بعض الشيء، طبعـًا يهمني رأي المعلم».

- «إبسِط يا عم، أمك داعيالك! المعلم اتصل بي من المطار وقال أنه موافق على عمل عقد شراكة. تعال عندي غداً العاشرة صباحـًا لنتفق على التفاصيل وننطلق مباشرة لاستئجار معرض».

قال سمير في نفسه: «غداً؟ أمي لم تجفَّ تُربَتُها...ربما غير مناسب، لكن على جميع الأحوال الـمُعَزُّون يأتون مساءً. ليس هناك شيء أعمله في الصباح، فلماذا لا أذهب لزهير؟».

«ليس هناك شيء أعمله في الصباح»! لم يفكر سمير في أن يتخذ وفاة أمه فرصة للتفكُّر ومراجعة حساباته...وبالتالي، أخفى وجهه عن الـمُعزين ليستطيع إظهار اهتمامٍ وفرحٍ لزهير، ووافق على الموعد!

بعد ساعات، انصرف الجميع وبقي سمير وأمجد فقط في البيت، بعد وفاة صاحبة الغرفة التي كانت بينهما...استلقى سمير على سريره. ولو

رآه أحد في تلك اللحظات لظنَّه مجنونـًا! كان يفكر في «الانجاز العظيم» بإقناع الـمْعلم أن يشاركه، فيبتسم...ثم يتذكر أن أمه ماتت من ساعات فقط، فيُجبِر عضلات وجهه على الجمود ويقطب حاجبيه قليلاً... لكنه ما يلبث أن يفكر في اليوم التالي، وفي المعرض الذي سيكون هو مديره وفي السيارات التي سيشتريها، فترتخي عضلات وجهه ويبتسم لا شعوريـًا! ثم يقطع أحلامَه صوتُ أمجد وهو يقرأ القرآن بصوتٍ متهدجٍ باكٍ حزين، فيعود سمير لتذكير نفسه أن عليه أن يحزن ويتصنع بعض العبوس! ونام صاحبنا على هذا الحال من التقلب!

في صباح اليوم التالي، أيقظه أمجد لصلاة الفجر، فاستيقظ بالفعل وذهب مع أخيه إلى المسجد، ودعا الله في سجوده أن يوفقه في لقائه مع زهير، بينما كان أمجد بجواره يدعو لأمه أن يرحمها الله ويدخلها الجنة! انتبه سمير في السجدة الأخيرة لدعاء أخيه المختلط بالبكاء، فتذكر أُمَّه هو أيضـًا بدعوة على عُجالة! ثم عاد للبيت ونام متعبـًا من سهر الليلة الماضية.

يوم توفي أبو السعيد، والد سمير، بقي سمير متأثراً لفترة يتردد على المسجد ويقرأ القرآن...أما هذه المرة، فدوَّامةُ الحياة كانت قد أخذته، فلم يتوقف لإعادة حساباته...

استيقظ على اتصال من زهير:

- «أين أنت يا سمير؟»

- «كم الساعة؟ أُف! التاسعة والنصف؟! آسف...الآن أتجهز وآتي

إليك».

انطلق سمير متوتراً:

- «قد يأخذون عني انطباعاً أني مهمل..نائم ومتأخر عن الموعد من أول يوم».

وصل...لم يعاتبه زهير...والذي كان يؤمِّل أن يخلصه سمير من قلق فكرة معرض السيارات التي طلع بها أبو عزام.

وقَّعا العقد: (١٥٠) ألف دينار من المْعلم أبي عزام لاستئجار معرض وشراء سيارات مستعملة لبيعها، والأرباح: ٤٠٪ لسمير، ٥٠٪ لأبي عزام، و ١٠٪ لزهير، والذي عليه أن يساعد في إدارة المعرض. ثم انطلقا، ولم يمر عصر ذلك اليوم حتى وجدا مكاناً مناسباً للمعرض فاستأجره سمير.

عاد سمير للبيت منتشياً...أخيراً...القفزة الكبيرة التي كان ينتظرها تحققت. استقبل المعزين وهو يجمع ويطرح ويحسب في ذهنه كيف يبدأ معرضه...ويُذَكر نفسه كل فترة أنه...في عزاء أمه!

بعد انصراف المُعزين اختصم سعيد وعاصم وتعالت أصواتهما!

على ماذا يا تُرى؟

ولماذا أصر سعيد على أخيه سمير أن يأتي بعد أيام ليقرأ وصية أمهم؟ وماذا كان في الوصية؟

فلنتابع.

قصاصة أمي
إيناس (٧)

بعد انصراف المُعَزين في اليوم الثاني من عزاء أم السعيد، سمع سمير أخويه سعيداً وعاصماً يتجادلان...على ماذا يا ترى؟

ظهيرة ذلك اليوم، كان أمجد قد جاء بالمال المتبقي من أمه فأعطاه لسعيد ليتم توزيعه حسب الأنصبة الشرعية...٨٣٠٠ دينار، ومعه حُلِيُّها:

- «كيف تَبَقَّى كل هذا المال عَنْ أمي؟»

- «نسيتَ أنها باعت حصتها من الأرض لباسم؟»

- «ما نسيت...لكنها صرفت على علاجها»...

سكت أمجد...

- «مَن كان يصرف على علاجها يا أمجد؟»

- «أنا وأمي واحد»

- «يعني أنت كنت تصرف من مالك»

- «إممم...ليس هناك شيء يذكر»

كان عاصم يسمع الحوار...فانضم إليهما وأجرى هو وسعيد «تحقيقاً» مع أمجد ليعرفا كم تكلَّف في علاج أمه.

- «ما حسبت»

قال سعيد:

- «روح احسب»

- «طيب هذين اليومين»

- «بل الآن»

- «تحتاج وقتاً»

- «اذهب الآن واحسب...نحن نستقبل المعزين إن جاؤوا».

بعد انصراف المعزين عاد سعيد يحقق مع أمجد بعيداً عن عاصم.... لكن عاصماً لاحظ فانضم إليهما مجدداً.

- «حوالي سبعة آلاف دينار»

- «شاملاً تكلفة الأدوية خارج المستشفى أيضاً؟»

- «هذه مش مستاهلة»

ارتفعت نبرة سعيد ونظر بحزم:

- «يكفي أنك لم تخبرني بتدهور صحة أمي وتَركْتَني ملتهياً بأشغالي عنها».

- «لم أتوقع أن تتطور الأمور بهذه السرعة»...

تدخل عاصم:

- «قدَّر الله وما شاء فعل. المهم الآن أخبرنا كم كلفتك العلاجات؟»...

- «حوالي ألف وخمسمائة».

عند ذلك اختصم سعيد وعاصم...كل منهما يريد أن يتولى نفقات علاج أمهم بأن يدفع التكاليف لأمجد ليكون ذلك برَّاً لأمهم بعد مماتها.

عاصم، الذي كان لا يزال يحتفظ بتذاكر العمرة في جيبه وينظر إليها

كل فترة! كان ينظر إلى سعيد بحزنٍ:

- «غداً كان موعد العمرة مع أمي، قدِّر شعوري، أعطني هذه الفرصة».

رد سعيد منفعلاً وبصوتٍ عالٍ، جزءٌ من ذلك ليُسمع عاصماً صاحب السمع الثقيل:

- «عاصم، أرجوك، راعِ أنت شعوري...شغلتُ عن أمي كثيراً مؤخراً وتركَتْ فجوة كبيرة في حياتي»...ونزلت منه دمعة...

اضطر عاصم أن يُسلِّم لأخيه الأكبر، ولم يجرؤ أمجد على رفض المبلغ من أخيه.

كل ذلك حصل أمام سمير، والذي «أُعجب بالموقف»، لكن لم يخطر بباله أن يكون جزءاً منه! لأنه كان يفكر في تجهيز معرضه الجديد في اليوم التالي!

مرَّت أربعة أيام على وفاة والدتهم، وبينما سمير في قمة الانشغال بتجهيز معرضه جاءه اتصال من أخيه سعيد:

- «سمير، وجدنا وصية كتَبَتْها أمي في الدولاب بجانب سريرها. مُرَّ علي اليوم في بيتي لتقرأها».

قال سمير:

- «اتركها لي في بيت أمي عندما تنتهي منها»..

- «لا، أريد أن أحتفظ بها»

- «طيب أرسل لي صورة عنها على الموبايل يا سعيد، أنا مشغول جداً اليوم. لن أعود إلا متأخراً في الليل».

قال سعيد بشيء من العصبية:

- «سمير، أقول لك: وصية أمك. تعال لبيتي اليوم ولو متأخراً».

قال سمير:

- «هل فيها شيءٌ يَخُصُّني؟»

سكت سعيد من شدة الغيظ، ففهم سمير وقال:

- «طيب طيب، آتي إليك الليلة».

كانت أمهم قد أحست باقتراب أجَلها، فكتبت وصيتها قبل وفاتها بيومين بخط يظهر فيه آثار تعبها.

وصل سمير لبيت أخيه ليلاً...في غرفة الضيوف وهما جالسان استخرج سعيد الوصية من مغلفٍ وأعطاها لسمير بينما وجه سعيد منقبضٌ.

بدأ سمير يقرأ:

(أبنائي الأحبة، سعيد، عاصم، تالة، أمجد، أحس أن هذه هي أيامي الأخيرة، وأني سألحق بأبيكم رحمه الله. يا أحبابي، أردت أن أقول لكم أني راضية عنكم، وأني لست خائفة عليكم من بعدي، فأنتم بإذن الله في طاعة الله كما رباكم أبوكم. وأنا راضية عن أزواجكم وأولادكم الذِين أحببتهم جميعاً وأحبوني، ولا أنسى لكم كيف عودتموهم جميعاً على الحفاوة بي والمسابقة إلى إرضائي. فأسأل الله أن يرزقكم بِرَّ أبنائكم وأن يرزقكم أزواجاً لأبنائكم بارين بكم كما كان أزواجكم لي.

يا أحبابي، أرجوكم لا تحزنوا عليَّ كثيراً، ولا تطيلوا البكاء علي حين أموت...لا أتحمل أن أتخيلكم تبكون، ولا أريد أن أكون سبباً في حزنكم.

يكفي أني راضية عنكم، فقد أحَطْتموني بحَنانكم ووفائكم. أكتب هذه الوصية وفي إصبعي خاتمك يا سعيد، ويُدَفئني معطفكِ يا تالة، وبجانب سريري شنطة العمرة التي جهزتها لي يا عاصم، وعلى الدولاب باقة وردك الرائعة يا أمجد، جفَّت أزهارها ولم يجف الحب الذي تعبر عنه. مهما ابتعدتم عني فأنفاسكم معي.

سعيد، أَعْلم يا حبيبي أنك شغلت بمشروعك الجديد مؤخراً وأنا أعذرك. دير بالك على إخوتك فأنت كبيرهم.

تالة ، زوجك رجل فاضل، تحملي عصبيته ولا تجادليه يا ابنتي ولا تقصري في حقه.

عاصم، يا صديقي منذ الطفولة، لا تحزن إن لم أستطع الذهاب معك إلى العمرة. لا زلت أذكر التلهف والشوق في عينيك إلى سفرنا سوية عندما زرتني الأسبوع الماضي، وأسأل الله أن يكتب لك أجرها كاملاً على كل الأحوال. وقد علمت أنك بدأت التدخين من فترة وإن كنت تخفي عني. أرجوك يا بني، اتركه من اليوم، أنت طيب فحافظ على أنفاسك طيبة، وتذكر أن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم كما أخبرنا نبينا صلى الله عليه وسلم.

أمجد، أعلم أني غلَّبتك كثيراً معي يا بني الحبيب، وأنك ضحَّيتَ بدراستك لتعتني بي، لكني أقول لك من أعماق قلبي: (روح، الله يرضى عنك ويوفقك ويفتح عليك وينور دربك أينما حللت وارتحلت).

وأوصيكم يا أبنائي أن تعرفوا من أمجد كم صرف على علاجي طوال الفترة الماضية ولا تَدعوه يُخفي عنكم، فقد لاحظتُ أن مالي في الخزانة

لم ينقص كثيراً. فعوضوه من مالي الذي سأترك لكم ومن حصتي من بيت أبيكم رحمه الله.

وبالنسبة لأخيكم الخامس، فقد كان استدان مني خمسمائة دينار لتجارته ووعدني أن يردها في أقرب فرصة، ويبدو أن الـ«أقرب فرصة» لم تأتِ بعد. فطالبوه بها لأنها من حقكم بعدي، فأنا لم أتنازل له عنها.

سعيد، تالة، عاصم، أمجد...أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه، اجعلوا تقوى الله نُصب أعينكم وديروا بالكم على بعضكم وعلى أزواجكم وأولادكم. أسأل الله تعالى أن يجمعنا جميعًا مع أبيكم رحمه الله في الجنة.

أمكم المحبة لكم جداً: آمنة).

قرأ سمير وصية أمه...تركها على الطاولة أمام سعيد، ثم أخرج محفظته من جيبه واستخرج منها دفتر شيكات، كتب شيكًا بخمسمائة دينار ومدَّه لسعيد...

قال له سعيد:

- «هذا ما فهمته من الوصية؟!» ولم يأخذ الشيك، فتركه سمير على الطاولة ونهض وخرج من بيت أخيه...

ناداه سعيد:

- «سمير، سمير»...

لكنه لم يرد.

كان سعيد يأمل أن تكون هذه الوصية بداية جديدة لسمير، كان يتوقع أن يرى في عيني أخيه دموع الندم، فيواسيه ويعينه على فتح صفحة جديدة... ولذا أصر أن يقرأ سميرٌ الوصية أمامه...لكن أيا من هذا لم يحصل للأسف.

قارن سعيد موقف سمير بما حدث أمس، كان يقرأ الوصية بحضور إخوته وبحضور باسم زوج تالة بصوت متهدج وعيونهم جميعاً تذرف الدموع...وعندما وصل وصية أمهم لتالة بالصبر على زوجها وأن تتحمل عصبيته ولا تقصر في حقه، وضعت تالة رأسها على صدر باسم فضمَّها إليه بيده وقبل رأسها...

وعندما قرأ وصية أمهم لعاصم بترك الدخان أخرج باكيت الدخان من جيبه، عصره بيده، وألقاه في المهملات، وهو يضع يده على رأسه أنْ «على راسي يا أمي» وإن كان لم ينطق بها إذ ألجمه البكاء.

انطلق سمير في سيارته نحو البيت...«لماذا يا أمي؟ لماذا هذا الإحراج أمام إخوتي؟ كان يمكنك أن تعاتبيني فيما بيني وبينك...لقد قسوتِ علي! ماذا سيقول عني إخوتي حين يقرؤون هذا الكلام؟ لن يحترموني...تُرى هل علم أزواجهم بهذا الكلام؟ هل علم ابن عمي زوج تالة؟ لعله سيخبر والده! كيف ستصبح صورتي أمام أقاربي؟! من أجل ٥٠٠ دينار يا أمي؟ أنا ابنك، أمَا كنتِ تستطيعين المسامحة بها بدل أن تفضحيني؟! لقد كنتُ نسيتُ الـ ٥٠٠ دينار تماماً، ولو طلبتِها لأعطيتك إياها على الفور»...

وصل البيت متأخراً...مرَّ بغرفة أمه...سريرها فارغ...وأمجد نائم...«وجدوا الوصية في الدولاب»...فكَّر سمير...أغلق باب غرفة أمه على نفسه، فتح جوارير الدولاب، فتح خزانة الملابس، وضع ركبتيه على الأرض، نظر تحت السرير...عن ماذا كان يبحث سمير؟

كان يبحث عن أي قصاصة ورق لأمه لعلها تكون كتبت له شيئاً...

كان يتمنى أن يرى ورقة مكتوبـًا عليها: «عاتبة عليك يا سمير لكن أحبك»...أي ورقة تذكره فيها باسمه...لكن سميراً لم يجد ورقة كهذه.

خرج إلى غرفته...كان ينوي أن يقضي صلوات العصر والمغرب ثم يصلي العشاء حتى «يوفقه الله» في معرضه الجديد...لكنه كان مُتعبـًا، فألقى نفسه على السرير...للحظةٍ، تذكر قراءة أمه للقرآن في صلاة الفجر وبعدها على الطرف الآخر من الحائط الذي يفصله عن سرير أمه، حَنَّ إلى صوتها مع أنه كان يغطي رأسه حتى لا يسمعه ليستطيع متابعة النوم... كانت ثورة غضبه من «قسوة أمه» وعتبه على «فضيحتها إياه» قد خفَّت، فبدأ يفكر: «أمي ماتت غير راضية عني إذن؟! كم مرة ذكَرَتْ أسماء إخوتي؟ أربع مرات...وأنا؟ ولا مرة! سَمَّتني (أخوكم الخامس)! هل كرهتيني يا أمي؟ لماذا؟ أنا أحبك...هل؟...»... ونام سمير!

بالمناسبة، سمير كان يُحِب أمه بالفعل، لكن ليس أكثر من تجارته!

لم يكن يسيء إليها، لكنه لم يكن يحسن إليها كذلك!

ما كان ليَرضى أن تغضب منه أمه (لو أنه فكر في الأمر أصلاً!)، لكنه كان يهمه أكثر ألا يوصف بالفاشل!

فكرة مساعدة أمه والاهتمام بصحتها كانت تراوده...لكن كالخيالات البعيدة التي لا تجد منفذاً إلى دماغه المحاط بالسيارات!

حصل أن يُحَدث نفسه: «ربما علي أن أسأل أمي إذا كانت بحاجة لمساعدتي»...لكن تسويفَ «سأفعل في أقرب فرصة» كان لا يلبث أن يهجم عليه...فالعمر مديد والأيام قادمة وهو الآن مشغول بما لا يمكن تأجيله، وأما أمه فسيهتم بها «يومـًا ما»...ولم يتصور أن الموت سيسبق هذا اليوم!

لم يستيقظ سمير في اليوم التالي إلا على مكالمةٍ من زهير:

- «أين أنت يا سمير؟ لقد تأخرت...ها هو الدَّهِّين في المعرض ويريد أن يُخَيِّرك في لون الجدران».

انطلق سريعاً نحو المعرض، انشغل بالتجهيزات طوال النهار، فلم تكن لديه فرصة للتفكير في (الحرمان) الذي عبرت عنه وصية أمه!

ال (١٥٠) ألف دينار التي وافق عليها أبو عزام، قسَّمها سمير:

(١٠) آلاف لاستئجار المعرض لمدة سنة.

(٤) آلاف لتجهيزه: كهرباء، ماء، ديكورات، دهان، باب سيكوريت، أثاث.

(٣) آلاف معاملات رسمية وتراخيص.

(٧٠٠) دينار أجرة موظفٍ يساعده في المعرض لأول شهرين.

والمبلغ المتبقي، حوالي (١٣٢) ألف دينار، سيشتري ويصلح بها سيارات مستعملة ليبيعها...

شعر سمير بالنشوة وهو يحسب! بدأ تجارتَه من فترة قصيرة بأقل من عُشْر هذا المبلغ، والآن سيستطيع أن يشتري عَشر سيارات.

ماذا فعل زهير (سكرتير أبي عزام) عندما علم بخبر وفاة أم سمير ؟

وماذا سيحصل ببيت العائلة بعد وفاة أم السعيد؟

ومن «حَنان» التي سيفكر سمير في خطبتها؟

فلنتابع.

الصعود إلىٰ القصر
إيناس (٨)

بدأ سمير في معرضه الجديد بقوة...عازماً على أن يكرس له كل وقته ويرسم من خلاله قصة «نجاحه»...

في هذه الأثناء، كان زهير يقلب صفحات الجرائد بحثاً عن الأخبار المهمة لرجل الأعمال الـمُعلم أبي عزام، وإذا به يقرأ أسماء إخوة سمير، ومعهم اسم سمير الذي لم يكن يدري بالاعلان، يشكرون من شاركهم مصابهم بأمهم الغالية ويدعون لها بالرحمة... قرأ زهير تاريخ وفاتها...إنه الجمعة الماضية! يوم كان سمير في بيته (بيت زهير)..

تفاجأ زهير..«يبدو أن أم سمير توفيت بحادثٍ ذلك اليوم...طيب لماذا لم يخبرني؟!»

اتصل على الفور بسمير:

- «مرحباً سمير»...

- «أهلاً زهير»...

- «قرأت في الجريدة...هل هي والدتك التي توفيت الجمعة الماضية؟»

صُدم سمير وارتبك!:

- «نعم، الله يرحمها».

- «الله يرحمها، يسلم راسك...كيف؟ حادث سير؟»

- «لا، هي...إي...كانت مريضة».

أحس زهير بالإحراج الذي أصاب سميراً، فترحم على أمه مرة أخرى وأنهى المكالمة ثم قال في نفسه: «إذن سمير كان جالساً معنا يأكل المشاوي ويستمع لنكات زياد ويتبسم لها وأمه تحتضر! هذا الرجل يعبد المال إذن! لذلك «سال لُعابه» على لقاء الـمْعلم»!...

قلَّ احترام سمير في نفس زهير كثيراً من هذا الموقف وإن كان لم يبدِ ذلك له.

بيتُ الوالدَين يجب أن يباع الآن ويُقسَّم ثمنه على الورَثة...اقترحت تالة أن يخصص ربع الثمن للمساهمة في بناء مسجدٍ رجاء أن يصل الأجر لوالدَيهم...عرض أمجد الفكرة على سمير ....فكَّر قليلاً... بقية الخير فيه والمحبة لوالديه غلبت حبه للمال فوافق.

أمجد يريد السكن في شقة صغيرة قريبة من الجامعة، وسمير يريد شقة قريبة من معرضه البعيد عن الجامعة. حاول أمجد أن يجد حلَّاً وسطاً لكن سميراً لم يكن متعاوناً، فانتهى الأمر بأن يستأجر كلٌّ منهما شقة...

قبل تسليم بيت العائلة للمشتري، اجتمع الإخوة فيه، تذكروا ذكريات الطفولة مع أبي السعيد وأم السعيد رحمهما الله. التقط عاصم وأمجد بعض الصور في زوايا البيت...جلست تالة على المرجوحة، أخذ سعيد بعض النباتات ليحتفظ بها في بيته...حتى سمير، أحس ببعض الرهبة وهو يلقي النظرة الأخيرة على بيت العائلة...ثم غادروا البيت...

وافترق سمير وأمجد، وفقد سمير بذلك اللحظات القليلة التي كان يلتقي فيها مع أمجد. فقد كان سمير -على غفلته- يتأثر بأمجد وإن كان بضعف .

مر عام، عاد خلاله أمجد إلى كلية الطب، وانطلق في دراسته بحماسة عالية وتفوَّقَ من جديد.

وكرَّس فيه سمير حياته للمعرض...أسعار البيع مميزة لكن مع بعض «التهاون» في تصليح السيارات قبل بيعها أحياناً. وحتى لا تفشل تجارته وتسوء سمعته، كان سمير يتكفل بتصليح السيارة المباعة إذا رأى أن مشتريها لن يسكت عن حقه.

حاول أمجد أن يبقى على تواصل مع سمير...دعاه ليخرجا سوية إلى مطعم...استجاب سمير في المرة الأولى، تلكأ ثم استجاب في الثانية...ثم أصبح يؤجل ويتعذر بالانشغال كل مرة. وانشغل أمجد هو الآخر.

سرعة نمو سمير كتاجر سيارات أثارت إعجاب المْعلم أبي عزام به، خاصة وأنه كان يعاني في تلك الفترة من تراجعات وخسائر في بعض استثماراته الأخرى، فقويت علاقته المباشرة مع سمير، ولم يعودا يلجآن إلى زهير كوسيطٍ بينهما، وكثُرَ تردد سمير على قصر أبي عزام.

حَنان، ابنة أبي عزام، فتاة في العشرين من عمرها، مترفة مدللة من أبيها وأمها...لا يُرفض لها طلب...رسبت في الثانوية العامة فأعادتها، وها هي

في السنة الأولى من دبلوم جرافيك ديزاين..«خام» سطحية التفكير...لفت هذا الشاب الطموح «سمير» نظرها...وتكرر أن تفتح الباب له إذا جاء إلى القصر وترحبَ به...وبدأ سمير بدوره يحس بالاهتمام بها.

فكَّر سمير: «أمَا حان الوقت لأتزوج وأنشىء أسرة؟ إخوتي كلهم متزوجون -إلا أمجد- وبدأ أولادهم يكبرون...ماذا ينقصني لأتزوج؟»..

فكر سمير في التقدم من حنان ابنة المْعلم، لكن عاد فقال في نفسه: «مستحيل! المعلم مليونير وأنا شخص عادي، مجرد شريك في أحد استثماراته الصغيرة. كما أني لستُ جامعيًا...لن يوافق المعلم، وربما لن توافق ابنته، فمثلها يتزوجها الأثرياء»...

«لكن أظن أنها مهتمة بي هي الأخرى...لماذ لا أجرب؟».

وبعد تردد طويل، قرر سمير أن يجرب ويفاتح المعلم بالموضوع تدريجيًا ويجس نبضه، لكن بعد شهرٍ مميزٍ عالي الأرباح، حيث كان سمير يجتمع بأبي عزام نهاية كل شهر لإطلاعه على السيارات المشتَراة والمباعة وصافي الأرباح ومقدار النمو في تجارتهم.

زاد سمير من جِدِّه واجتهاده في العمل...وجاء شهرٌ عالي الأرباح، تم بيع (٤٥) سيارة، صافي الأرباح (١١٧٠٠) دينارٍ، بزيادة ١٤٪ عن الشهر الذي قبله. فقرر أخيراً خطبة حنان.

ذهب سمير إلى اجتماعه الشهري مع أبي عزام مُتَأَنِّقًا وقد رتب خلاصة إنجازات الشهور الماضية في جداول رقمية، وجاء بمقتَرح لتوسعة المعرض وشرائه بدلاً من دفع إيجاره السنوي. انبهر أبو عزام بسرعة نمو تجارة السيارات ولاحظ الحماس الكبير لدى سمير، وكان

يفكر أثناء حديث سمير كيف يمكنه أن يوظف طاقات هذا الشاب الذي لم يتجاوز الثالثة والعشرين ليستفيد منه أكبر فائدة.

بعدما أبدى المعلم لسمير إعجابه بهذه الإنجازات وموافقته على دفع مبلغ (١٤٠) ألف دينار لشراء مبنى المعرض من مالكه، قال سمير:

- «عمي أبا عزام أنا سعيد جداً بالعمل معك وأتمنى أن تتعمق علاقتنا». كانت هذه أول مرة يناديه فيها بـ«عمي»، فقد كان يناديه عادة «يا مْعلم».

رد أبو عزام:

- «وأنا سعيد بك يا سمير، استمر على هذا النشاط وخذ مني دعماً مفتوحاً».

- «هل يمكنني أن أطلب شيئاً آخر يقربني منك غير الدعم المالي؟»

استغرب أبو عزام: «تفضل».

- «ربما لا زال وضعي الاجتماعي متواضعاً، لكن لدي طموح و...إي...بالنسبة...للآنسة حنان...». استحى سمير من التصريح بطلبه وتهيب من رفض المعلم.

تفاجأ أبو عزام بالطلب وسكت قليلاً وهو يفكر ثم قال:

- «طيب، دعني أفاتح حنانًا وأمها بالموضوع».

سُرَّ سمير لأن المعلم لم يرفض مباشرة، ثم استأذن وانصرف.

كان أبو عزام يعلم أن ابنته الجميلة قد يتقدم لها رجال أعمال أثرياء وأصحاب مناصب، لكنه لاحظ اهتمام حنان بسمير، ورأى فيه الشخص

المناسب ليساعده في إدارة مشاريعه واستثماراته...«شاب صغير، طموح، جادٌّ في العمل، يمكن أن أشركه معي في التفكير في حل المشاكل التي أدت إلى خسائر مؤخراً. أستطيع أن أضمن ولاءه لي بتزويجه من حنان وتحسين وضعه الاجتماعي، ولن أخسر بذلك، فابنتي ستكون المستفيدة».

كان عند أبي عزام ولدان، الكبير منهما لا يُعتمد عليه في شيء، يمضي وقته مع أصحابه ويتهرب من أية مهمة يوكلها والده إليه، والآخر صغير...فكان أبو عزام يرغب في أن يقرب منه شاباً يساعده.

جلس أبو عزام مع حنان وأمها...

- «سمير حقق نجاحاً باهراً في فترة قصيرة».

- «يبدو أنه ذكي يا بابا ونشيط»

- «نعم»..

مبتسماً قال لها:

- «هل تعلمين ماذا طلب مني اليوم؟»

- «ماذا؟»

- «إنه يفكر في خطبتك»

احمر وجه حنان وشعرت بسعادة غامرة.

انفعلت أم حنان:

- «مستحيل! هذا شاب بسيط.. حنان لا يأخذها إلا «برنس» من طبقتنا. صديقاتي بدأْنَ يُلَمِّحن حول حنان لأبنائهن أو إخوانهن الأثرياء

وأنا أؤجل لأنها لا زالت صغيرة».

- «هذا الشاب له مستقبل، وحنان ستكون سعيدة معه»

- «ماذا أقول إذا سألني أهلي وصديقاتي عن طبيعة عمله؟»

- «قولي لهم: رجل أعمال وشريك لأبي عزام في بعض الاستثمارات. سأساعده يا سوزان ليكبر سريعًا...الولد لديه المؤهلات...ثم أحسنُ ما في الموضوع أنه سيبقى قريبًا منا فنرى حنان وقتما نشاء...هل تطيقين أن يأخذ حنان شخص يستقل عنا وقد يسافر بها إلى مدينة أو حتى دولة أخرى؟»

- «لا طبعًا...حنُّون روحي...لكن أين سيسكنان؟»

- «في فيلا الياسمين»...وهي فيلا سكنها أبو عزام وعائلته قبل أن يزداد ثراءً، ثم انتقل منها إلى قصره وتركها دون أن يبيعها.

قالت سوزان لابنتها:

- «حنان، ماما، هل ترضين بشاب غير جامعي؟»

- «سمير شاب مميز وذكي وطموح يا ماما»

- «لكن...»

تدخل أبو عزام:

- «وأنا لستُ جامعيًا يا سوزان...هل فشلتُ في حياتي؟!»

- «إنه صغير»...

- «يناسب ابنتنا الصغيرة»...

وبعد طول نقاش، سكتت أم حنان على مضض.

في اليوم التالي ذهب أبو عزام إلى مكتبه الفخم، وأثناء جلسته مع سكرتيره زهير أخبره بالنجاح المميز للمعرض الذي أطلعه عليه سمير أمس، وكذلك بعزمه على تزويج حنان من سمير.

هنا، بدأ زهير يحس بالحسد الشديد لسمير! فهو الذي عَرَّف المعلم عليه، ومع ذلك أصبحا يتجاوزانه ولا يدعوانه لحضور العديد من الاجتماعات، والـمُعلم يتكلم عنه بإعجاب بل ويريد تزويجه من ابنته! فبدافع الحسد قال زهير:

- «يا مُعلم سمير ممتاز كتاجر، أنا معك في هذا. أما أن يكون نسيبًا لك، فاسمح لي...حنان مثل بنتي...سمير لا يليق بها...أنا لم أخبرك... هل تصدق أننا عندما كنا نتناول الغداء معه في أول لقاء، أنه كان ترك أمه أثناءها تحتضر؟!».

انتبه المُعلم إلى أن كلامه أثار غيرة زهير، فلم يُعِرْ كلامه اهتمامًا كبيراً:

- «مستحيل يا زهير».

- «صدقني يا سيدي...اسأله...كان متلهفًا لرؤيتك بأي ثمن... سامحني، لكن من ليس فيه خير لأُمه لن يكون فيه خير لابنتك يا معلم».

لم يعجب المعلم طريقة زهير في التنفير عن سمير فأجاب بجواب غريب ليَسُدَّ عليه الباب:

- «إذا كان لدى سمير إخلاص لعمله إلى هذه الدرجة فهذا سيكون من مفاتيح نجاحه»...سكت زهير بغيظ شديد.

تأخر المُعلم أسبوعًا -عمداً- قبل أن يتصل بسمير، ثم دعاه إلى

قصره، وكان في الانتظار معه حنان وأمها.

كان ذلك أسعد يوم في حياة سمير! أخبار متتابعة: سيتزوج ابنة المْعلم، وسيُسْكنهما المْعلم في فيلا كهدية زواج! وسيقام العرس في فندق فخم ويدعى إليه الأثرياء ورجال الأعمال.

لم يستطع سمير أن يخفي فرحته وذهوله! وبلع ريقه مراراً...لكن عند الحديث عن العرس لـمَّح إلى التساؤل عن التكاليف المحتملة. قال المْعلم:

- «اترك لي الموضوع وأنا سأعمل لكما أحلى عرس».

مضت ستة شهور، تغير فيها تعامل زهير مع سمير...لكن سميراً كان يتجاهله، وأدرك أنه بدأ يحسده...

وأتى يوم العرس المرتقب...دعا سمير إليه إخوته وعوائلهم فقط دون باقي الأقرباء، لمحدودية الكروت التي أعطاه إياها «عمُّه» أبو عزام. وما هي إلا دقائق قليلة على بداية هذا العرس حتى خرج إخوته الأربعة وأزواجهم مستائين مصدومين مما رأوا!

لقد كانت حفلة عرس سمير وحنان قفزةً كبيرة أبعدت سميراً عن إخوته وبيئة عائلته وتربيته وقرَّبته من بيئة أبي عزام.

سميرٌ نفسه كان متفاجئـًا ومتحرجـًا من بعض المظاهر والترتيبات، لكنه أحس أنه من «غير المعقول» أن يُبدي أي استياء أو اعتراض على إرادة «عمه» أبي عزام الذي «أحاطه بجمايله»: تمويل المعرض، تزويجه من ابنته، الفيلا، تغطية تكاليف العرس، وها هو يعرفه بسعادةٍ على أصدقائه «المرموقين» الذين ما كان سمير يحلم أن يكونوا ضيوف عرسه

يصافحهم ويستقبلهم ويُعَرَّف أمامهم على أنه: «رجل الأعمال الشاب الصاعد، شريكي في بعض الاستثمارات» كما كان يقول أبو عزام.

لقد أصبح أبو عزام هو الهواء الذي يتنفسه سمير! ما عاد يمكنه أن يستغني عنه أو يقول له في شيء: (لا)، وبالتالي سكت في عرسه عن أشياء كثيرة مبرِّراً لنفسه كالعادة.

انقضى العرس، وسافر العروسان ليمضيا أسبوعين في قبرص، ثم عادا إلى الفيلا التي تقاسم سمير وحماه أبو عزام تكلفةَ تأثيثها، وبدآ حياتهما بانسجام ومودة... كلٌّ منهما فرِحٌ بالآخر..... أراد سمير أن يعبر لله عن شكره وامتنانه فانتظم في صلاته في الأسابيع الأولى، وعلَّم حنانًا كيف تصلي! فقد كانت آخرُ صلاة رأتها حنان في بيئتها هي صلاة جدها والد أمها قبل وفاته من سنوات. تجاوبت حنان وكانت تصلي مع سمير جماعة أحيانًا. حين اشتريا ملابس للصلاة وارتَدَتْها حنان زاد جمالها ومودتها في قلب سمير، لكن أمر الحجاب لم يكن مطروحًا بالمرة في هذه البيئة ولا جرؤ سمير على أن يفاتح حنانًا به.

مر شهر كامل على العرس، لم يخطر ببال سمير خلاله أن يتصل بإخوته، وكانوا هم لا يتصلون به استياءً منه.

تُرى، من الذي اتصل به أخيراً، وماذا قال له؟

وماذا فعل زهير بدافع الحسد؟

ومَن مولود سمير الأول؟

فلنتابع.

«يعطيني إذن يحبني»
إيناس (٩)

بعد شهر من عرس سمير، اتصل به أمجد طالباً مقابلته...رحب به سمير ودعاه إلى الفيلا. جاء أمجد ومعه علبة حلويات كهدية زواج.

بدأ بالاطمئنان على سمير وارتياحه مع زوجته حنان ونجاحه في العمل، ثم سأله سمير عن دراسته في كلية الطب وكيف يمضي وقته وهو يعيش وحده.

بعد هذه المقدمات قال أمجد بصوتٍ هادىءٍ حزينٍ حريصٍ:

- «سمير، أنت تبتعد كثيراً»...

فهم سمير قصد أخيه فاختفت ملامح الاندماج والانطلاق في الحديث، وسكت..

قال أمجد:

- «أخي، ما على هذا ربانا والدانا، صلاتك..علاقتك بالله..صلة أرحامك..يا سمير...»

قاطعه سمير:

- «أمجد، أنا لم أعلق، لكن أنت يبدو أنك جئت لتحاضِرَ فِيَّ، حتى كلمة «مبارك العرس» نسيت أن تقولها لي».

- «أخي، بصراحة، ما حصل في العرس لا يجعله مباركاً من الله، لا أستطيع أن أخدعك لأجاملك».

- «يا أخي لا تضيقوها، ليلة العمر، الواحد يريد أن ينبسط».

- «أخي إذا كنت لا تنبسط إلا بما يسخط الله فهذه غفلة! عندما ينعم الله عليك ينبغي أن تكون في قمة الامتنان والطاعة لله».

- «لا تقل غفلة... أنا لست غافلاً! عندما عرضتم علي تخصيص جزء من ميراث والدَينا لبناء مسجد وافقت، وأنا أعمل باستمرار أعمالاً خيرية وليس بالضرورة أن أطلعك عليها. كان يمكنني عندما خرجنا من بيت والدَينا رحمهما الله أن آخذ شقة من خلال البنك ولم أفعل، واستأجرت شقة متواضعة...والصلاة...من قال لك أني لا أصلي؟! أُقَطِّع أحياناً لكني لم أتركها تماماً، بل حتى حنان شجَّعْتُها وصارت تصلي معي أحياناً.. فأرجوك، لا تُنَصِّب نفسك حكماً على علاقتي بالله!».

- «أخي، أنا أنصحك حرصاً عليك...العبد لا ينبغي له أن يكتفي بأن يفعل «بعض» ما يأمره الله وقتما يريد هو أحياناً...يا سمير، أتوقع منك أن تكون أكثر تعظيماً لحق الله، لا أن تستهين بحقه».

هنا، زادت عصبية سمير:

- «أنا لا أستهين بحق الله، بل أحب الله ومتأكد أن الله يحبني...انظر كيف وفقني في تجارتي فنجحت سريعاً، انظر كيف أصبحت أسكن فيلا فخمة...أدعو الله باستمرار ويستجيب لي، في مرضي، في تجارتي، في معاملاتي وعلاقاتي».

- «يا سمير، كل ما ذكرتَه «دُنيا»، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا لمن أحب. محبة الله تعرفها من توفيقك في دينك ورضا والديك. يوم وفاة أمي...»

هنا احمر وجه سمير من الغضب، فقد كان يوم وفاة أمه العَصَب الملتهب الذي لا يطيق أن يمسَّهُ أحد، إذْ لا يتحمل أن يقارَن بإخوته فيه، فقاطعَ أمجدَ قائلاً:

- «رحمة الله على أمي وعلى أبي. أمجد، ظننتك جئت تهنئني بزواجي، على كلٍّ شكراً لك على زيارتك وعلى هديتك، والله يهدينا جميعاً»...وكان واضحاً أنه يريد إنهاء الزيارة.

خرج أمجد متأسفاً على حال أخيه، وأدرك أن نظرته انحصرت تماماً في الدنيا، فهو يقيس علاقته بالله من خلال نجاحه الدنيوي! ركب أمجد سيارته، وقبل أن ينطلق أرسل لأخيه رسالة بالجوال نَصُّها آيتان: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾.

فتح سمير الرسالة، فهم ما يريد أمجد أن يُفهمه إياه: (ليست الكرامة على الله والهوان على الله بحسب الرزق الدنيوي).

تذكر سمير وصية أمه ودعواتها لإخوته مع حرمانه هو...لكن ما لبث أن نادتْه عروسه (حنان) فقال في نفسه: «ربما علي أن أفكر في هذا الأمر، لكن ليس الآن، يكفي أنه تَعكَّر دمي وأنا عريس، سأفكر فيه لاحقاً...في أقرب فرصة»...و ذهب إلى حنان.

مَرَّ عام... حصل خلاله أمران رئيسان:

أولاً: بدأ أبو عزام يُشرك سميراً في إدارة استثماراته الأخرى غير معرض السيارات من خلال إِطْلاعه على طبيعة هذه الاستثمارات ومشاكلها وتكليف سمير بمحاولة إيجاد حلول لها.

كانت ملفات هذه الاستثمارات عند السكرتير زهير، فبعد كل اجتماع كان المُعلم يقول لسمير:

- «تابع مع زهير وخذ منه التفاصيل».

كان زهير ممتلئًا غيظًا على الفتى المدلل (سمير) الذي يُعَوِّل عليه المعلم أن يحل مشاكل عجز زهير نفسه عن حلها: «أنا الذي جئت بك لأبي عزام...فإذا بكما تتجاوزانني في الاجتماعات، ثم لم يلبث أن يزوجك ابنته وأنت لا شيء! ويظن أنك ستكون أقدر مني على حل المشاكل؟!»

لذا، كان زهير يتعامل بطريقة جافة مع سمير، ويتعمد التأخر في إعطائه بعض التفاصيل ويتعذر له بالانشغال، بل ويخفي عنه بعض التفاصيل المهمة أو يعطيه معلومات مُضَلِّلة عمداً! كل هذا ليُفْشلَ سميراً.

أدرك سمير ما يريده زهير، فتعمد بطريقة «ذكية» أن يسجل على زهير بعض مكالماته معه ويحتفظ بالمراسلات بينهما، ويتظاهر لزهير بإحسان الظن فيه حتى يستمر زهير في مكره... بينما يقول سمير في نفسه: «أنا لا أحب أن أؤذي أحداً، لكن الذي يقف في طريقي...سأسحقه!»

الكبر...مولود وُلد في قلب سمير يوم عرسه، وظهرت آثاره يوم نصيحة أخيه أمجد له...وها هو يستمر في النمو...بدأ سمير يحس أن النعمة التي هو فيها إنما هي ثمرة ذكائه و نشاطه، وكان يردد في نفسه: «النصر حليفك»، «النجاح يرافق خطواتك»،

وأحياناً ينسى نفسه وهو وحدَه فيثني شفتيه بكبر و وَيَمُدُّ إبْهامَيه بإشارة الإعجاب قائلاً: (You deserve) (أنت تستحق)!

فكان مَزْهُواً بنفسه أنه «سيسحق» زهيراً بالأدلة التي جمعها ضده،

والتي سيقدمها للمْعلم أبي عزام.

لكن الذي أخره عن ذلك هو الحدث الثاني، وهو ولادة زوجته حنان لمولودهما الأول...

جاء أبو عزام إلى المستشفى...أمسك بحفيده الأول بسعادة...

- «إيش نسميك يا ولد؟ إيش نسميك؟ ....إمممم....أشرف»...

- «سوزان...صوريني مع أشرف»...صورَتْهما وأرسلت الصورة، فاستخرج أبو عزام موبايله وكتب على الفيس: «برفقة حفيدي الأول، والذي سميته أشرف، ليكون رمزاً للشرف في زمن الغش والخداع»...

العجيب أن أبا عزام لم يفكر في استشارة سمير...والذي كان قد أعدَّ لمولوده اسماً، لكنه سكت تفهُّماً لفرحة أبي عزام بحفيده الأول.

أضفى المولود الجديد بهجة على بيت سمير وحنان، وزاره إخوانه بعد أسبوع من ولادة أشرف ليهنئوه، وكانت فرصة لتعارف حنان مع تالة وزوجة سعيد وزوجة عاصم. ومع تنافر الطباع إلا أن الزيارة كان فيها قدْرٌ من الانسجام والفرحة بالمولود الجديد.

مَرَّ شهران، فوجد سمير الوقت مناسباً لِـ«سحق» زهير! فطلب من المعلم (عَمِّه) أن يجتمعوا ثلاثتُهم.

اجتمعوا في مكتب الـمْعلم، وفاجأَهما سمير بملفٍّ متكامل من الأدلة التي تُدِين زهيراً بوضوح وتُبين أنه يتعمد عرقلة عمل سمير وإفشاله، بما في ذلك التفريغ النصي لبعض المكالمات المسجلة، بل وأدلة تبين تقصير زهير وإهماله في إدارة بعض الاستثمارات...

كان أبو عزام يقلب الأوراق بعبوس....بينما زهير ينظر باتجاه

الشباك بشيء من اللامبالاة... قال سمير:

- «طبعًا عمي أبا عزام لا يمكنني بعد ذلك التعامل مع هذا الشخص، وغَنيٌّ عن الذكر أنه لا يستحق نسبة الـ ١٠٪ التي كنا اتفقنا عليها من أرباح المعرض، فهو لم يساهم في إنجاح المعرض بأي شيء».

رفع أبو عزام عينيه من الملف ونظر في عينَي زهير بغضبٍ مكبوح الجماح، فقال سمير بشيءٍ من الشماتة:

- «عمي، إذا قررتَ الاستغناء عن زهير فأقترح أن لا تُقاضيَه، ولا داعي للتشهير به، لعله يجد عملًا آخر يبدأ فيه بداية صحيحة».

ابتسم زهير ابتسامة غامضة، استخرج سيجارة وأشعلها ثم قال:

- «أما أنا يا مُعلم فأقترح أن تبحث عمن يحفظ لك أسرار ملف «التسهيلات» قبل التفكير بالاستغناء عني!».

لم يفهم سمير ما قصده السكرتير زهير بـ«أسرار ملف التسهيلات»، لكنه تفاجأ بأن ردة فعل عمه أبي عزام لم تكن كالمتوقع! فقد نظر باتجاه الشباك ممسكًا بسيجارته وقال:

- «زهير، لا أريد منك أن يتكرر هذا السلوك مع سمير. علينا جميعًا أن نضع أي خلافات جانبًا ونقدم مصلحة العمل»...هكذا بهذه البساطة! وبقي زهير صامتًا صمتًا مريبًا.

ثم قام أبو عزام بتقسيم العمل بينهما ليرسم لكل واحد منهما حدوده، وأخبر زهيراً بأن نسبته من أرباح معرض السيارات ستنزل إلى (٥٪) مقابل تخفيض مسؤولياته عن المعرض لصالح سمير، وترتفع نسبة أبي عزام إلى ٥٥٪. فسكت زهير على مضض.

انتهى الاجتماع وخرج زهير...هاب سمير أن يسأل حماه عن سبب هذا الرد الفاتر فهَمَّ بالانصراف، لكن أبا عزام استوقفه وطلب منه أن يسلمه الأدلة التي تُدين زهيراً ليحتفظ بها.

خرج سميرٌ عازمًا على أن يفهم ما هي «أسرار ملف التسهيلات» هذه، فأصبح «يُنَبِّش» وراء الـمْعلم وزهير، ويحاول أن يبني علاقات خارج العمل مع الذين لهم صلةٌ باستثمارات المْعلم، بل و كان يقتنص الفُرص للاطلاع على جهاز الكمبيوتر التابع للسكرتير زهير ويُقَلب في أوراق مكتبه في غيابه، ويقترب من باب مكتب المْعلم عندما يلاحظ أنه أغلق الباب لإجراء مكالمةٍ لا يريد أن يسمعها أحد. كان سمير يمارس هذا التجسس وهو محبَطٌ من فشله في «سحق» زهير الذي لطالما عامله معاملة سيئة وسعى في إفشاله.

عَبْرَ أكثر من شهرين، بدأ سمير يكتشف بعض الأمور، لكن الـمْعلم أيضـًا اكتشف أن صِهره سميراً يُنبش وراءه، فقد أخبره بذلك أصدقاء المعلم الذين حاول سمير اقتناص معلوماتٍ منهم بطريقة غير مباشرة. فاستدعى المعلم سميراً إلى مكتبه...

تُرى، ماذا جرى في هذا الاجتماع بين أبي عزام وصهره سمير؟
ولماذا لم يطرد سكرتيره زهيراً؟
وما هي هذه التسهيلات التي كان زهير يتكلم عنها؟
وما الذي اكتشفه سمير عن «عالَم» أبي عزام وزهير؟
فلنتابع.

لا يموت الذيب
ولا تفنىٰ الغنم
إيناس (١٠)

استدعى المعلم سميراً إلى مكتبه، أغلق الباب عليهما، أدار كرسيه المتحرك باتجاه الواجهة الزجاجية بعيداً عن سمير، استخرج سيجارةً، أشعلها، سَحَب منها نفَساً عميقاً وأخرج ضبابة من فمه...ثم قال لسمير:

- «الواحد يا سمير يتعلم من الحياة ما لا يمكن أن تتعلمه في الجامعة أو في دورات أو مؤتمرات...ومما تَتَعلمه أن المثاليات والقيم أمرٌ مهم بلا شك، مُهمٌّ لتحيا حياة نفسية سليمة وتشعر بالرضا عن نفسك. لكن إذا جعلت هذه القيم تتدخل كثيراً في حياتك فَسَتُقيدك، ويسبقك الجميع في المضمار. والذي يتأخر في مضمار السباق لا يربح ربحاً أقل فحسب، بل يجرفه الطوفان، فنحن في عالَم لا يرحم».

أدار المعلم كرسيه باتجاه سمير وأمسك ببعض القطع المكتبية أمامه قائلاً:

- «تصور هذه القطع يا سمير كأخشاب، وتصور المكتب بحراً تثير الرياحُ أمواجَه، والقطع تروح وتجيء، تقترب وتبتعد...هل أستطيع أن أؤسس عليها بناء عالياً؟»

قال سمير:

- «لا طبعاً».

ابتسم المعلم قائلاً:

- «كذلك الـمُثُل والقيم في عالَمنا: المجتمع هو البحر، الظروف والمتغيرات والمشاكل هي الرياح، قطع الخشب هي فُرَصنا في هذه الحياة...موطىء القدم الذي يمكن أن يتاح لنا. إذا سكَنَت الريح يوما وتقاربت قطع الخشب وحاولنا أن نبني المُثل العالية والقيم النبيلة على أساس هذه القطع، ماذا سيحصل في أول هبة للريح وتموُّجٍ للبحر؟».

قال سمير:

- «ستَنْهار».

قال المعلم:

- «أحسنت! ستنهار، وتنهار أنت معها! وكلما كانت المثُل أعلى كان انهيارها أسرع. لذا، فقد تعلمتُ من وجودي لأكثر من ربع قرن في سوق العمل أنَّ القيم الدينية والمُثل الأخلاقية شيءٌ جميل، لكنني أنا الذي أسمح لها بالتدخل في حياتي بالقدْر المناسب للواقع، أي أنني أُحمِّل كل قطعة من الخشب ما يمكن أن تتحمله، وما يمكن أن تحافظ عليه مهما هبت الريح وتعالت الأمواج. وبذلك أنسجم مع حاجاتي الروحية ومع الواقع في الوقت نفسه. غيري قد يُصِرُّ على البناء العالي، لكنه عندما ينهار سيكون مستعداً للتخلي عن قيمه وأخلاقياته كلها ويَتَشبث بالألواح حتى لا يغرق! لا يا عزيزي، قليلٌ مستمر خير من كثيرٍ منقطع، لا يفنى الذيب ولا تموت الغنم».

سكت سمير وبلع ريقه....وبدا له أن عمه أبا عزام لديه «شيء من

المنطق» فيما يقول!

كانت هذه المقدمة الطويلة من «حِكم» المْعلم تمهيداً لما قَرَّر أن يُطلِع عليه صِهره سميراً عبر أكثر من ساعة عن طبيعة «التسهيلات» و «التَّمْشِيات» و «التسليكات» و «التزبيطات» التي يتعامل بها المْعلم في استثماراته.

لقد اكتشف سمير أن عالَم عمه أبي عزام مليء بالغِش والتزوير والرشاوى! أعقدَ بكثير من الغش الساذج الذي غش به سميرٌ مشتري السيارة الأولى (علاء)، وأعقد من الغش المحدود الذي تعود عليه في تصليح بعض السيارات بعدها. وتبين لسمير أن السكرتيرَ زهيراً لم يكن مجرد سكرتير، بل كان المتولي لما يسميه المْعلم «التسهيلات والتسليكات»، حتى لا يظهر المعلم في الصورة، وليبقى محافظاً على «هيبته»!

لذلك لم يتصرف المْعلم مع زهير بحزم حين اكتشف أنه يتعمد إفشال سمير، لأنه لا يريد أن يوصل زهيراً إلى مرحلة (عليَّ وعلى أعدائي) فيفضح الأسرار و (ينخرب بيت الجميع)!

عاد سمير من مكتب أبي عزام إلى المعرض مذهولاً...كان يبرر لنفسه غشاً بقيمة مئة دينار أو مئتين، لكن الآن عليه أن يُؤَقلِم نفسه على مستوى «أعلى» بكثير! للحظةٍ، فكر سمير أن ينسحب من هذا العالَم الموبوء...لكن كيف ينسحب؟ أبو عزام هو هواؤه الذي ما عاد يستغني عنه! هو طريقه لتحقيق طموحه ورَسْمِ قصة نجاحه...

بالمناسبة، كان سميرٌ في الظاهر قد حقَّقَ طموحه، فقد أصبح وضعه

المادي كوضع إخوته تقريباً، وها قد تزوج و أنجب مثلهم، وأصبح ذا جاهٍ مهيباً بين موظفي المعرض وزبائنه وموظفي استثمارات أبي عزام، ومعارفه من «الطبقة المرموقة»، لكن انشغاله الشديد بالعمل، وحقده على زهير، ثم كيده لزهير، ثم تجسسه على زهير والمُعلم، كل هذا جعل لحظة تحقيق «الطموح» تَمُرُّ دون أن يلاحظها سمير أو «يستطعم بها».

ومع ذلك، كان من الصعب عليه التخلي عن هذه الحياة...ولم يجد سمير بديلاً عن «التأقلم» مع معلوماته الجديدة عن عالم أبي عزام...لم تكن مهمةً سهلة، لكن «ثُلاثياً» تعاونوا على «أَقْلَمَته»: عمه أبو عزام، وشيطان الجن، ونفسه الأمارة بالسوء! تعاون هؤلاء الثلاثة على إبقاء (النفس اللوامة) لدى سمير تحت التخدير! كلما كانت تصحو «ضربوها» إبرة من الإبر الجاهزة متنوعة الأشكال: «أنت أحسن من غيرك»، «الحياة هِيك بِدها»، «كل الناس يفعلون كما تفعل»، «تعوضها بالأعمال الخيرية»، «المُثل شيء والواقع شيء»، «لا يمكن أن أهدم ما بنيته من تجارتي ووضعي الاجتماعي»، «رحمَةُ الله الواسعة سَتَسَعُك»، «عندما أحقق طموحي ستستقر نفسيتي وأعطي ديني الوقت المناسب»، «يوماً ما سأذهب للحج وأبكي عند الكعبة وأفتح صفحة جديدة»...

طبعاً هذا كله بالإضافة إلى الإبرة الأصلية القديمة: «لا أريد أن أكون أقل من غيري، لا أريد أن أوصف بالفاشل».

كما أن أبا عزام أشرك سميراً في أعمال خيرية يعملها بالفعل! فوكل

إلى سمير إقامة إفطارات رمضانية وتوزيع طرود خيرية...لكن أبا عزام لم يكن ينسى أن تُلتقط له صورٌ في هذه الفعاليات...وعندما تُنشر أخبارها على موقع استثمارات أبي عزام، كانت الأرقام مضاعفة عما هي عليه في الحقيقة! إفطار رمضاني أقيم لمئة يتيم على أرض الواقع...في الإعلان: ثلاثمائة، مع تفنن في التصوير لإظهار العدد كبيراً! وُزِّع مئة طرد خيري على المحتاجين على أرض الواقع...في الإعلان: مئتا طردٍ!...

تذكر سمير كيف كان أبوه ينادي أخاه عاصماً ويعطيه كيساً مملوءاً بالرز والسكر والحليب والشكلاطات ويقول له:

- «يابا عاصم، خذ هذا الكيس لدار أم رأفت، لكن إياك أن يراك أحد».

أم رأفت أرملةٌ توفي زوجها بالسرطان وترك معها ثلاثة أطفال. كان أبو سمير يتعاهدها بالمُؤَن ولا يريد أن يعلم أحد بذلك. فكان عاصم يذهب إلى بيتها كل بضعة أيام، يلتفت يمنة ويَسْرة، فإذا اطمأن أنْ لا أحد يراه ترك الكيس على بابها و رنَّ الجرس ثم هرب سريعاً قبل أن يُفتح الباب. فإذا أخبر أباه بنجاح المهمة ابتسم وقال:

- «الحمد لله، يا رب اقبل من عبدك صدقة أنت رزقته مالها وألهمتَه إخراجها».

كان سمير يحفظ هذا المشهد وهذه الكلمات، لكنه لم يستخرجها من محيط ذاكرته إلا عندما رأى أعمال أبي عزام «الخيرية» مضروبة باثنين أو ثلاثة لغاياتٍ تجارية!

عرف أبو عزام كيف «يُرَوِّض» سميراً رويداً رويداً...في البداية أطلعه

على شيء من حقيقة «التسهيلات»، وأخفى عنه أموراً أكثر سوءاً...ثم انتقل من مرحلة تعويد سمير على السكوت عن هذه «التسهيلات» إلى إشراكه في بعضها بالتدريج...وكلما رآه قد تعوَّد على التخلي عن شيء من دينه وقيمه بدأ يعوده على استلال قيمة أخرى مما غرسه فيه والداه وهو صغير، بحيث تبدو محاولة الاعتراض على هذا «تعقيداً» و «دقارة» و «تشديداً» لا داعي له، فلا يجرؤ سمير على الاعتراض!

مع تَكشُّف أوراق (اللف والدوران) لسمير ثم إشراكه فيها، قلَّت هيبته لدى عمه أبي عزام. كان سمير يطاوعه في أمور كثيرة ويسكت عن العَوَج بشكل متزايد ليحصل رضاه واستمرار دعمه، لكن ذلك كان في الحقيقة يجعله في عينَي أبي عزام (أداة صالحة للاستخدام) بدلاً من أن يكون كيانـًا مستقلاً له احترامه!

كثيراً ما كان أبو عزام يُشعر سميراً أن إنجازاته دون المطلوب، وأنه كان يتوقع نتائج أفضل...كل هذا حتى «يعصر» من سمير قدراته كلها...

أحس سمير بأن تنازله عن مبادئه ضيع احترام أبي عزام له، حاول العودة إليها وإظهار أنه «صاحب مبدأ» ليكسب الاحترام من جديد، وأظهر نوعـًا من المعارضة لأشياء «عوَّده عليها» أبو عزام مؤخراً... لكن لم يَخْفَ على أبي عزام أسباب هذا التمنُّع...فكان إذا عارضه سمير نظر إليه بابتسامة صفراء فيها شيء من الاستخفاف ثم مرَّر ما يريد وكأن سميراً لم يقل شيئـًا.

على الرغم من غفلة سمير الشديدة وغرقه في أوحال أبي عزام، كان هناك مبدأ واحد يتمسك به ولم يتخل عنه طوال هذه السنوات. كان هذا المبدأ يَحُد من سرعة تدهوره، ولم يكن المعلم يضغط عليه كثيراً لئلا تصحو نفسه اللوامة فجأةً!

ما هو هذا المبدأ يا ترى؟

وكيف سارت حياة سمير مع حنان بعد التطورات التي حدثت في علاقته مع أبيها؟

وهل كان لدى سمير ضمانات لحفظ حقوق عمله مع أبي عزام؟

فلنتابع.

بقايا فطرة
إيناس (١١)

على الرغم من غفلة سمير الشديدة وغرقه في أوحال أبي عزام، كان هناك مبدأ واحد يتمسك به ولم يتخل عنه طوال هذه السنوات. كان لدى سمير تعظيمٌ لله تعالى...صحيح أنه كان تعظيماً ضعيفاً لا يمنعه من مشاركة أبي عزام في كثير من المحرمات ولا يدفعه للمحافظة على صلاته، لكنه مع ذلك كان يهاب من فكرة أن يقوم بشيء ينزع عنه وصف الإسلام.

كان أبو عزام وزهير مستخِفَّين بالدين، فحصل مرةً أن أظهرا هذا الاستخفاف في معرض المزاح...لم يجاملهما سمير في ذلك، بل أبدى انزعاجاً وقطَّب حاجبيه وغير الموضوع. فأصبحا يتجنبان مثل هذا المزاح أمامه.

بذرة الخير الفطرية هذه كان لوالد سمير دور في المحافظة عليها. لا زال سمير يذكر يوم ذهب مع أبيه لوليمة عند ابن عم أبيه (أبو حلمي)، وكان سمير يومها في العاشرة...وعلى مائدة الطعام أراد أبو حلمي أن يُضحك الحضور، فقال:

- «أسمعتم آخر نكتة؟ نزل جبريل ودخل إلى محل....»

هنا يذكر سمير كيف تغيرت ملامح أبيه على الفور وقاطع أبا حلمي:

- «أعوذ بالله يابو حلمي، لا تمزح بالدين»...

- «يابو السعيد انت بس اسمع».

- «لأ، لا نضحك على شيء فيه مساس بالدين بعدين نصير نناقش صح ولَّا غلط..الله يرضى عليك..كله إلا غضب رب العالمين».

وهنا تدخل أحد الحضور قائلاً:

- «أبو السعيد معه حق. جبريل ملك كريم قال الله فيه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١﴾. ..لا ندخله في النكات.

فسكت أبو حلمي وقال:

- «أستغفر الله»...

لا زال الموقف محفوراً في ذاكرة سمير، بملامح أبيه الغاضبة ونبرته العالية وحرارة إيمانه وغيرته على دينه.

لم يكن أبو السعيد صاحب علم، بل من بسطاء المسلمين، لكنه كان محبـًا لله ومعظمـًا له.

لا زال سمير يذكر موقفـًا تكرر أمامه كثيراً، حين كان أبوه يمسك بالفواتير التي فيها البسملة أو اسم الله تعالى فيشققها قبل رميها.

لا زال يذكر حديثـًا كرره أبوه على مسامعه ومسامع إخوته مراراً... أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر رجلا من الأقوام السابقة أعطاه الله مالا وولدا، فلما حضرته الوفاة قال لبنيه: «أيَّ أب كنت لكم؟» قالوا: «خير أب»، قال: «فإني لم أبتئر عند الله خيرا»، يعني لم أدخر عملاً صالحـًا أريد به وجه الله لينجيني يوم القيامة. فأوصى أبناءه بوصية غريبة فقال: «فانظروا إذا مت فأحرقوني حتى إذا صرت فحما فاسحقوني، فإذا كان يوم ريح عاصف فأذروني فيها» يعني ارموا رماد جسمي ليتطاير مع

الريح...ولماذا هذا كله؟ قال: «فوالله لئن قدر الله علي لَيُعَذِّبَنّي عذابًا ما عذّبه أحدًا من العالمين!»

قال نبي الله صلى الله عليه وسلم: (فأخذ مواثيقهم على ذلك وربي، ففعلوا، ثم أذروه في يوم عاصف، فقال الله عز وجل: كن، فإذا هو رجل قائم، قال الله: أي عبدي ما حملك على أن فعلت ما فعلت؟ قال: «مخافتُك»، فما تلافاه أن رَحِمَهُ الله عندها)...أي أنّ الله تعالى تدارَكَه برحمته عندما قال هذه الكلمة!

لا زال سمير يتذكر كيف كان أبوه، على صلابته، يتهدج صوته وترق ملامحه في كل مرة يقرأ فيها: «فما تلافاه أن رَحِمَهُ الله عندها» على تكراره للحديث في أكثر من مناسبة...وكيف كان يقول لهم: «ما الذي أنجى هذا الرجل يا أبنائي؟ إنه تعظيمه لله.احرصوا مهما أخطأتم ألا تفقدوا حبل النجاة هذا ولا تسمحوا لأحد أن يخطف منكم هذه الجوهرة في قلوبكم بنكتة سخيفة أو كلمة تافهة تضحكون عليها أو تجاملونه فيها فتهلك آخرتكم».

هذا التعظيم عند سمير، على ضعفه، كان شعرةً تبقيه على صلة بدينه، وجذوةَ نارٍ خافتة، لكنها قابلةٌ للتنامي. وكان أبو عزام يحذر من الاقتراب من هذا الخط الأحمر.

بعد شهور من انخراط سمير في استثمارات أبي عزام الأخرى، غير معرض السيارات، بدأت حياته مع حنان تتأثر وسعادتهما تتعكر...

ففي هذه السنوات اكتشف سمير الحقيقة المُرة: أنَّ أبا عزام لم يزوجه ابنته ويسكنه الفيلا لسواد عينيه ولا لأنه أحبه واعتبره كابنه كما توهم سميرٌ

يومـاً! بل ليكون خاتمـاً في إصبعه يستخدمه في استثماراته ويستفيد منه قدر الإمكان. وقل احترام سمير لعمه أبي عزام لِمَا اكتشفه من عِوَج في «التسهيلات» و «التسليكات»، ولسبب آخر كان يستفز سميراً جداً: أدرك سمير مع مرور الوقت أن أبا عزام لم يكن حريصـاً على انتهاء المشاكل التي كان سمير يعانيها مع زهير، بل كان سعيداً باستمرارها ليستغلها! كان يتعمد إجراء مقارنات بينهما ليُلهب حماسة كلٍّ منهما على تقديم أفضل ما عنده، ولو كان ذلك على حساب نفسيتهما وازدياد الحسد بينهما، وإنما يضع حداً للتباغض بينهما إذا شعر أنه يؤثر على (مصلحة العمل)!

فكان سمير يتصور نفسه وزهيراً كحصانَين (أو حمارَين!) يَجُرَّان عربة عليها أبو عزام وهو يضربهما بسوط ليسيرا به أسرع فأسرع!

أيضـاً، الأمور المالية لم تكن واضحة بين سميرٍ وعمه أبي عزام. سمير له نسبة ٤٠٪ من أرباح معرض السيارات. طيب وماذا عن جهوده في متابعة مزرعة الدواجن؟ وسلسلة مطاعم الوجبات السريعة؟ و شركة المقاولات؟ وأسهُم شركة التأمين؟ لقد استدرج أبو عزام صهره للمساعدة في إدارة هذه المصالح دون الاتفاق على أُجرة سمير مقابل جهوده فيها، هل هو شريك؟ هل هو موظف؟ لا شيء على الورق، ولا هناك مقابلٌ مادي أتاه منها حتى الآن.

طبعـاً كان من الصعب على سمير أن يفاتح عمه أبا عزام بالموضوع وهو يسكن في الفيلا الفاخرة بلا مقابل، وقد اشترى له عمه سيارة (جيب) فاخرة، وإن كانت الفرصة لم تتسنَّ بعد لتسجيلها باسم سمير! ولم يكن أبو عزام ينسى كل فترة أن يفاجيء سميراً بتذاكر حجزها له ولزوجته

وابنه ليسافروا إلى مناطق سياحية، أو بـ (تنكات الزيت) وصناديق الخضار والفواكة وأكياس اللحوم التي يرسلها لبيت سمير. ويوم أنجبت حنان ابنهما أشرف فإن أبا عزام قد بادر إلى دفع فواتير المستشفى، وكان يعطي ابنته مبلغاً من المال كل فترة.

أمام ذلك كله كان سؤال سمير لعمه «ماذا لي على جهودي» سيبدو سؤالاً وقحاً في نظره! فماذا يريد أحسن مما هو فيه؟! لكنه مع ذلك لم يكن مستريحاً لعدم وضوح أجرته على تكريس حياته لاستثمارات عمه.

عدا عن هذا كله، أصبح سمير يتأخر في العمل، وحتى في الوقت الذي يمضيه في البيت كان كثيراً ما يتلقى ويجري مكالمات متعلقة بالعمل، بما فيها من مشاكل تستثير غضبه وتعكر أوقاته مع حنان. كان سمير حريصاً في ذلك كله على «إثبات نفسه» في المنافسة مع زهير أمام المعلم، وكان زهير يعرقل أعمال سمير (من تحت لتحت) دون أن يترك أي مُتَمَسَّكٍ عليه، فقد تعلم من الدرس السابق حين جمع سمير الأدلة عليه!

حنان كانت تحب زوجها وتطلب منه العطف والاهتمام...

- «حبيبي، نحن بانتظارك أنا وأشرف...أريتُ صورتك لأشرف على الموبايل فابتسم وقال: «بابا..بابا»، ووقف عند الباب ينتظرك..متى ستعود؟»

- «هههه..حبيبي يا بابا..طيب، سأخرج بعد قليل»...

في البيت:

- «حبيبي، أرجوك، لا أحب أن أراك متعكر المزاج...كن لنا وأنت معنا ودعك من العمل»...

كان سمير في البداية يُشفق على حنان وهو يرى في عينيها الاستعطاف والحب الصادق، فيتجاوب، ويهدئ من نفسه...ويترك الجوال بعيدا عنه أحيانا ليتفرغ لها ولأشرف.

لكن، مع مرور الوقت تغيرت طريقة رده:

- «أرجوك عد إلينا يا سمير، اشتقت لك أنا وأشرف»...

- «مشغولٌ بمصالح أبيك»...

في البيت:

- «أرجوك أغلق الجوال، نريدك لنا»

- «مضطر، حتى يرضى أبوك» بلهجة فيها استياء. كان سمير يعبر عن والدها سابقًا بـ(عمي أبو عزام)...والآن: (أبوك)..

في المقابل، لاحظَت حنان تراجع احترام أبيها لزوجها...ولم تملك أن تفعل شيئًا أمام تعكُّر العلاقة بين الطرفين. وبدأت هي الأخرى تتوتر وتتململ في علاقتها مع سمير...لكن أمراً ما حافظ على شيء من المودة في هذا البيت: حنان حامل بابن سمير الثاني...وتعمدت في شهور الحمل الأخيرة أن تتظاهر بالتعب والحاجة للرعاية لتستجلب بعض العطف والاهتمام من سمير...والذي عاد بالفعل ينزع نفسه بصعوبة من دوامة العمل ليكرس شيئا من الوقت لبيته.

وبعد ثلاث سنوات من ولادة أشرف، انجبت حنان مولودها الثاني... ابتهج سمير بمولوده الجديد...

لكن ما لبث أبو عزام أن جاء ليعكر هذه البهجة! فقد حضر إلى

المستشفى وأخبر سميراً وحنانـًا وأمها أنه «قرر» أن يسمي المولود الجديد باسم (صادق).

الغريب أنه لم يخطر ببال أبي عزام أن «يستشير» سميراً على الأقل في تسمية ولده أو يسأله إن كان قد أعد لابنه اسمًا! لأن أبا عزام أصبح -لا شعوريًا- ينظر إلى أبناء سمير كأنهم جزء من ممتلكاته!

على حسابه على الفيس بوك نشر المْعلم صورة له وهو يحمل المولود الجديد مبتسمًا وكتب تحتها: «حفيدي الجديد، سميته (صادقًا) ليكون صادقًا في هذا الزمن الذي فشا فيه الكذب، بعدما سميت حفيدي الأول (أشرف) ليحافظ على الشرف في زمن الغش والخداع»!! ثم بدأ المْعلم يستقبل إعجابات المعجبين وتهنئات زبائنه وشركائه وموظفيه.

أدرك سمير أن أبناءَه أصبح المعلم يستخدم أسماءهم لغاياتٍ تجارية، ليخفي وجهه الحقيقي ويُجَمِّل صورته أمام معارفه. وكان هذا شعوراً قاسيًا مهينًا لسمير. فكر أن يعترض ويقول: «لكني أعددت لابني اسمًا» إلا أنه كان كالمخدَّر عن معارضة أبي عزام!

اتصل «الدكتور أمجد» بسمير...كان قد أتم دراسة الطب وبدأ يتخصص في طب الأعصاب...ظن سمير أن أمجد علم بقدوم المولود الجديد...فاستغرب، خاصة وأن علاقته ضعُفت بإخوته مع مرور الأيام وكثرة مشاغله ومشاكله، فما عاد يلتقي بهم إلا في الأعياد. وربما التقى بأحدهم عَرَضًا أثناء التسوق بعد انقطاع أشهُر!

كان أكثرهم تواصلاً الدكتور أمجد، الذي يتفقد سميراً برسائل

الوتسأب ويصبر على تجاهل سمير لكثير من رسائله واتصالاته ويعاود التواصل إلى أن يرد سمير...كان أمجد حريصاً على إبقاء ولو خيطٍ رفيعٍ بينهما، بالإضافة إلى تحيُّنه الفرصة المناسبة ليخبر سميراً بكلماتٍ قالتها أمه «أم السعيد» قبيل وفاتها، يحسب أنها قد تُحدث في حياة سمير فرقاً، لكنه كان يحتفظ بهذه الكلمات للفرصة المناسبة، ولا يريد أن «يحرق كَرتَها» بإلقائها على مسامع سمير وهو في غفلته، فتندثر وسط ركام مشاغله والتهاءاته. لم تحن هذه الفرصة بعد...لماذا اتصل أمجد إذن؟

- «سمير، أود أن أدعوك إلى جاهتي[1]»

- «ما شاء الله! متى؟»

- «يوم الجمعة القادم الساعة الخامسة في صالة النبلاء»...

- «جميل...بالمناسبة، رُزقت مولوداً قبل قليل»

- «ما شاء الله...ماذا سميته؟»

سكت سمير وقال في نفسه:

- «ماذا سميتُه؟ للأسف ليس أنا الذي سماه...إخوتي يسمون أبناءهم بينما أنا...»

- «ألو»

- «عفواً...سميناه: صادق»

- «اسمٌ جميل..بانتظارك الجمعة، وسأبشر إخوتي بمولودك الجديد».

(١) الجاهة هم أقارب العريس ومعارفه الذين يذهبون لطلب العروس من أهلها في مراسم معروفة كنوعٍ من الإشهار.

- «طيب إن شاء الله..السلام عليكم».

مَن هذه الفتاة التي خطبها الدكتور أمجد؟

كان في زيارة لبيت تالة قبل أسبوعين:

- «تالة...حواليك عروس لشاب محترم يشبهني تماماً؟»

قالت تالة ممازحة:

- «يشبهك أم محترم؟»

ابتسم أمجد:

- «أختي الكبيرة ولا أستطيع أن أرد عليك».

- «لدي طالبة في دورة التربية خلوقة، صاحبة دين، وأجمل ما فيها رقة قلبها، سريعة الدمعة».

لمعت عينا أمجد:

- «جميلة؟»

- «وما شأنك أنت؟ هذا السؤال يسأله صديقك المحترم الذي يشبهك تماماً»

- «تلُّول...أنت تعرفين من أقصد»

- «طيب قلها من البداية وبلاش لف ودوران يا نمس»

- «إحم إحم...طبيب قد الدنيا وتقولين لي نمس؟!»

- «معذرة، قصدي الدكتور نمس»...

ذهب أمجد برفقة تالة إلى بيت طالبتها «جُمان»...والتقى بها وبأهلها،

وكان النصيب...

بعد شهرين حضر سمير عرس أخيه أمجد، كانت أجواء بهيجة... جعلته يفكر في تدارُك وضعه....كيف؟

وكيف حقق ما يريد ولم يحققه في نفس الوقت؟!

وما الحدث الكبير الذي سيؤثر في حياة سمير؟

فلنتابع.

ماءٌ لا يروي!
إيناس (١٢)

في عرس أمجد التقى سمير بإخوته وأبنائهم...كان الجميع سعداء... تسائل في نفسه: «لماذا هم أسعد مني؟ لماذا أرى لديهم راحة وطمأنينة لا أجدها في نفسي؟ أخرج يوميًا من الصباح حتى الليل لأبذل عمري في مصالح أبي عزام الذي «يَحْرُث علي حراثة» ولا أعلم ماذا ستكون مكافأتي على ذلك في النهاية...طيب إذا مات هذا الرجل ماذا سيكون نصيبي من هذه الاستثمارات كلها؟ المال سيذهب لأولاده وأبوء أنا بضياع العمر! رصيدي البنكي لم يزد منذ أكثر من سنة لأني منشغل عن المعرض...أريد أن أبني شيئا لمستقبلي...»

معرض السيارات هو الشيء الوحيد الذي لسمير نسبة واضحة من أرباحه، لذا فقد عاد إلى التركيز عليه بعدما شغله عنه أبو عزام باستثماراته الأخرى الفترة الماضية. فأصبح إذا سأله المْعلم عن التأخر في إدارة استثماراته الأخرى يجيب:

- «مشغول بالمعرض اليوم، سأذهب لإدارة سلسة المطاعم غداً»....«المعرض أخذ وقتي اليوم، سأنسق لتوفير علف مزرعة الدواجن غداً»...

ثم أصرَّ سمير على استيراد السيارات المستعملة بدلاً من التعامل بالمستعملة محليًا، ولم يكن هذا برغبةٍ من المْعلم لأنه سيضطرُ سميراً

للسفر والانشغال عن الاستثمارات الأخرى...

حاول المعلم إلهاب حماسة سمير بالضرب على وتر المنافسة مع زهير:

- «بما أنك مشغول سلم متابعة إدارة شركة التأمين لزهير».

- «طيب، أجتمع معه بعد غد لأسلمه ملفاتها وأشرح له».

- «جيد، لعله ينجح في تحقيق ما لم تحققه أنت».

- «أرجو له ذلك...خليه ينشغل بشيء بدل ما هو قاعد يمكر ويحفر»!

تفاجأ المعلم من جواب سمير، وأدرك أن سميراً بدأ يشعر بالغُبن، وأنه يحتاج إلى الشعور بشيءٍ من الاستقلالية، فقرر أن يمنح صهره هذه «الاستقلالية» الموهومة ما دام كله في النهاية يَصُب في صالحه، ولِيَبْقى سمير تحت السيطرة!

إنجاح المعرض، والسفر لاستيراد السيارات، مع الانشغال باستثمارات أبي عزام الأخرى، وإن كان مُحَجَّمًا، شغل سميراً عن بيته من جديد، ولم يحظَ صادق بما حظي به أشرف في صغره من شيء من اهتمام أبيه...

كانت حنان تجعل أشرف يتصل بأبيه عندما يسأل عنه لعل سميراً يحن إليه، فيرد سمير:

- «طيب بابا حبيبي، سآتي وآخذك للحديقة»...يأتي متأخراً، يأخذ العائلة في عجالة وهو مشغول البال...ثم أصبح يأتي وأشرف وصادق نائمان....ثم ما عاد يرد على أكثر مكالمات حنان وأشرف...

عطلة نهاية الأسبوع قلما كانت عطلة بالنسبة لسمير...

- «بابا تعال العب معنا»...

- «الآن مشغول يا حبيبي، آتي بعد قليل».....

يعود أشرف بعد دقائق....

- «بابا انتظرناك ولم تأتِ»....

- «دقائق يا بابا، اتركني الآن، أعمل حسابات، أنت تخربطني كلما تأتي»....

يأتي المسكين بعد قليل:

- «بعدين يا بابا؟»...«خلص يا أشرف...لما أنتهي سآتي إليكم»...

لم يلاحظ سمير أنه حين صرخ «خلص يا أشرف» خاف المسكين وارتجف...ثم ذهب ولم يعد!

مع مرور الوقت أصبح سمير ضعيف العاطفة تجاه ولديه، وإذا نادى (أشرف) أو (صادقًا) قفزت إلى لا شعوره صورة المُعلم وهو يستغل تسميتهما ليُجَمِّل قُبْحه! فكان يحس بشعورٍ غامضٍ أن ولَدَيه ليسا له!

عتابُ حنان المتودِّدُ لسمير وترجيها له لمزيدٍ من الاهتمام بدأ ينقلب تبرُّمًا وجدالاً معه أمام ابنيهما:

- «تأتي متأخراً لتجلس على الموبايل أو اللابتوب! أشرف يُغَلِّبني، لا يسمع الكلام...ويحتاج مساعدة في الدراسة كذلك»...

- «مشغول بمصالح أبيك»...

- «لا تتكلم عن أبي بهذه الطريقة...ما فعله أبي لك لم يفعله أحد لصهره»...

رفع سمير عينيه عن اللابتوب ونظر بغيظ:

- «ما فعله أبوك لي؟! أبوك يحرث عليَّ لمصالحه، أصحو وأنام وأنا أفكر بها وأعمل عليها..مقابل ماذا؟»..

- «مقابل ما نحن فيه من نعيم»..

- «هذا النعيم باسم مَن؟ ماذا لي من هذا كله؟ حتى أنتِ أصبحتِ تمُنِّين علي؟!»

تركَتْه حنان فترة ثم عادت إليه:

- «حبيبي سمير، أنا ما قصدت أن أمُنَّ عليك..لكن أنت تجرحني بالحديث عن أبي بهذه الطريقة...أرجوك لا تُدخلني في مشاكلك مع أبي»...

- «طيب ماشي»...

- «تعال اجلس معنا»

- «آتي بعد قليل»

تمر نصف ساعة وحنان تنتظر...ثم يأتي سمير وقد نام الأولاد... حنان على الموبايل...يكلمها سمير قليلاً وفي نفسها غصة، ثم ينامان...

مع مرور الوقت بدأ أشرف وصادق يخرجان من بؤرة تركيز أمهما كما خرجا من بؤرة تركيز أبيهما...سمير «يحقق ذاته» من خلال تكريس وقته للمعرض...فأصبحت حنان تحاول «تحقيق ذاتها» هي الأخرى من خلال استجلاب متابعين أكثر على مواقع التواصل الاجتماعي، وتحقيق المزيد من التفاعل على المنشورات، وإمضاء الأوقات مع صديقاتها، ولم يعد الولدان «مشروع نجاح» بالنسبة لأيٍّ

مـن والديهمـا. وللتخلـص مـن إزعاجهمـا، أصبـح والداهمـا يتركانهمـا يمضيـان أوقاتـاً طويلـة على الأجهـزة الإلكترونيـة، فلدى كل منهمـا تابلـت وموبايـل، ولديهمـا بليـي ستيشـن.

أخـو حنـان الأصغر كان يصطحب أشـرف معـه إلى جَمْعات الأصحاب وإلى الجامعـة -في عُطـل أشـرف المدرسية- مزهُـوَّاً بوسـامة ابـن أختـه ومنتظراً أن يستجلب نظر زميلاتـه في الجامعـة ويسـمع عبـارات الإطـراء منهـن على أشـرف، وكان أشـرف يكتسـب صفـاتٍ سـلبيةً مـن صحبـة خالـه، وسـمير لا يعجبـه ذلـك، لكنـه يسـكت لأن ذلك يعـوض بعض الفـراغ الذي يعانيـه أشـرف مـن والديه.

في السادسـة من عمره، كثرت ملاحظات الـمَدرسة على أداء صادق... ذهـب بـه والـداه إلى مركز مختـص للتقييم يملكـه ويديره رجلٌ ثـري خيِّر... لاحـظ أن سـميراً منشـغل أثنـاء جلسـة التقييـم بجوالـه بـدلاً مـن متابعـة أداء ابنـه في جلسـة التقييم..فقـال في نفسـه: «الأب بحاجـة إلى علاج قبـل ابنه!»..

أخـذ سـميراً جانبـاً وأخبره بأن صادقـاً يعاني من صعوبـات تعلُّم وكثرة تشـتت سـببه الرئيـس فقـدان التواصـل الاجتماعي الفعـال مع والدَيـه وكثرة التعـرض للأجهـزة الإلكترونيـة. يحتـاج لجلسـات عـلاج وظيفـي ثـلاث مـرات في الأسبوع...سـكت المديـر، حدَّ النظر إلى سـمير مع ابتسـامة، وقال بلهجة شـفوقة:

- «تحتاجان أن تتواصلا مع ابنكما أكثر»...

صُدم سمير

- «ابني لديه صعوبات تعلم؟!»...

في طريق العودة إلى الفيلا حدث بين سمير وحنان تلاوُم وإلقاء كلٍّ للمسؤولية على الآخر في هذه المشكلة...

أمسك سمير بيد صادق وهما يصعدان درج الفيلا، نَظَرَ إليه نظْرةَ شفَقَة، وقرَّر أن يعتني بابنه أكثر...

لكن كالعادة، كان هذا «القرار» فورةً حماسيةً مؤقتة...مع خروج ولدَيه من بؤرة تركيزه لفترة طويلة كان سمير فاقداً لمهارات التواصل معهما...لا يجد متعة في الحديث إليهما وملاعبتهما، ولا في رؤيتهما ينموان، يحاولان، يتعثران، ينجحان، يخطئان في الكلمات أخطاء مضحكة....كل هذا كان يمر وسمير مشغول البال...حتى جلساته معهما ومحاولات اللعب مُتَكَلَّفة، لأنهما ببساطة ليسا جزءاً من مشروع نجاحه الذي يسيطر على ذهنه...

الإجازات كانت متنفساً يجتمع فيه سمير بعائلته ليمضوا وقتاً ممتعاً «بعض الشيء»...فلم يكن يخلو من معكرات التوتر والتلاوم والاتصالات المتعلقة بالشغل، وسرعان ما كان يزول أثرها الجميل عندما يعود سمير لدوامة الشغل.

مع تركيز سمير على معرض السيارات، انتعش المعرض بالفعل وتنامى رصيد سمير البنكي. لكن العجيب أن رصيده النفسي لم يزدد إلا تناقصاً بعد ذلك، في علاقة عكسية مع رصيده البنكي!

لم يستطع سمير فهم السبب، فقد كان كل شيء (مادي) في حياة سمير جميلاً: فيلا جميلة، سيارة جميلة، مكتب جميل ومعرض جميل، زوجة جميلة، طفلان جميلان، سَفرات إلى أماكن سياحية جميلة، ومؤخراً:

أرصدة بنكية جميلة...لكن حياته مع ذلك لم تكن جميلة! مع إهماله للدراسة في صغره إلا أنه كان لا بأس به في أساسيات الرياضيات، خاصة وأنه احتاجها في عمله. فلم يفهم هذه المعادلة: كيف يكون مجموع هذه الأشياء الجميلة حياةً غير جميلة؟!

في خِضَمِّ الحياة المادية التي غَمَرَ فيها نفسه، لم تكن كلمة (بَرَكة) تَخْطر ببال سمير ولا يتذكر أن يشملها في معادلاته!

ويوم انتبه لقراءة الإمام -صباحَ يوم وفاة أمه- حين قرأ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾، وأدرك أنه غفل عن الله، ثم خدَّر نفسه بأنه لا بُدَّ له من النجاح الدنيوي ثم يُقبِلُ على الله، لم يُراعِ سميرٌ يومها أن لحظات اليقظة ليست شيئًا نَسْتَجلبه بِزِرٍّ استحضَارٍ وقتما نشاء! بل مِنَحٌ من الله، إن لم نستغلها نسيناها، ونسينا أنفسنا معها!

تزايد شعور سمير بالإحباط وضَعْفِ الدافع...فَحماسته وسعيه الدؤوب كان لها دافع: «لا أريد أن أكون أقل من إخوتي، لا أريد ان أوصف بالفاشل، أريد تحصيل المال والجاه، أريد أن أعيش حياة منعَّمة»...

وقد حقق سميرٌ ما أراد، ولم يحققه في الوقت نفسه! فقد حقق طموحاته هذه، والتي ظن أنها ستضمن له السعادة، لكن المفاجأة أنها لم توفر له السعادة!

أحس نفسه كعطشان يسير منهكًا في صحراء، فيرى واحة، يصل إليها، ليست سرابًا...ها هو الماء بالفعل...لكن العجيب أنه يشرب ويشرب ولا يرتوي!

الحقد على زهير، ومحاولة إثبات النفس في منافسته لم تكن دوافعَ كافية

للاستمرار في بذل جهودٍ مضاعفةٍ أكثر من ذلك. ففَتَرَتْ همته، وعادت أعراض قلة الصبر للظهور من جديد. حلوله للمشاكل، والتي عوَّل عليه أبو عزام فيها كثيراً، أصبحت أحياناً حلولاً ترقيعية، قريبة من (التصليحات الشكلية) التي روَّج بها السيارة الأولى في تجارته على المسكين علاء! لم تكن حلولاً جذرية على أساس تفكيرٍ هادىءٍ وتأمُّلٍ صبورٍ....

بدأت «أعطال» هذه الحلول الترقيعية تظهر لأبي عزام، مما استفزه وزاد توتر علاقته بسمير، وانعكس ذلك على بيت سمير...

باختصار، أصبحت حياة سمير كعِقدٍ انقطع وتناثرت خرزاته، ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

بعد أحد عشر عاماً من زواج سمير، وبعد هذا الجفاف والتِّيه في حياته التي دخلت فصل خريف طويل، وفي ظل أسرة مفككة وعلاقة زوجية تتحسن وتسوء، نبتت نبتة في صحراء حياته...حين وَلَدَتْ له زوجته طفلة.

لم ينتظر سمير تدخُّل المعلم في تسمية أبنائه هذه المرة، بل كان قد حضَّر لها اسماً من يومِ علم، أثناء حمل أمها بها، أنها أنثى...سماها: «إيناس». كانت هذه التسمية تُعَبر عما يفتقده في حياته، وعن حالَة الوَحشة التي يعيشها.

إيناس هذه ستكون علامةً فارقةً في حياة سمير. لماذا يا تُرى؟

وكيف سلبت قلب أبيها وأنعشت حياته من جديد؟

فلنتابع...

زهرة نبتت في الصحراء
إيناس (١٣)

إيناس...تَعلَّقَ بها قلب سمير، وانقذف فيه حُب لها لم يشعر بمثلِه تجاه ولَديه السابقين، بل ولا تجاه أي إنسان...

أعادت ولادة إيناس شيئًا من الرحمة والحنان بين الزوجين، وأصبح سمير يبكر في عودته من العمل ليرى إيناس[١].

لم يكن وحده كذلك، بل الكل أحب إيناس: أبو عزام وزوجته سوزان، وأشرف و صادق والخادمة في الفيلا...حتى إن سميراً - من فرحته بها - دعا إخوته إلى بيته لأول مرة من سنوات ليشاركوه الفرحة! ولبَّوا دعوته وأحسوا تجاهها لأول مرة أن أحداً من طرف سمير جزءٌ منهم!

بدأت الصغيرة تكبر ومحبة سمير لها تكبر يومًا بعد يوم... كانت إيناس كالعِرق الأخضر الذي ينبت من شجرةٍ جافة متخشبة ظنَّ الناظر من قبلُ أنها ماتت...هكذا كانت من سمير، وهكذا كانت في حياة سمير.

بيضاء، بنية الشعر و العينين، كأن براءة الأطفال كلِّهمْ تجمعت في وجهها و ابتسامتها...إذا سُؤلَتْ: (ما اسمك؟) تُثنِّي رأسها بخجلٍ مُتَواريتةً وراء أبيها وتجيب بصوت خافت: (إيناس).

في الرابعة من عمرها بدأ أبوها يصطحبها معه إلى العمل كلما أحس

(١) أتعمد هنا وفي مواضع أخرى ألا أكتب «إيناسًا» مع علمي بأنه الصحيح لغة، لكن لأن اسمها دون تنوين الفتح أقرب للنفس في هذه السياقات.

أنه لا يستطيع أن يفارقها! لا يراها أحدٌ إلا أحبها! تخترق القلوب بلا استئذان...حتى زهير، عدو سمير اللدود، كان يبتسم لها لا شعورياً، فتبتسم له، وفي لحظات انشغال أبيها عنها يكلمها، أو يعطيها قطعة حلوى.

كان عمها الدكتور أمجد قد رُزق بمولودة (فاطمة) هي الآن في عمر إيناس (أربع سنوات) واشترى لكلٍّ منهما دمية بحجمها، بيضاء بُنية العينين أيضاً.

ملكت إيناس قلب سمير...وأعادت الحياة إلى بيته الجاف...تأتي في الصباح وقد استيقظت من نومها، معانقةً لدميتها، وتفاجىء أباها المنشغل بجهاز اللاب توب، فتقف أمامه تنتظر منه الترحيب والحفاوة المعتادة، بابتسامتها الخلابة ووجهها المنير بأشعة الشمس المتسللة من النافذة. إمساكها لدميتها بهذا الشكل كان يشعره بالإشفاق على ابنته وحاجتها إليه وإلى عاطفته، فيترك جهازه جانباً ويعانقها:

- «أهلاً أهلاً يا حياتي، أهلاً يا أُنُّوس»، ويبقى معانقاً لها يقبلها ويمرر يده على شعرها بضع دقائق تشحنه بالحياة لذلك اليوم.

يقوم سمير من فطوره متوجهاً إلى غرفة المكتب في الفيلا لينجز بعض الأعمال قبل الخروج إلى معرض السيارات، فتقف إيناس على باب المكتب فاتحةً يديها ورجليها لتسد الباب:

- «ممنوع...تعال العب معي»....

يتبسم سمير ويتمنى لو يستطيع أن يشق قلبه ليضع إيناساً فيه!

- «يا حبيبتي علي شغل»...

- «شغل شغل شغل! خلص...راح تلعب معي»....

إذا طال غيابه عنها في البيت تأتي إليه في المكتب:

- «باب تعال اقرأ لي قصة»...

- «طيب بابا، بعد خمس دقائق»...

- «راح أعدّ لك خمس دآقق ثم آتي...ماشي؟»...

- «هههه...اسمها دقاااائق، دقاااائق، وليس دآقق»...

فتحاول إيناس:

- «داآآآئق، داآآآئق...ستأتي بعد خمس دآقق..صح؟»..

- «إن شاء الله يا حبيبتي»...

تذهب إيناس:

- «صادق، لما تمر خمس دآقق أخبرني»...

يضحك صادق...

كل فترة قصيرة تسأل إيناس صادقًا:

- «مرت الخمس دآقق؟»...

- «ليس بعد»...

- «آآآآه»...تكتف إيناس يديها مُتَبَرِّمة من طول المدة التي أجلها إليها أبوها..

- «إيناس...ها قد مرت الخمس دآآآقق»...

تُسرع إيناس إلى مكتب سمير:

- «هيا، تعال اقرأ لي قصة»...

- «شوي يا حبيبتي»...

- «لأ! ممنوع...تعال»...لم تكن «تطلب» حقها من أبيها كما كان أشرف يفعل من قبل، بل كانت تفرض نفسها على سمير فرضاً...يقوم سمير مرغماً، يحمل إيناساً بين يديه ويرفعها ويقبلها وهي تضحك منتشية بهذا الانتصار...

أشرف، ابن الرابعة عشرة، كان خارجاً عن السيطرة، ولم يعد يطلب من والدَيه الاهتمام، بل وقلما يستجيب لهما إذا طلبا منه أن يجلس أو يخرج معهما. ويمضي معظم وقته على الأجهزة الإلكترونية أو مع أصدقائه.

أما صادق، ابن الحادية عشرة، فقد تعافى من صعوبات التعلم، ولا زال يخرج مع والديه وإيناس في بعض النزهات والرحلات....وعندما يلاحظ سمير أن صادقاً ينظر إليه وهو يلاعب إيناساً، «يتكلَّفُ» له سمير بعض الاهتمام والملاعبة.

مر عام آخر من عمر هذه الوردة وجمال حركاتها يزداد... تنثر قطع الـPuzzle على أرض غرفة المعيشة ثم تذهب لتُحضر صادقاً من غرفته، وحنانا من غرفتها، وسميراً من مكتبه، تسحب كل واحد من يده سحباً...ليجلسوا جميعاً على الأرض ويُرَكبوا قطع الـPuzzle...

كانت كأنها هي التي تربي والدَيها وتنزعهما من الانهماك في دوامة الحياة ليمارسا «إنسانيتهما» معها!

تأتي إلى أبيها مساء وهو منهمك في حساباته، تمشي على رؤوس أصابع قدميها لئلا يحس بها...حتى تقف أمامه...يرفع عينيه من اللابتوب، فإذا

بها تحمل له صحنـًا فيه شرائح التفاح والبرتقال والإجاص..والألذ من هذا كله ابتسامتها المعبرة عن التحبب والشعور بالإنجاز...

دخلت إيناسُ الروضة...تحصيل جيد وانسجام مع زملائها ومدرساتها، ومحبوبة من الجميع...لكن في نهايات الفصل الثاني أخبرت المديرةُ والدة إيناس بأنها أصبح يلاحَظ عليها شرود الذهن أحيانـًا لبضع ثوانٍ مع رمشةٍ سريعة لعينيها وكأنها ليست في وعيها. خاف سمير وفكر في طبيب أعصاب مناسب: «أخي أمجد، طبيب أعصاب معروف، وسيهتم بإيناس»...

كان أمجد قد تخصص في طب الأعصاب، وأنجبت له زوجته جُمان كلَّاً من «زينب» ذات الأحد عشر عامـًا، و«فاطمة» ذات الستة أعوام-من سن إيناس، و«عمر»، ذي العامين. أُسْرَة هنيئة متحابة...لم يكن أمجد موفقـًا في تخصصه فحسب، بل كان طيب النفس، عميق الإيمان، رقيق القلب شفوقـًا، يستفيد مرضاه من ابتسامته وكلماته الحانية لأبدانهم وأرواحهم كما يستفيدون من تشخيصه الدقيق والدواء الذي يصفه، وكان يعقد إلى جانب عمله في عيادته دوراتٍ في التربية العلمية الإيمانية للشباب، والتحصين ضد الأفكار الهدامة والشبهات...يراه طلابه قدوة ويتمنون أن يكونوا مثله في الدين والدنيا. وفي ذلك كله يحس وكأنه يقتات طوال هذه السنوات على بركات دعوات أمه له.

من فترة لم يرَ أمجد إيناسـًا....من يوم زارها وأهدى لها الدمية... حتى في الأعياد السابقة كان سمير مسافراً أحيانـًا و يتشاغل عن اللقاء بإخوته أحيانـًا...دخل سمير وإيناس من قاعة الانتظار إلى غرفة أمجد....

- «أهلاً أهلاً أهلاً أنوس»...

رفعها أمجد وقبَّلها وأجلسها على سرير التشخيص...نظر فيها بضع ثوانٍ...

- «أنت تشبهين أمي يا بنت!»...

ابتسمت إيناس ابتسامتها الخلابة....

- «ما شاء الله! الله يحفظك»...

التفت إلى سمير:

- «خيراً يا سمير؟»..

أخبره سمير بالأعراض التي وردتهم من المَدرسة....فأرسلها أمجد لعمل تخطيط دماغ، وبعد تأمُّل في النتيجة قال لسمير:

- «هذا نوع من الشحنات الدماغية الزائدة، لا يخيف، وسيتلاشى فيما بعد بإذن الله. حتى ذلك الحين استمروا في إعطائها هذا الدواء»، واستخرج علبة دواء من خزانة العيادة.

قلق سمير وبدأ يسأل عن مرض ابنته أسئلة كثيرة. فوجد أمجد الفرصة مناسبة وقال له:

- «لا تَخَفْ، لكن أُفضل أن يكون حول إيناس في المدرسة أحد أقربائها معها دائمًا...ما رأيك يا سمير أن تنقل إيناسًا لمَدرسة فاطمة السنة القادمة؟ لأبقى أسأل فاطمة عن ملاحظاتها...وبإمكاني أن أُرجعهما أحيانًا من المدرسة، فتكون فرصة لأتابع وضعها...ما رأيك؟»...

كان أمجد يريد أن يحيط هذه النُّوارة ببيئة صالحةٍ قدر الإمكان،

فحرص على علاقة وطيدة بينها وبين فاطمة.

لم يتردد سمير ما دام في ذلك مصلحة لإيناس...جاء موعد التسجيل وتدخلت سوزان أم حنان رافضة تسجيل حفيدتها في هذه المدرسة:

- «هذه مدرسة عادية...إيناس يجب أن تذهب إلى مدارس الطبقة المرموقة». أصر سمير وأنفَذ رغبته هذه المرة، فلا شيء عنده يعدل صحة إيناس.

ماذا سيحصل مع أشرف؟

وكيف سيؤثر ذلك على حياة عائلته؟

فلنتابع....

أين أشرف؟
إيناس (١٤)

أشرف، أخو إيناس الأكبر، في السادسة عشرة الآن...خرج عن سيطرة والدَيه تماماً...وبدأ يتسبب لهما بالكثير من الإحراج بسلوكياته السيئة...كان الأبوان يحصدان ثمار سنوات من الإهمال لأشرف. لم يجد عندهما رعاية وعطفاً، فوجد الولد الاهتمام عند رفقاء السوء وعند معارف خاله الأصغر.

أراد الزوجان تدارُكَ الأمر مع صادق، ذي الثلاثة عشر عاماً...لكنهما لم يتحليا بالصبر ولا بالاهتمام الحقيقي بالتواصل الفعال مع صادق:

- «درِّس ابنكَ»...

- «دَرِّسيه أنتِ، أنا مشغول»...

- «وأنا مشغولة وتعبانة»...

- «بماذا مشغولة؟! لديك خادمة، يكفيني اعتنائي بمصالح أبيك»...

ويبدأ الجدال على كلمة «أبيك»!

في العطلة:

- «خذ معك صادقاً إلى العمل، سيَمَلُّ ويُغَلبني»...

- «لا شيء يعمله في المكتب. سيمل أيضاً. خذيه وسجليه في نادي كاراتيه».

أدركا أنه «يجب» إعطاء صادق مزيداً من الاهتمام، لكنهما اختلفا

فيمن «يجب» أن يتولى هذه المهمة.

المصيبة أن هذا الجدال كان يتم أمام صادق أو على مسمعٍ منه، فتصله الرسالة المؤلمة:

- «والداي يهتمان بإيناس لأنهما يُحبانها ويستمتعان بقضاء الأوقات معها، بينما أنا يريدان أن يهتمَّا بي لأنه «يجب» أن يهتما، وكلٌّ منهما يرمي هذا «الواجب» على الآخر!».

لم ينفع هذا «الاهتمام» المتكلَّف حتى وإن كان أحد الزوجين في النهاية يتولى هذا «الواجب الثقيل»، وازداد صادق بعداً عنهما مع الأيام.

الطيُّوبة إيناس كانت تلاحظ تفريق والديها في المعاملة بينها وبين صادق، فلا ترضى ذلك لأخيها الذي تحبه...على مائدة الطعام يضع أبوها في فمها لقمة: «إيناس حبيبة قلبي»...

فتقول:

- «وصادق أيضاً، صَحّ بابا؟»...

- «إممم، طبعاً طبعاً،وصادق، لكن عليه أن يسمع الكلام».

يقول لها أبوها يوماً:

- «إذا أتيتِ بعلامات عالية يا أنوس سأحضر لك أجمل هدية»...

فتقول متبسمة:

- «وصادق أيضاً...صَحّ؟»....

- «إممم، صادق علاماته غير جيدة..لو أنه كان يهتم بدراسته لأحضرت له أحلى هدية»..

فتقول إيناس:

- «سيدرُس ويأتي بعلامات عالية وتحضر له هدية...صح يا صادق؟»...ويسكت صادق متألماً.

تذكر سمير أن أخته تالة تعقد دورات في التربية، اتصل بها طالباً المساعدة بنصائح حول تربية صادق و«استعادة» أشرف...زارته تالة، وجلست معه ومع حنان ساعتين تشرح لهما وتنصحهما، وبينت لهما أن إحداث التغيير سيتطلب وقتاً...

بدآ يطبقان بعض هذه النصائح...كان تجاوُب صادق معهما ضعيفاً...وما هي إلا أيام حتى ملَّا وعادا إلى طرقهما الخاطئة في التعامل معه وتنفيره عنهما.

بدأ كلٌّ منهما يلقي تبعات الفشل في تربية الولدَين على الآخر.... يحدث الجدال أحياناً وإيناس بين والديها جالسة، يبدأ قلبها الصغير يخفق بسرعة، تختفي ابتسامتها ويظهر عليها القلق...ينتهي الجدال وكلٌّ منهما ساكت بغضب..تنظر إيناس إلى أبيها تارة وإلى أمها تارة، ثم تسحب يد كلٍّ منهما بإحدى يديها الصغيرتين وتشبك يديهما ببعضهما.. عيناها تقولان لهما أكثر مما يعبَّر عنه باللسان: «أرجوكما، اصطلحا...لا تجعلاني أفقد الأمان.. أحبكما وأريدكما أن تُحبا بعضكما.. مودةُ بينكما هي السرير الذي عليه أنام»...

كانا يلاحظان ذلك فيخففان حدة الموقف ويختمان بكلمات مختصرة مع ملامح جامدة...

على الرغم من تكرر مثل هذه المواقف، لم يكن شيء ليكسر روح

إيناس المرحة ونفسها الطيبة...لكن بيئة الفيلا أصبحت مزعجة وجافة...

تعلمت إيناس القراءة، ومع ذلك كانت تطلب من أبيها أن يرافقها لمكتبة البيت ليقرأ لها قصة....وإذا نسي، مع انشغال ذهنه، أن يُطَوِّقها بيده ويضمها إلى صدره، أمسكت هي بيده ولفتها حول نفسها...

أمجد أصبح أحيانًا يتصل بسمير:

- «أخذت إيناسًا وفاطمة من المدرسة....سأمر بهما على بيتنا لتلعبا قليلاً إلى أن تمر أنت لتأخذ أنوس في المساء...تمام؟»..

- «تمام»...

كان سمير لا يمانع لأن إيناسًا متعلقةٌ بفاطمة ولأنه يعلم أن هذا متنفس لها يكسر جمود أيامها في جو الفيلا الجاف....وحنان تعترض أحيانًا وتسكت أحيانًا لتستمتع ببعض الوقت، خاصة وأن زينبَ، ابنة أمجد الكبرى، كانت تتطوع بتدريس إيناس أحيانًا فتأخذ هذه المهمة عن حنان.

الذي يرى كثرة المراجعين في عيادة أمجد سيظنه يسكن في قصر فخم، ولم يكن كذلك..فقد كان أمجد طبيبًا رحيمًا، مُتعته في أن يرسم البسمة على وجوه مرضاه بتخفيف معاناتهم.. وحين يسمع أدعية الفقراء منهم وهو يعطيهم دواء من خزانته ويرفض أخذ مقابل منهم ككشفية، يشعر بالسعادة والطمأنينة أكثر مما لو أعطوه.. كان بيته واسعًا بعض الشيء، قليل الزخارف، مريح الأثاث دون تَرَف، مع حديقة متوسطة المساحة. ومع ذلك فقد كان هذا البيت أرحب بكثير في حس إيناس من الفيلا التي تسكنها مع عائلتها المفككة.

يُسمع الأذان في بيت أمجد فيقومون تباعاً ليتوضؤوا ثم يصلون جماعة....وقد تعودت إيناس على هذا فكانت تقوم تصلي معهم بعد أن تعطيها فاطمة طقم صلاة من عندها.

تعود إيناس إلى الفيلا برفقة أبيها...تسمع الأذان...«بابا، ماما، هيا نصلي معاً»...كان سمير وحنان قد أهملا الصلاة بشكل شبه كامل في السنوات الماضية، إلا صلاة الجمعة التي كان سمير لا يزال يصليها. كان سمير وحنان مسرورين بأن ابنتهما تصلي، ويريدان لها أن تكون أحسن منهما في دينها.

لم يكن في الفيلا، بكل ما فيها مِن تَرَفِيَّاتٍ مادية، أجمل من منظر إيناس عندما تضع كرسيها الطفولي عند المغسلة ثم تشمر عن ساعديها وتتوضأ، ثم تلبس ملابس الصلاة البيضاء التي أعطتها إياها فاطمة.

تأثر أبواها بمنظرها الجميل، تجاوبا معها بضعة مرات وصلوا جميعاً...ثم عادا يتراخيان ويؤجلان ويتهربان...

- «بابا، لماذا لم تعد تصلي؟»

- «سأصلي يا حبيبتي، سأصلي عندا أنتهي مما بيدي»...ثم لا يصلي سمير...

تكرَّر أن تستيقظ إيناس للفجر على المنبه الذي أهدتها إياه فاطمة، تذهب لغرفة والدَيها:

- «بابا، ماما...الصلاة، تعالوا نصلي مع بعضنا»...يرفع سمير رأسه قائلاً:

- «طيب حبيبتي، شوي»...ثم يعود ليغط في نوم عميق...أما حنان فلا تصحو أصلاً!

أخوها صادق...قلدها بضع مرات، ثم تكاسل...

كانت إيناس تكاد أن تتكاسل هي الأخرى، لكن تكرار زيارتها لبيت عمها أمجد كان عميق الأثر فيها يجدد همتها كلما فترت.

سوق السيارات المستعملة بدأ يتراجع، فتضاءلت أرباح المعرض... تدخَّل أبو عزام، ودبَّر «خبيراً» في التلاعب بعدادات السيارات لتُباع على أنها قليلة الاستعمال وبأسعار منخفضة! لم يتدخل سمير، فقد كان تعود على الغش، بالإضافة إلى ضعفه أمام أبي عزام وإخفاقه في حل مشاكل العديد من استثماراته، وكذلك لأن الكفة بدأت ترجح لصالح زهير في المنافَسة بينهما، فلا يريد مزيداً من «الهزائم»...كل هذا أسكته عن الغش الفاحش.

إيناس الآن في الثامنة من عمرها، مرَّ عامان على بدء علاجها، وكانت النوبات قد توقفت تماماً من بدايات العلاج....جرب الدكتور أمجد أن يقطع علاج إيناس بالتدريج، فوجد أن حالتها مستقرة دون علاج.

فرح سمير كثيراً بهذا الخبر: «شفاء إيناس». لكن ما هي إلا أيام وتأتيه مكالمة صادمة!:

ابنه الكبير أشرف ذو الثمانية عشر عاماً ألقي القبض عليه متهماً بترويج المخدرات!....

أسرع سمير إلى السجن...كان أشرف منهاراً:

- «والله يا أبي ما روَّجت...تعاطيت نعم، لكن ما روجت...أصحابي

هم الذين «لبَّسوني» التهمة واعترفوا عليَّ بالكذب ليُنَجُّوا عماداً المُرَوج الحقيقي»...

- «يا خايب! ترويج ولَّا تعاطي...كله أخزى من بعض...ما الذي دفعك لهذا؟! ما الفضيحة التي جررتها علينا؟!»

خرج سمير من زيارة ابنه واتصل بمحامٍ، والذي أخبره أن هذه التهمة تعني السجن لثلاث سنوات...

كان خبراً صادماً للجميع، وإن لم يكن مستغرباً من شاب يعاني فراغاً روحياً كبيراً...

بكت إيناس طويلاً عندما فهمت ما حدث لأخيها وأنه قد يغيب عن البيت سنوات.

قال المحامي لسمير أنه سيحاول تحصيل الحكم لأشرف بالبراءة من القضية، وطلب من سمير عشرة آلاف دينار، فوافق سمير...

تعكَّر جو البيت....كلٌّ من سمير وحنان يلقي باللوم على الآخر في ضياع أشرف. ومع ذلك، كان على العائلة أن تخفي هذا الخبر الأليم ويتصرف الزوجان بشكل اعتيادي أمام الناس...فأبو عزام قد دعا معارفه إلى «عيد ميلاده» الثامن والستين بعد أسبوع، ولا يريد أن يعكر هذا الخبر على حفلته!

ذهب سمير وحنان وصادق وإيناس إلى حفلة «عيد ميلاد» أبي عزام، والتي جمعت شركاء العمل وكبار الزبائن وموظفي مصالح أبي عزام وغيره مع عائلاتهم.

زياد (ابن السكرتير زهير) كان يعرف ما جرى لأشرف، فأراد إحراج

خصم أبيه بالضرب على هذا الجرح الملتهب في بداية الحفلة...فقال لشباب حاضرين من جيل أشرف يعرفونه من قبل:

- «غريب! أين أشرف؟ اسألوا أباه عنه»...

جاء اثنان منهم إلى الطاولة التي عليها عائلة سمير:

- «عمي أبا أشرف، أين أشرف؟ لماذا ليس معكم؟»...

كانت لحظة شديدة الإحراج، كأن كلمة «أشرف» سكين يطعن في سمير كلما سمعها!

- «هناك مشكلة خفيفة»...

- «ما هي؟»

- «شيء مش مهم»..ثم تشاغل سمير عن الشابين بالموبايل...كان سمير يفكر في هذا «الخِزي» أكثر مما يفكر في معنى أنه «خسر ابنه»!: «وضع أشرف سيؤثر على سمعتي»، «ماذا سيقول المعارف عني وعن تربيتي؟»، «هل سيؤثر ذلك على تجارتي؟»!

بدأت فقرات الحفل: تعارُف، طعام، غناء، مسابقات، فقرات ضاحكة...وسمير وحنان يتصنعان الابتسامات بصعوبة!

بعد انتهاء الحفل وفي طريق العودة إلى الفيلا، بدأ سمير يلقي على صادق النصائح والمواعظ: «يا صادق انظر كيف تسبب لنا أشرف بالخزي!...لا تصاحب الشباب الهمل...لا ترافق خالك...لا تفعل كذا ولا تفعل كذا»...

وصادق في هذا كله ساكت...عرف صادق أن دافع أبيه لذلك صورته هو، يعني «صورة سمير» أمام الناس: «أبي يخاف أن أخزيه كما

أخزاه أشرف، لا أنه حريصٌ عليَّ لأجلي... لا يهتم أبي بحاجاتي النفسية كشابٍّ يافع في الخامسة عشرة من عمري... كما أن نفسيتي من الداخل لا تهمه فصورته هو لا تهمني!».

وبقي تعامل صادق مع أبيه جافاً بعدها، يتهرب من الجلوس معه وسماع نصائحه المتكلَّفة، ويمضي أكثر وقته مع الأصحاب...

وبقي سمير على أعصابه، يخاف أن يسمع يوماً عن صادقٍ ما «يخزيه»، بالإضافة إلى إحساسه بالوحشة من نفور ابنه عنه.

كان سمير وحنان يزوران أشرف في السجن...وكان أشرف حريصاً على رؤية أبيه وأمه، يريد أن يسمع كلمة طمْأَنة أو أمل. أمضى الوالدان الزيارات الأولى بعتاب أشرف ولومه على هذا الانحراف...ثم أصبحا ينقلان إليه آخر ما يقوله المحامي بخصوص قضيته، ويؤملانه بالخروج خلال الأسابيع أو الأشهر القادمة...

هل سيحصل المحامي حكماً لأشرف بالبراءة؟

وما الأمر الذي سيجعل حناناً تمانع من ذهاب إيناس لبيت عمها أمجد؟

وما الخطأ الفادح الذي ارتكبه سمير في لحظةٍ من انعدام الإرادة أمام أبي عزام؟

وما الكلمة التي سيقولها ابو عزام لسمير لينبش بها ذكرياتٍ مر عليها أكثر من عشرين عاماً ؟

فلنتابع...

العذاب بالنعيم!
إيناس (١٥)

بعد ستة شهور من مشكلة أشرف، وبعدما أوصل أمجد فاطمة وإيناسًا إلى بيته وانطلق إلى عيادته ريثما يأتي سمير ليأخذ إيناسًا في المساء، قالت إيناس لزينب أخت فاطمة الكبرى:

- «هاتي الموبايل»....

- «لماذا؟»...

- «سأُسمعك أغنية جميلة اسمها لحن الخلود لفرقة كورية، ماما تسمعها كثيرا وأنا أحبها»...

كان هذا النقاش على مسمع من جُمان زوجة أمجد، وكانت قرأَتْ عن هذه الأغاني وتوظيفها العاطفي والعقدي..فقالت لإيناس:

- «حبيبتي...تحبين الله ورسوله؟»

- «طبعًا خالتو»

- «الله أخبرنا عن جنة يدخلها أهل الإيمان والحق، ونارٍ يدخلها أهل الباطل...هؤلاء المغنون يعكسون هذه الحقائق في أغانيهم لأنهم لا يؤمنون بالله ورسوله».

لم تفهم إيناس تمامًا معنى الكلام لكنها قالت:

- «يعني حرام اسمع لهم؟»

- «نعم يا حبيبتي حرام»

- «هذا الرقص الذي يرقصونه بحضور الشباب والفتيات بهذا الشكل...هل تظنين أن الله يرضاه؟»

- «لا»...

- «لذلك لا تسمعيه يا حبيبتي»...

عادت إيناس ذلك اليوم...فاتجهت لأمها:

- «ماما، خالتو جمان أخبرتني أنه حرام نسمع أغنية لحن الخلود»...

«حرام» كلمة ما كانت تقال في الفيلا أصلاً....فاستُفزت حنان!

سكتت ولم تعلق...ثم ذهبت لغرفة سمير:

- «لا يعجبني كثرة ذهاب إيناس لبيت عمها»

- «هي تستفيد هناك وتلعب مع فاطمة».

- «هم مختلفون عنا...إيناس بدأت تتاثر بهم بشكل مبالَغ فيه...لا يضايقني أن تصلي إيناس، بل ولا أن تطلب منا أن نصلي...أنا لستُ ضد الدين...لكنها بدأت تتدخل فيَّ».

بعد جدال، أصرت حنان على منع إيناس من الذهاب إلى بيت عمها...وأصبحت تتعمد أن تذهب لتأخذها من المدرسة لئلا يأخذها عمها...

- «ماما دعيني أذهب لبيت عمي»...

- «لأ ماما عليك دراسة»

- «أدرس مع فاطمة»

- «لا داعي ماما، هكذا نُثقل على دار عمك»

- «بالعكس، هم يحبون وجودي معهم»

- «هذا ليس بيتك ماما، أنتِ لك عائلتك وبيتك».

لجأت إيناس إلى أبيها ليتدخل، لكنه كان على أعصابه:

- «بابا، لا أريد نقاش أمك في هذا الموضوع الآن...أنا الآن أفكر في جلسة غدٍ، والتي سيتم فيها إصدار الحكم النهائي بخصوص أخيك أشرف».

ذهب سمير لجلسة المحكمة في اليوم التالي، كانت قضية أشرف واحدة من عشر قضايا سيصدر القرار فيها، وكان سمير يشعر بالخزي الشديد وهو جالس في القاعة يرى نوعية القضايا التي يُحكم فيها، لكنه كان يؤمل أن يخرج أشرف براءة ويطوى هذا الملف...خاصة وأن المحامي أكَّد له أنه سعى في كل اتجاه...

وأخيراً جاء دور أشرف، حَبَسَ سمير أنفاسه وهو يسمع الحكم...

حُكم على أشرف بالسجن ثلاثة أعوام!

صُدم سمير!

- «أين وعود المحامي؟! أين العشرة آلاف التي دفعتها؟!»

تعذر المحامي بأنه حاول بكل استطاعته لكن «المحكمة شادَّة مؤخراً».

خرج سمير من المحكمة وحنان ترن عليه المرة تلو المرة وهو يفصل الخط.

وصل البيت والحُكم على أشرف يُقرأ من وجهه! خافت حنان..

- «هل حُكم عليه؟»

- «السجن ثلاثَ سنوات»

شهقت حنان...«لماذا»؟!

نظر إليها نظرة فيها غضب وإلقاء لِلَّوم عليها...فعادا يتلاومان ويلقي كلٌّ بالمسؤولية على الآخر...ولم يهدئ من هذا التوتر إلا عودة صادق وإيناس من المدرسة...

أشرف كان بحاجة إلى دعمٍ نفسيٍّ وإيقاظٍ إيماني...وكان ينتظر زيارة والدَيه....لكنه لم يجد ما يحتاجه عند أيٍّ منهما، ففاقد الشيء لا يعطيه! لا يُتَوقع من سمير أن يُعلم ابنه الصبرَ وسمير نفسه فاقد للصبر، ولا يُتَوقع من سمير أن يعلم ابنه ضرورةَ مراجعة حساباته وتصويب علاقته بالله وسمير أحوج الناس أصلاً إلى هذه المعاني! وإنما كانت زيارات والدَيه له تمضي بأسئلة روتينية مكررة عما إذا كان أشرف يحتاج شيئًا، كالمال والملابس، وعن طبيعة الطعام الذي يأكله ووضعه الصحي...حتى أحس أشرف أنه في «مزرعة دواجن» كالتي يشارك أبوه في إدارتها!... ملَّ أشرف، وأصبح يتلكأ عن الخروج لمقابلتهما، إلا إذا أُخبر أن معهما فتاةً صغيرة في التاسعة من عمرها... إنها إيناس! كان أشرف يحب رؤيتها لأنها أصدق شيء في حياته... يتجهز سريعًا إذا سمع بقدومها...ينظر إليها وتنظر إليه بصمت يستمر فترة، وفي عيني كلٍّ منهما دمعةٌ محبوسة، ثم تَكْسر إيناس هذا الصمت بعبارات مثل: «أدعو لك في صلاتي». كانت عباراتٍ تعني لأشرف الكثير وتُشعره بشيء من الطمأنينة.

افتقد أمجد وعائلته إيناسـًا، لكنه شُغل بعدها بالسفر، حيث يعمل بشكل تطوعي لدى منظمة طبية دولية، فيسافر لبلدان مسلمة تتعرض لجوائح ليعالج المرضى ويترك وراءه في عيادته طبيبًا مساعداً...مستحضراً مبدأ الأمة الواحدة ومحاولاً أن يقدم لها ما يستطيع من عون.

بدأ سمير يحصد ثمار السيارات المستعملة الملعوب بعداداتها... الزبائن يشتكُون...غير معقول أن تظهر هذه الأعطال في سيارة استُعملت لهذه المسافات المحدودة! اشتد الخلاف بين أحدهم وسمير، وكان رجلاً «شَرَّانيـًا »، فهاجم مع شقيقه معرض السيارات ليلاً، أضرما فيه النيران وأوقعا أضراراً جسيمة بعدد كبير من السيارات! ولم يكن لدى سمير دليلٌ على الفاعل...خسارة كبيرة، طلب سمير من المعلم أبي عزام على إثْرها أن يَضُخ بعض المال في المعرض ليعوض السيارات التالفة بأخرى يستوردونها...رفض المْعلم بحجة مصلحة اسثماراته الأخرى. فاضطر سمير إلى سحب ربع مليون دينار، معظم رصيده البنكي، ليشتري سيارات بديلة.

«لكن لحظة...هذه السيارات ستُنقل إلى ملكية مَن؟ طوال الأعوام الماضية كنت أعمل برأس مالٍ من أبي عزام، وأكتب السيارات باسم المعرض، وأتقاسم الأرباح مع أبي عزام. الآن سأساهم في المعرض بمالي، هذه السيارات من مالي أنا وحدي. هذه فرصة لأطالب أبا عزام بتسجيل المعرض كشركة بيني وبينه، بل ولأطالبه بمقابلٍ واضح على جهدي في الاستثمارات الأخرى. حتى وإن شُغلتُ عنها جزئيًا في السنوات الماضية ولم أطورها بالسرعة التي تمناها المعلم، فتبقى الحقيقة أني كرست حياتي للمعرض ولمصالح أبي عزام وحللت له مشاكل عالقة

وجلبت له أرباحاً كبيرة».

ذهب سمير لمكتب المعلم ولمَّح لموضوع الشراكة في المعرض. نظر إليه المُعلم نظرةً حازمةً فيها شيء من الاحتقار وقال:

- «السيارات التي تستوردها بمالك تُسجَّل باسم المعرض ولك من أرباحها نسبة ٧٠٪ وفي النهاية حقك محفوظ، لكن لا نريد خربطة»...

«باسم المعرض» تعني «باسم أبي عزام»! «حقك محفوظ»...لا يفهم سمير كيف هو محفوظ؟! متى سيسترد ثمن هذه السيارات؟ لا شيء على الورق...فقط إسكاتٌ له بزيادة نسبته في هذه السيارات! أحس سمير بالضعف أمام المعلم وهو مغمور في «أفضاله»، فسُد عليه الطريق ولم يتكلم! ومرت لحظة تسجيل السيارات باسم المعرض على سمير وهو كالمخدَّر المستسلم، وهي لحظة سيفكر فيها ويُذهل من موقفه فيها لاحقاً!

استأجر سمير حارساً ليلياً للمعرض خوف تكرار الهجوم عليه، ومع ذلك بقي في خوف وقلق، حتى أصبح يستيقظ فزعاً بعض الليالي على أحلام مزعجة متعلقة بالمعرض! بل وتكرر أن ينتفض من سريره في منتصف الليل ويركب سيارته وينطلق للاطمئنان على المعرض!

زار طبيباً نفسياً، فكتب له علاجات لتقليل القلق وتحسين النوم...

أحس سمير أنه يجمع المال ليضيع! أنفق من قبلُ على علاج صادق من آثار إهمال والدَيه، ثم على محامي أشرف، والآن على علاجه هو نفسه، وعلى السيارات التي اشتراها لتُكتب باسم «المعرض»....

لقد وصل سمير مرحلة يتعذب فيها بالنعم! أصبح ماله وولداه

مصدر عذابٍ له! تَعَبٌ في تحصيل المال، وخوفٌ على ضياعه، خِزيٌ من أشرف، قلقٌ من مستقبل صادق، وجفاءٌ من تعاملهما معه.

المودة بينه وبين زوجته حنان تلاشت في الشهور الأخيرة مع كثرة المشاكل ومع أعصاب سمير المشدودة ليل نهار....

لم تعد حنان تطيق هذا الوضع...فلجأت إلى أبيها ليضغط على سمير حتى ينفصلا...استدعاه أبو عزام إلى قصره، واحتدم الجدال بين سمير من جهة وحنان ووالدَيها من جهة.

دافع الـمُعلم عن ابنته وألقى بالمسؤولية كلها على سمير. وفي لحظةٍ لا ينساها سمير قال لعمه:

- «أهكذا تنحاز لابنتك بدلاً من أن تحضها على أن تقف بجانب زوجها في ظروفه الصعبة؟! أين الوفاء؟!»

فابتسم الـمُعلم ابتسامة كِبرٍ غاضبة، وأخرج من محيط ذاكرته موقفاً قبل أكثر من عشرين عاماً لم يلقِ له بالاً وقتها وقال:

- «من المضحك أن تسمع عن الوفاء ممن كان يأكل المشاوي ويسمع النُّكَت تاركاً أمه تحتضر»!

صُدم سمير كأنه صُفع على وجهه، وخرج غاضباً بصمت من قصر المعلم وهو يحس بالإهانة الشديدة...

ومع ذلك، قرر سمير وحنان بعدها أن يبقيا تحت سقف بيت واحد من أجل إيناس، إذ لا يطيق أيٌّ منهما البعد عنها لأيام متتالية، وأيضاً للمحافظة على «البرستيج» أمام المعارف.

كان عذاباً لسمير أن يرى زوجته التي انعدمت من قلبه أية مودة لها، وأن يضطر لاصطحابها إلى حفلاتِ ومناسباتِ المعارف وتَصَنُّع علاقةٍ عاديةٍ بها أمامهم...حتى أنهما كانا أحياناً ينطلق كلٌّ منهما بسيارته إلى مكانٍ مناسبةٍ ما، ويتواعدان -برسائل الوتساب- للِّقاء على الباب، نفوراً من المرافقة في الطريق! وكان على المسكينة إيناس في كل مرة أن تختار مرافقة أحدهما!

حاولت إيناس مراراً أن تحنن قلب كل منهما على الآخر، لكن الجفوة كانت أعمق...

لم يعد سمير يجد أي حنانٍ من حنان، ولا يتشرف بابنه أشرف، ولا محبة صادقة من صادق! لم يكن في حياته إيناسٌ إلا إيناس!

كانت إيناس هي الانسان الوحيد الذي يحبه سمير بصدقٍ وبعمقٍ، وكان يجد شيئاً من الطمأنينة في أن يحتضنها أو يخرج معها في نزهة. وبخلاف الأولاد الذين يبحثون عن آبائهم ليجدوا عندهم السكينة في لحظات الخوف، كان سمير هو الذي يمشي في الفيلا الكبيرة المُصحرة يبحث عن ابنته بقلقٍ كالطفل، ليحضنها ويستمد منها الشعور بشيء من الطمأنينة!

خلال هذه الشهور، لم تذهب إيناس لبيت عمها أمجد...اتصل أمجد بسمير مراراً طالباً أن يسمح بالمجيء لأخذها لبيته، فالكل مشتاق إليها، لكن سميراً كان مثقلاً بالهموم ولا يريد أن يدخل في أي نقاش مع حنان...كان ما يصبِّر فاطمة وإيناساً أنهما تلتقيان في المدرسة.

بعد انقطاع طويل، التقى سمير بإخوته وأبنائهم في طلبة[1] ابن سعيد (عبد الرحمن)، واصطحب سمير معه إيناس.

كانت أجواءً مباركة بهيجة...عبد الرحمن شاب في السادسة والعشرين من عمره، مشرق الوجه، عليه سمتٌ صالح، قام عندما تمَّت «الطلبة» فقبَّل يد أبيه وتعانقا وفي عيني والده دموع الفرحة بابنه البار الذي ربَّاه ونمَّاه بالمال الحلال.

لم يكن عبد الرحمن وحده كذلك، بل هكذا كانت بيئة إخوة سمير وأولادهم. كان سمير ينظر لعبد الرحمن ويقارنه بابنه أشرف... هنا، أحس سمير بالغيرة من إخوته...هذه المرة ليس لوضعهم المادي والرفاهية الحسية التي يعيشونها، فقد كان سمير وصل رفاهية مثلهم بل وأفضل من بعضهم...

هذه المرة، ولأول مرة، يغار سمير منهم لطيب أجوائهم وطمأنينة نفوسهم وصفاء فرحتهم وصلاح أبنائهم ومودة ما بينهم...وهي الأمور التي كان سمير يفتقدها تماماً.

خرجت إيناس من عند النساء لتعود مع أبيها إلى البيت...المسكينة، كانت منشرحة تبرق ثنايا وجهها، فهذه هي البيئة التي تتعطش لها روحها الطيبة وفطرتها النقية. مشاكل أُسرتها كانت قد استلَّتْ بسمتها البريئة التي ما كانت تفارق وجهها قبل ذلك. الآن، عاد سمير فرأى هذه البسمة على

---

(١) الطلبة اجتماع يضم أهل العروسين ومعارفهم ضمن مراسم معروفة في بعض البلاد، يقوم فيها ممثل عن أهل العريس بإلقاء كلمة عن أهمية الزواج ثم يطلب العروس من أهلها، فيجيب ممثل عن أهل العروس بالقبول. فيقوم العريس يسلم على الحضور فرداً فرداً بادئاً بأبيه.

وجه ابنته...

قالت إيناس في طريق العودة:

- «بابا، عمتي تالة قالت لي أنني أشبه جدتي رحمها الله».

«إيناس تشبه أمي؟» فكر سمير...«أمجد قال هذه الكلمة سابقاً»...

لم يستطع الإجابة عن السؤال لأنه كان قد نسي ملامح أمه إلى حدٍّ ما! آخر عهده بأمه كان أيام يساعدها في ركوب السيارة ليذهب بها أمجد إلى المستشفى، حين كان سمير يقول لها: «سلامتك يمَّا» فلا ترد عليه وتبقى عابسةً منه ولا يلاحظ هو ذلك لأنه منشغل الذهن بتجارة السيارات التي كان قد بدأها آنذاك!

تابعت إيناس:

- «بابا، دعني أذهب إلى بيوت أعمامي أرجوك...أحببتهم وأحببت زوجاتهم وبناتهم، وعمتي تالة كذلك. فاطمة وزينب وخالتو جمان قالوا لي: «أين أنتِ؟ لماذا لم تزورينا من فترة؟»...وفاطمة ترجتني أن أنام عندهم يوماً، وخالتو جمان رحبت بذلك كثيراً».

- «لا أطيق بعدك عني يا حبيبتي».

- «مرةً كل فترة، أرجوك يا بابا».

أشفق سمير على ابنته وعلم أنها وجدت لدى بيئة أعمامها ما تفتقده في الفيلا وفي أسرتها المفككة...وقرَّر أن يهمل اعتراض حنان...فقال لإيناس:

- «طيب بابا، إن شاء الله».

- «الحمد لله»... طارت فتاتنا من الفرح وبدأت ترسم الأحلام ليوم مبيتها عند فاطمة.

عادا إلى الفيلا وبقي سمير يفكر في الساعة التي قضاها في الطُّلبة... الجفاف الذي كان يعيشه أعطاه فرصة للتأمل.

قبل أكثر من عشرين عامًا، زاره أمجد، ونصحه أن يصحو من غفلته فغضب سمير... أرسل له أمجد رسالة، بدأ سمير يتأملها...فنادته عروسه حنان ونسي الموضوع...

الآن: لا حنان!

لأول مرة، يفكر سمير بجدية في تدارك وضعه الإيماني...

ماذا فعل سمير؟

وكيف كانت ردة فعل أبي عزام؟

فلنتابع...

أجمل يوم!
إيناس (١٦)

بعدما عادا من طلبة عبد الرحمن، جلس سمير على الكنبة في مواجهة غروب الشمس في ساعة مباركة من تلك (الجُمُعة)، والتي لم يكن سمير قد شهد صلاتها بالمناسبة مع شدة غفلته مؤخراً!

جلس يضم تحت ذراعه أُنسه الوحيد في الدنيا (إيناس)، والتي كانت تمسك بهدية عمها القديمة، الدمية الشقراء، وتُلبسها على رأسها (يانس)[1] الصلاة ثم تتأملها، ثم تعود تنزع اليانس ثم تُلبس الدمية من جديد وتتأملها. ابتسم سمير لحركات ابنته هذه ولم يتفطن لدلالتها، بل أرسل عينيه مع ألوان السُّحُب عند الغروب و بدأ يفكر...

«حياتي أصحرت... أسرتي مفككة...ابني في السجن...أعمل كالعبد عند أبي عزام...جاوزتُ الأربعين...إلى أين أسير؟ أين المصير؟»

مع اختفاء آخر شعاع للشمس اتَّخَذَ القرار: «سأطلب النصيحة من أمجد»...

أحس سمير براحة عندما عزم على ذلك وتابع في نفسه: «كفاية، تَعِبْت!»

قاطَعَت إيناس هدوءه ومدت دميتها أمام عينيه باليانس وقالت:

- «بابا، قررت أن أسمي لعبتي: هدى».

---

(١) اليانس هو ما تلبسه الفتاة أو المرأة على الجزء العلوي من جسمها للصلاة أو كجزء من الحجاب.

أجاب مبتسماً:

- «اسم جميل».

كانت إيناس تجيد قراءة عيني أبيها، فأحست أنه يعيش لحظةً مختلفة، فقالت:

- «بابا»...وصمتَتْ.

- «نعم يا حياتي».

- «تعال نصلي مع بعض».

لأول مرة من سنوات، لم يتردد سمير في تلبية طلب ابنته!:

- «طيب، تعالي نتوضأ».

قالت إيناس بصوتٍ متهدج:

- «أنا متوضئة».

قال وهو يشمر عن ساعديه:

- «طيب، دقائق، أتوضأ وأعود لك».

كان سمير شارد الذهن، فلم يلاحظ ملامح ابنته في تلك اللحظة... كانت إيناس تبكي وتلتقط أنفاسها من بكائها المتتابع! أخيراً، أبوها سيصلي معها...أخيراً، أبوها يشمر عن ساعديه ليتوضأ...أخيراً، تحس أن الأجواء الإيمانية التي عاشتها في بيت عمها، والتي عاشتها اليوم بين عوائل أعمامها، ستراها أخيراً في أعز الناس عليها: أبيها الذي تحب، وفي هذه الفيلا التي عاشت فيها إيناس لأكثر من عشرة أعوام خاليةً إلا من

مظاهر الترف المادي.

كفكفت إيناس دموعها لئلا يراها والدها، نزعت اليانس عن لعبتها (هدى) ولبسته، لَبِسَتْ معه (تَنُّورة) الصلاة، وفرشت سريعاً سجادتي صلاة لها ولأبيها وجلست تعدل حوافهما...جاء سمير، أقام الصلاة وصلَّيا.

لم ينتظر سمير حتى اليوم التالي، بل اتصل تلك الليلة بأمجد:

- «أمجد، أريد نصيحتك في أمرٍ مهم».

- «خيراً إن شاء الله؟»

- «عندما أراك سأقول لك. غداً صباحاً يناسبك؟».

- «أهلاً وسهلاً...العيادة تبدأ الساعة الثانية عشرة ظهراً. تعال إلى بيتي في أي وقت قبل ذلك، ولا تَنْسَ أن تحضر أَنُّوس معك».

وبالفعل، ذهب سمير ومعه إيناس إلى بيت أمجد في اليوم التالي.

شرح سمير لأخيه كل شيء، ابتداءً بالسيارة الأولى المغشوشة ورسالة مشتريها، ومروراً بعُلُوقِه في رمال أبي عزام المتحركة، ومشاركته لأبي عزام في «التسهيلات» و«التسليكات»، وانتهاءً بوضعه الأسري المفكَّك.

بقي أمجد ساكتاً لا يقاطعه بالمرة....ثم بقي ساكتاً مذهولاً بعد انتهاء سمير من الحديث.

قال له سمير:

- «ما لك؟»

- «متعجب من حلم الله عليك!».

- «طيب أريد حلاً»..

أحس أمجد نفسه أمام تَلَّةٍ من المشاكل تراكمت على مدى أكثر من عشرين عامـًا، فقرر أن يرتب الأولويات ويتابع أخاه ليَحُلوها واحدة واحدة:

- «سمير، ليس هذا مجال تنميق العبارات..بصراحة..أنت واقع في نوع من العبودية للمادة والعبودية للبشر...عبودية باطلة لا يحررك منها إلا العبودية لله رب العالمين الذي خلقك...صَلاتُك هي عنوان تحررك من العبوديات الباطلة وأنت تقف بين يدي الله تعالى وتقول: «إياك نعبد وإياك نستعين»...«إياكَ نعبد»..لا أعبد أحداً غيرك يا رب، ولا أطيع أحداً طاعة مطلَقَةً غيرك يا رب، ولا أَذِلُّ لأحد غيرك يا رب، فمن ذلَّ لك عزَّ في العالمين...هذا التحرر سيكون له تبعات ثقيلة على النفس التي اعتادت على التعلق بالماديات، لذلك أنت تستعين بالله بقولك: «وإياك نستعين». فأول شيء تفعله هو أن تحافظ على صلاتك وتستحضر هذا المعنى وأنت تقرأ الفاتحة»...أُعجب سمير بكلام أخيه ولم يُبْدِ سمير تلكؤاً فتابع أمجد:

- «وفي الوقت ذاته عليك أن تترك أبا عزام وبيئته والعمل معه».

هنا رد سمير على الفور:

- «لا أستطيع يا أمجد! شرحت لك. أموري المادية عالقة معه، أعمل في معرضه، أسكن في الفيلا التي له، كثير من زبائني هم من خلاله... رأس مالي الذي سحبته لأشتري سيارات بدل التي أُحرقت مسجلة باسم معرضه»...لم يذكر سمير لأخيه أنه أيضـًا حريص على علاقاته بـ«الطبقة

المرموقة» التي أدخله أبو عزام إلى عالَمها، وعلى التفخيم الذي يلقاه من إدارة استثمارات أبي عزام، وعلى أسفاره التي يرسله المْعلم فيها لصالح استثماراته.

كانت هذه الأمور كلها لا توفر السعادة ولا الطمأنينة لسمير، لكنه كان يشعر في الوقت ذاته أنه لا يستطيع الاستغناء عنها!

قال أمجد:

- «أنت تريد حَلا، وأنا لا أرى لك حلاً بغير ذلك يا سمير...ستبقى مستعبَداً، ولن تكون صادقاً في قولك: «إياك نعبد وإياك نستعين»... بل تكون تخادع نفسك! أكثر ما آذاك في حياتك قلة الصبر، الصبر على طاعة الله والصبر عن معصيته وعن التَّرَفيات التي تبعدك عن الله لأنَك تعصيه من أجلها. لابد من تطهير كَسبك من كل حرام».

جادل سمير طويلاً...فأبو عزام هو هواؤه الذي يتنفسه، وإن كان مسموماً!

في النهاية قال له أمجد:

- «في أقل الأحوال، تذهب لأبي عزام وتخبره أنك لن تطاوعه في أي أمرٍ محرم، لا ربا، ولا غش، ولا تلاعب بعدادات السيارات، ولا رشاوى، ولا استثمارات محرمة. ليس هذا حلاً جذرياً، وأخاف من بقائك مع هذا الرجل، ولذا فعليك بعد ذلك أن تستقل عنه تدريجياً. لكن ابدأ برفض تنفيذ أي شيء محرم أو مشبوه يطلبه منك».

اقتنع سمير بعدما رأى الحزم في هذا الأمر من أخيه، وقرر أن يقابل المْعلم ليخبره بشروطه الجديدة. هَمَّ سمير بالانصراف، فطلب إحضار

إيناس التي كانت تقضي وقتاً ممتعاً مع فاطمة.

جاءت إيناس:

- «بابا أرجوك، دعني أبيت في بيت عمي الليلة».

- «لا يا بابا، عندك دراسة، وغداً يوم دوام، وليس معك كتبك»..

تدخَّلَتْ فاطمة:

- «يا عمو أرجوك، هي في صفي، وسندرس أنا وإياها من كتبي»..

قال أمجد:

- «وأنا مستعد أن أمُر غداً صباحاً على بيتكم لتأخذ حقيبتها وأوصلهما إلى المدرسة».

- «لكنها لم تستعد لذلك، ليس معها بيجاما ولا فرشاة أسنان».

قالت فاطمة:

- «أنا أعطيها بيجاما من عندي يا عمو...بابا، هل أنت مستعد أن تحضر فرشاة لإيناس؟»

- «طبعاً طبعاً..أحلى فرشاة».

- «خَلَص، حاصَرناك يا عمو».

استسلم سمير وأذن لابنته بالمبيت عند عائلة عمها، فطارت البنتان من الفرح.

قبل أن يغادر قال له أمجد:

- «أخبرني عندما تبلغ حماك بما اتفقنا عليه»...

رد سمير:

- «اترك الموضوع لي».

كان لا يزال في نفس سمير شيء من الكبر، فلم يتقبل فكرة (الرقابة) من أخيه عليه في هذا الأمر، وإن كان اتفق معه على أن يتابعه في الحض على الصلاة. فانطلق من بيت أخيه قاصداً التوجه لمكتب أبي عزام -من دون موعد- ليبلغه بقراره.

كيف أمضت إيناس ذات العشرة أعوام وقتها في بيت عمها أمجد بعد انقطاعٍ لقرابة السنة؟ لقد كان أسعد يوم يمر بها على الإطلاق! كان الكل مبتهجاً محتفلاً بها: عمها الذي بقي معها قليلاً ثم خرج لعيادته، وزوجة عمها جمان، وابنة عمها الكبرى زينب، وهي الآن في الخامسة عشرة، وفاطمة، وعمر، وهو الآن في السادسة من عمره. أحسوا جميعاً أكثر من أي وقت مضى وكأن إيناس واحدة منهم، فردٌ من أفراد أسرتهم...وكانت شخصيتها قد نضجت أكثر خلال سنة الانقطاع هذه... لبِقةٌ في التصرف والحديث، مع كونها اجتماعية «حبَّابة» لا تتكلف.

بدأت زينب بتدريس «أختَيها» إيناس وفاطمة، ثم تناولوا الغداء معاً... إيناس تنقل الأطباق وترتبها وتنظف الطاولة وكأنها واحدة منهم تماماً... بعد الغداء صلَّوا الظهر جميعاً، ثم استخرجوا بعض الألعاب التي أحسوا وكأنها جديدة حين شاركوا بها إيناس. صنعت (أم عمر) زوجة عمها كعكة ودَعَتْهُم إليها فأكلوا فرحين وهم يتمازحون. تعمدت أم عمر رفع أجهزة الآيباد والتابلت حتى يختاروا ألعاباً تزيد أُلفتهم وتعاونهم بدلاً من انشغالهم في ذلك اليوم بالأجهزة الإلكترونية وشاشاتها.

وجدت إيناس نفسها تتصرف بتلقائية وعفوية تامة، أكثر من كل الزيارات السابقة، وتقوم بحركاتٍ طفولية مكبوتة فيها لم تجد فرصة للتعبير عنها في بيئةِ الفيلا الجافة: يتجهز البنات للصلاة، تخطف إيناس (يانس) الصلاة من يد فاطمة وتَلْبسه بدل اليانس المعطى لها وتضحك البنتان.

زينب تقرأ في كتاب، فتأتي إيناس من خلف الكنبة وتغمض عيني زينب بيديها...تتحزر زينب: (من؟ فاطمة)...تضحك إيناس ضحكة طفولية بريئة...(آها...أَنُّوس)...يتحداها عمر: من يستطيع أن يحافظ على وجهه عابسًا دون ضحك لأطول فترة؟ ثوانٍ ويضحك الاثنان معًا. كانت إيناس كعصفور انطلق من قفص إلى حديقة وأصبح يتنقل مع العصافير بين الأغصان. ضَحِكَتْ ذلك اليوم كما لم تضحك من قبل، ولا بين زميلاتها في المدرسة، وزادتها حُمرة وجنتيها من كثرة اللعب جمالاً إلى جمالها.

عاد الدكتور أمجد بعدما صلى المغرب في الطريق. استقبله الجميع على الباب بفرح، وانطلقت فاطمة تشرح له ما فعلوه ذلك اليوم. رأت إيناس مودةً وشوقًا بين أمجد وزوجته عند الاستقبال، وفهم عمها نظرتها..إنه المشهد الذي لم تره بين أبويها لسنوات. فقاطع صمتَها بقوله:

- «أحضرتُ كنافةً حلوان وجود أَنُّوس بيننا، هاتوا الصحون والملاعق يا بنات». جلس الجميع يأكلون في جَوٍّ أُلفةٍ رائع، وكانوا يتحدثون، ومنهم إيناس، عن النشاطات التي قضوا بها أوقاتهم ومداعبة

إيناس لهم. كان أمجد يبتسم ويتفاعل مع كلامهم...

نظر أمجد إلى ابنة أخيه وهي مندمجة في الحديث مع أولاد عمها وشرد ذهنه: «هذه البنت البريئة...كيف نشأت في الأجواء التي حدثني عنها سمير؟ تُرى هل فَعَلْتَ ما اتفقنا عليه يا سمير؟ هل ستعيد بناء حياتك على أساسٍ صحيحٍ وتتقي الله في عائلتك وفي هذه المسكينة؟».

جاء وقت النوم...وكان مهمةً صعبةً على إيناس وفاطمة! تحاولان أن تناما، فتتذكر إحداهما شيئًا، فتكلم به الأخرى، تقعدان وتتحدثان قليلاً ثم تقولان: (كفاية، يجب أن ننام)، فتتمددان ثم تعودان لفتح موضوع جديد!

آخر ما قالته إيناس:

- «فاطمة»...

- «نعم»...

- «معقول أن تكون الجنة أجمل من هذا اليوم الذي قضيناه؟!»...

ابتسمت فاطمة بنعاس شديد وقالت:

- «طبعًا» ثم غطت في نوم عميق...فكرت إيناس قليلاً ثم نامت هي الأخرى.

مرت تلك الليلة....قبيل أذان الفجر، استيقظت إيناس على صوت قراءة جميلة....عمها أمجد يصلي قيام الليل...سمعته يقرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾...دخلت فتاتنا في مرحلة ما بين النوم واليقظة، وكل فترة تسمع الآية نفسها...إلى أن أُذِّن للفجر وقام الجميع للصلاة.

أجواء الصباح بهيجة...أمجد جالس على جهاز اللابتوب يكتب مقالاً لينشره...اقتربت إيناس من عمها، وقفت بجانبه وهو جالس، وضعت يدها على كتفه بعفوية ونظرت إلى المقال... بعنوان: «بروتين الكينيسين «Kinesin» من عجائب الخلية العصبية!» وقد أرفق معه أمجد بعض الصور...وفي خاتمته: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾...

- «كنت تقرأ هذه الآية مراراً الليلة يا عمو»

- «أيقظتُك يا حبيبتي؟! حاولت ألا يكون صوتي عالياً»

- «على العكس...كنت مسرورة وأنا أسمعك»..

دخلت زينب...

- «بابا، المعلمة أعطتنا موضوعاً حراً للتعبير...ماذا تقترح علي؟»

- «ما رأيك يا حبيبتي أن تتكلمي عن الانتماء إلى الأمة الإسلامية والشعور بآمالها وآلامها والسعي لمجدها؟»

- «طيب، هل هناك آية أذكرها في الموضوع؟»

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾...

- «لحظة أكتبها...أي سورة؟»

- «المؤمنون»

- «شكراااً»...وانطلقت زينب..

«أمة واحدة»...«الانتماء إلى الأمة»...مفاهيم وعبارات لا تسمعها إيناس في فيلتها الجافة...تعطي للحياة بعداً آخر ومعنىً عميقاً لم تفكر

بـه من قبـل...

أجـواء جميلة...لـم تسـتطع إينـاس معهـا أن تمنـع نفسـها مـن المقارنـة بيـن عمهـا أمجـد وأبيها..وبدأت ترسـم حلمها في أن ترى مثـل هذه الأجواء في بيتها.

أثنـاء هـذا اليـوم الرائـع الـذي قضته إينـاس ببيـت عمها، مـاذا حدث مع أبيهـا سـمير في مقابلته لأبـي عزام؟

هل سيبدأ بداية جديدة بالفعل؟

فلنتابع...

كشف الحساب!
إيناس (١٧)

بعدما انطلق سمير من بيت أمجد، وصل إلى مكتب الـمْعلم، والذي استغرب من هذه الزيارة دون موعد. بعد التحية الجافة بينهما قال سمير:

- «يا مْعلم، قررت أن أبدأ بتعديل حياتي، هذا خيرٌ لي ولحنان ولأُسرتنا»...

سكت المعلم فتابع سمير على استحياء:

- «هناك محرمات في العمل: الربا، الغش، الرشاوي، التلاعب بالعدادات...لست مستعداً للاستمرار في هذا كله».

ابتسم المعلم باستخفاف:

- «محرمات؟! سمير، يبدو أنك تتعرض لـ«روحانيات» زيادة بعد مشاكلك مع أشرف وحنان»..

كان سمير متوتراً لأنه يتكلم بعبارات لم يعتدْ أن يواجه بها المعلم منذ تعرف عليه، ولأنه يتكلم من عَوَجٍ شارك هو شخصياً فيه لعشرين عاما، لكنه استجمع قوته وقال:

- «يا مْعلم ليس اسمها «روحانيات»، هذا ديني. أنا في النهاية أخاف الله، وأعتقد أننا ابتعدنا كثيراً. هذا أصبح يخرب حياتي».

أشعل الـمْعلم سيجارته ودخن قليلاً ثم قال:

- «تعجبني صحوات الضمير هذه. لكن أتساءل: أين كان خوفك

من الله يوم أفهمتك طبيعة أعمالنا من البداية؟».

قال سمير:

- «في البداية ضربتَ لي مثلاً بالأخشاب التي تُفَرقها الأمواج، وقلتَ لي أنك تُحَمِّل هذه الأخشاب ما يمكن أن تتحمله من القِيَم و المُثل. هلَّا أخبرتني أين القِيم والمثل في عملنا؟!»

هنا تكلم المعلم بغضب و حزم:

- «لا أسمح لأحدٍ أن يحاسبني... سمير، إذا كان العمل لا يعجبك فاتركه».

تمالك سمير نفسه واستجمع قواه ثم ردَّ هو بحزم أيضاً:

- «بهذه البساطة؟! طيب أين المقابل على جهودي في استثماراتك؟ معرض السيارات الذي كرست له حياتي حتى أصبح من أكبر المعارض وأشهرها. لا يُعقل أن تكون لي نسبة ٤٠٪ من أرباحه فقط! كما أنني دفعت من مالي ربع مليون دينار لتعويض السيارات التي أُتلفت في الاعتداء الليلي بسياراتٍ غيرها. قلت لي يومها «حقك محفوظ» وأرغمتني على تسجيلها باسم المعرض. أين حقي المحفوظ؟».

أمسك المُعلم بورقة وقلم، ونظر في عيني سمير قائلاً: «طبعاً حقك محفوظ»، ثم قسم الورقة طوليا وكتب في أعلى القسم الأيمن: (لسمير)، ثم قال:

- «٢٥٠ ألفاً اشتريتَ بها السيارات»..وكتبها على السطر الأول..

- «وجهودك في المعرض...معك حق، فلنقدرها بـ(١٠٠) ألف».

- «جهودك في سلسلة المطاعم و مزرعة الدواجن وشركة المقاولات...طبعاً لا يخفاك أنك أخفقت في حل كثير من مشاكلها، لكن لن أظلمك. فالظلم من «المحرمات» التي تكلمتَ عنها! سأقدر جهدك فيها احتياطاً بـ(٣٠) ألفاً».

- «تعال نجمع: ٢٥٠ + ١٠٠ +٣٠ = (٣٨٠) ألفاً...تمام».

على رأس القسم الأيسر من الورقة كتب المعلم: (على سمير) ثم قال:

- «تعال نحسب ما عليك»:

- «عشرون عاماً من السكن في فيلا أُجرتها السنوية لا تقل عن (١٠) آلاف دينار...(٢٠ x ١٠) = (٢٠٠) ألفٍ»..

- «تنكات الزيت واللحوم والفواكه التي أرسلتها لك ولعائلتك، كنت حسبتها قبل أسابيع: حوالي (٧) آلاف دينار»..

- «تذاكر سفرك مع أولادك للأماكن السياحية...لن أحسب تذاكر حنان...لحظة..»..

استدار المْعلم وفتح أحد الملفات على جهاز الكمبيوتر، حسب سريعاً ثم قال: «(١٥) ألفاً»..

- «تكاليف ولادة أشرف وصادق...وَلَدَيك...لا زلت أذكر: (٤) آلاف دينار دفعتها أنا».

- «الاسم الذي صنعتُه لك في السوق وتعريفك على شبكة رجال الأعمال بحيث تستطيع أن تستغل ذلك في بدء عمل جديد...هذا أقدره بـ(١٥٠) ألف دينار»..

- «آه، تذكرت: حفلة العرس، كلفَتْ (٧٥٠٠) دينار»...

سكت المعلم قليلاً، حك رأسه، ثم قال:

- «لا لا، هذه سأعتبرها هدية لابنتي حنان. ثم أنت صهري ولا بد أن أتساهل معك».

قرَّب المعلم الآلة الحاسبة وصار يجمع الأرقام، مُظهراً جديةً في ذلك، وقال:

- «مجموع ما (على سمير) هو (٣٧٦) ألف دينار...تمام»...

- «ما لَك - ما عليك = (٤) آلاف دينار»...استخرج المعلم دفتر شيكاته وكتب شيكًا بـ ٤ آلاف دينار لسمير وقال له:

- «تفضل، ضع على المكتب مفتاح المعرض ومفتاح مكتب إدارة المطاعم و مفتاح المزرعة، ولا تنسَ طبعًا مفتاح الفيلا قبل كل شيء. ضع المفاتيح وخذ الشيك، فهو حقك».

كان سمير يستمع لهذا كله مذهولاً! قام من مكانه وخرج من مكتب المعلم بصمت، دون أن يأخذ الشيك. لم يستطع من هول الصدمة أن يذهب للمعرض، فاتَّجَه إلى الفيلا...وهو في الطريق نفَّس عن قهره بكيل الشتائم للمعلم: «الغادر! المحتال! يريد أن يدفع ٤ آلاف دينار مقابل حياتي التي كرستها لخدمته! يحاسبني على الفيلا التي أسكُنُها أنا وابنته و أحفاده! يحاسبني على تكاليف ولادة أحفاده الذين تاجر بأسمائهم: «أشرف ليتمسك بالشرف»! «صادق ليكون صادقًا في زمن الكذب»... يا كذاب!!! حتى أني لا أطيق أن يدعوَني أحد بـ«أبي أشرف»...طبعًا لو قلتُ له «إنهم أحفادك» سيقول لي «بل أولادك الذين أسأت تربيتهم حتى شوه أشرف سمعتنا كما قال من قبلُ»! وإذا قلت له: «بل ابنتك أَهْمَلَتْهُما

وأنا مشغول عنها بمصالحك»، سيدافع عن ابنته ويُعَيرني بيوم وفاة أمي! كما فعل ذلك اليوم»...

من سَرَحانه كاد سمير يرتطم بسيارة، فزمَّر له سائقها بغضب، فانتبه، ثم أوقف سيارته على حافة الطريق، ووضع يده على جبهته وقال بندمٍ شديد: «مجنونٌ أنا؟! كيف رضيت بتسجيل السيارات باسم المعرض وقد اشتريتها بمالي؟! كيف، وأنا أعلم أن هذا الرجل لا رادع له من دين ولا خُلق؟! ربما لأني لم أتصور أن أكون أحد ضَحاياه في يوم من الأيام! فأنا «شريكه» في الغش و التلاعب. كان عَليَّ أن أتوقع هذا، وأن أحفظ حقوقي على الورق. لكن كأني كنت مُخدَّراً!».

تابع سمير سيره، وصل الفيلا، ودخل غرفته لينام. جاءته حنان و قالت بأسلوب جاف:

- «أين إيناس؟»

- «ستنام في بيت عمها أمجد»..

- «هذا ليس من حقك، أنا أُعَلم ابنتي الإتيكيت ولا أريدها أن تكتسب عاداتٍ من بيئةٍ لا أعرفها. يكفي أنك نقلتها لمدرسة لم نوافق أنا وأمي عليها. اذهب وأحضرها». سكت سمير.

- «أقول لك اذهب وأحضرها، هيَّا».

- «أريد أن أنام، لن أُحضر أحداً».

خرجت حنان بغضب، وبدأت أمها (سوزان) تتصل تباعاً بعد دقائق وسمير يفصل الخط، ثم أطفأ جهازه الخلوي ونام.

سمير الذي كان قد نام طويلاً بعد صدمته عند أبي عزام ...استيقظ

في الليل...بقي متمدداً وهو يفكر فيما يمكن أن يفعله بعد «غدر» أبي عزام. تقلب، قام، ذهب يشرب الماء، وهو يفكر...

- «هل أستسلم لأبي عزام وأعود إلى ما كنت عليه؟ لا! ليس معقولاً...أن أنسى نصيحة أمجد بهذه السرعة!»

- «طيب وأموالي التي نهبها النصاب أبو عزام؟! الربع مليون التي دفعتها؟! أتركها له وأسلمه المفاتيح؟ مستحيل!»

- «عليَّ أن أعمل على استرداد مالي ولو خلسة من أموال المعرض ومصالح أبي عزام الأخرى».

- «لكن هذا يعني البقاء معه، والعودة لكل المحرمات التي كنت أعملها».

- «أنا مضطر!»

- «لكن «مضطر» هذه بررت بها لنفسي طويلاً حتى وصلتُ إلى ما أنا عليه الآن».

كان سمير يستخرج موبايله كل قليل ويستعرض رسائل الوتسأب ليتهرب قليلاً من دوامة التفكير، ويرد على رسائل بعض الزبائن وموظفي مصالح أبي عزام.

أراد أن يطمئن على إيناس، فهمَّ بمكالمة أمجد...لكن الوقت كان متأخراً، كما أنه خشي أن يسأله أمجد عما حصل معه.

خرج إلى حديقة الفيلا ومشى قرابة الساعة وهو يفكر...قرر أخيراً:

- «لا يموت الذيب ولا تفنى الغنم! سأعود للعمل مع أبي عزام، وأتجنب المحرمات قدر الاستطاعة، وأبدأ أستعيد مالي خفية عن أبي

عزام، وفي هذه الأثناء أؤسس لعملٍ خاص لأستقل عنه».

دخل فقضى الصلوات التي فاتته، لئلا يترك الصلاة مباشرة بعدما شحنه أمجد بالحماسة، ثم تناول طعام العشاء ونام.

خلال نهار ذلك اليوم، وبعدما غادر سمير مكتب أبي عزام مصدوماً، كان أبو عزام هو الآخر يفكر ويخطط...استدعى زهيراً:

- «زهير، سمير جاءته هَبَّةُ روحانيات! يقول لي: (هناك «محرمات» في عملنا)...قال إيش! قال محرمات! هه».

- «صح النوم! ولماذا جاءته صحوة الضمير الآن يا معلم؟»

- «لا أعلم. ربما بعدما حصل مع ابنه أشرف».

قال زهير بمكر:

- «طيب استغني عنه يا معلم...نخدمك ونخدم «المحرمات» لعينيك....إمممم...أو ربما صعب لأنه زوج ابنتك».

- «ما عاد يهمني أنه زوج ابنتي...لكن لا تنسَ أن سميراً مطلع على التفاصيل. لا أريده أن يصل إلى مرحلة: عليَّ وعلى أعدائي».

- «طيب ما العمل يا معلم؟»

- «خطة احتواء: سأُجَنِّبه المعاملات التي فيها تسليك أو «محرمات» على رأيه! وأوكلك أنت بهذه المهمات ريثما تمر هبَّته الروحانية هذه»..

- «من عيني يا معلم».

- «أيضاً: سأكثف «العمل الخيري» وأعطي مسؤوليته لسمير. تولَّ أنتَ مهمة توظيف هذه الأعمال لصالحنا».

- «على راسي يا معلم».

- «أهم شيء يا زهير: فتِّح عينك على سمير جيداً! لا شك أنه سيحاول في المرحلة القادمة أن يختلس من أموالي لأنه يظن أني ظلمته. هذا الصعلوك الذي صنعته من لا شيء، يظن أني ظلمته! راقبه جيداً وأمسك عليه مماسك».

هنا لمعت عينا زهير:

- «طيب هذا يحتاج مساعدتك يا معلم».

- «ماذا تريد؟»

- «أعطني نسخة من المفاتيح لأستطيع أن أزرع الليلة برنامج مراقبة على كمبيوتره في المعرض وفي مكتب إدارة المطاعم».

- «هذه سهلة».

- «وعندي شاب أريدك يا معلم أن تعيِّنه موظفا في المعرض عند سمير...أريده في المعرض لبضعة أشهر فقط».

فهم المعلم مقصد زهير...فوافق.

وبالفعل بدأ زهير من فوره بتنفيذ الخطة وانطلق في الليلة نفسها فوضع برنامج تجسس على الكمبيوترات، بينما سمير يمشي في حديقة الفيلا يفكر فيما يفعله مع أبي عزام.

ما الرسالة الصادمة التي تلقاها سمير من أبي عزام صباح اليوم التالي، والتي أحيت لديه الأمل؟

فلنتابع...

«توبة» أبي عزام!
إيناس (١٨)

استيقظ سمير صباح اليوم التالي لصدمته من كشف حساب أبي عزام.... بقي في فراشه فترة وهو يفكر، ثم قام يفطر لوحده... قرر ألا يتكلم مع المعلم، وانطلق إلى عمله كالعادة وفي نيته أن يتجنب المحرمات ما استطاع وأن يبدأ بمحاولة استرداد ولو جزء من أمواله شيئا فشيئا.

بعد دقائق من دخوله مكتب المعرض، جاءته رسالة غريبة صاعقة من أبي عزام!:

- «سمير..أمس فكرتُ طويلاً فيما قلته لي...ورأيت أن معك شيئًا من الحق. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾. خصِّص خمسة آلاف دينار من نصيبي في المعرض للأعمال الخيرية لنطهر أموالنا. وسنتعاون سوية لنسير بما يرضي الله. أيضًا، هناك صديق لي طلب أن أدبر عملاً لابنه. فسأرسله لك اليوم لتوظفه في المعرض».

نظر سمير في اسم المرسِل مراراً ليتأكد!

- «هل هذا أبو عزام بالفعل؟ غير معقول! هل تم اختراق حساب الوتسأب لأبي عزام؟ لكن مَن غيرُ أبي عزام يعلم بمقابلة أمس وما تم فيها ليقول لي: معك شيء من الحق وسنسير بما يرضي الله؟! ما هذا الذي يحدث؟! هل تغير أبو عزام بالفعل؟! مستحيل!».

ثم عاد فقال في نفسه: «لماذا أستبعد الهداية عليه؟ ربما تأثر بموقفي

وباستعدادي لترك المال الحرام»

شجع سمير نفسه ليتصل بأبي عزام:

- «يا معلم هل أرسلت لي رسالة قبل حوالي ثلاث دقائق؟»

- «نعم عمي أنا أرسلتها».

بلع سمير ريقه:

- «لا تتصور يا عمي أبو عزام مدى فرحتي بهذه الرسالة! بالنسبة للأعمال الخيرية فأنا أقترح أن نبدأ أولاً برد الحقوق لأصحابها و...»

قاطعه أبو عزام على الفور:

- «سمير، ليس لأحدٍ عندنا حقوق عمي، إذا أحببت تعال زرني في المكتب إذا عندك أي مقترحات».

قال سمير في نفسه: «نعم، ربما ليس مناسباً على الهاتف أن أتكلم بما يُشعر بوجود الغش والتزوير لأن هذا قد يكون مستمسكاً على أبي عزام». فأنهى المكالمة وانطلق باتجاه مكتب الـمُعلم.

وهو في الطريق، فكر سمير بفتح موضوع حقوقه هو: «بما أن أبا عزام تأثر بكلامي، فلا شك أنه أدرك أيضاً أنه ظلمني بالحِسبة التي أجراها معي أمس...فلأفتح معه الموضوع...أم أنتظره هو ليفتحه؟ لكن هل أبو عزام تأثر بالفعل أم أنه يريد شيئا من رسالته هذه؟ وماذا يريد وهو يقول لي معك حق ومستعد لدفع خمسة آلاف للأعمال الخيرية؟ لكنه أصلا كان يعمل أعمالاً يتظاهر أنها خيرية ليستخدمها في الدعاية لاستثماراته...هل هو يفعل الشيء نفسه هذه المرة؟ لا أظن فهو سيعرف أني سأدرك ذلك حينها...إذن ما الذي يريده أبو عزام؟!»

عـاد فقـال: «لمـاذا أستبعد الهداية عليـه؟ الله يهدي من يشـاء..لكن هل معقـول يتغير بهذه السـهولة؟!».

وهـو في دوامـة التفكيـر، وصل سـمير، ودخل مكتب أبي عـزام، والذي حـاول أن يُظهـر وجهـًا «سـمحـًا» عليـه علامـات التأثـر، مـع إبقـاء الهيبـة لحفـظ المسـافة بينـه وبيـن سـمير.

- «تفضل يا صهري».

- «عمي أبو عزام أنا بصراحة مستغرب من رسالتك».

- «لا تستغرب..نحن في النهاية مسلمون...والواحد قرب على السبعين يا سـمير. بالنسـبة لقولك: «نـرد الحقـوق لأصحابها»...خذ بالك! أنـا لـم أقـل لـك أننـا سـنغير كل طبيعـة أعمالنـا مـرة واحـدة، لكننـا سـنعدل المسـار شـيئا فشـيئا، وسـأعمل بالتدريـج على تعويـض مـن يمكـن أن أكـون ظلمتهـم بالخطأ...لكـن ليـس بطريقـة فجـة، وإلا فتحنـا على أنفسـنا بابـًا».

أحـس سـمير بـأن كلام أبـي عـزام بـدأ يتغير...«يقـول: (يمكـن أن أكون ظلمتهـم)؟! هـو يعلـم كـم ظلـمَ وغـشَّ! ومنهـم أنا...أحـد ضحاياه! مـاذا يريـد هـذا الرجـل؟!».

قاطع أبو عزام صمت سمير:

- «كمـا قلـت لك..خمسـة آلاف تصـرَّف بهـا بالطريقـة المناسـبة وأخـبرني مـاذا فعلـت بهـا للمعلومـة فقط...بإمكانـك أن تتصـل بأبـي أحمـد مـورِّد اللحـوم وتستشـيره في وجـوه الخيـر، فهو رجـلٌ كريم. قل لـه أبو عزام يستشـيرك في أَولى وجـوه الخيـر التـي يمكـن أن نصـرف عليهـا»..

أبـو أحمـد هـذا رجـلٌ ثـري فاضـل بـدأ أبـو عـزام يتعامـل معـه مؤخـراً،

فأحبَّ أن يُظهر له أنه صاحب أعمالٍ خيرية ليستفيد من ذلك في مصالحه.

تابع أبو عزام:

- «وإذا يا عمي هناك أشياء أنت مقتنع أنها حرام لا تعملها وأخبرني حتى نحاول تجنبها قدر الإمكان..الآن سيأتيني صديق لمقابلة...هل تريد شيئا يا سمير؟».

اضطرب سمير وقال في نفسه: «إذا هناك أشياء أنا مقتنع انها حرام؟! نحن غارقون في الحرام بأشكال وألوان!»...فقال لأبي عزام:

- «لكن مثلا يا معلم، السيارات الملعوب بعداداتها، عندنا أكثر من ثلاثين سيارة على هذا الحال. ماذا نفعل بها؟»

- «يا سمير، لا تسألني عن التفاصيل.. تصرف بذكائك في هذه الأمور. لن نستطيع تعديل العدادات مرة أخرى، ولن نرمي السيارات! بِعها بسعر مخفض...لكن دون أن يكون سعراً يجلب الريبة...لا يموت الذيب ولا تفنى الغنم».

- «لا يموت الذيب ولا تفنى الغنم...نفس العبارة التي قلتُها لنفسي أمس! تطابق عجيب! ربما المعلم معه حق إذاً».

كان سمير بذلك يبرر لنفسه «تقليل» الغش بدلاً من تركه بالمرة. وكان عليه أن يطبق هذه «القاعدة» على سائر المحرمات.

جاء صديق المعلم، والذي تعمد المعلم أن يجعل موعده في هذا التوقيت لئلا يطول اللقاء مع سمير. فسلم سمير وانسحب.

في طريق عودته إلى المعرض فكر سمير: «على هذا الحال، متى

سيأتي دوري ليرد لي أبو عزام حقوقي إذا كان يريد أن يعدل المسار «شيئا فشيئا» كما يقول؟! وإذا كان سيعمل «بالتدريج» على تعويض من «يمكن» أن يكون ظَلَمَهم «بالخطأ»؟! يبدو حبالك طويلة يا أبا عزام... سأعمل على استرداد حقوقي بنفسي ولن أنتظر دوري الذي قد لا يأتي! لكن على الأقل أخذت منه كلمة بحيث لا نتورط في محرمات جديدة غير التي نحن غارقون فيها».

جاء حامد، الموظف الجديد الذي على سمير تعيينه في المعرض... شاب ذكي في الخامسة والعشرين، بملامح بريئة «baby face»، يحسن التمثيل والمراوغة حتى أن سميراً اطمأن له وأصبح يعتمد عليه.

ومرت ثلاثة شهور...كان سمير فيها يبيع السيارات المغشوش معظمها! بأسعار مخفضة قليلاً ويسجل سعر البيع بأقل مما باعه. «فأبو عزام سيقتنع بأنها بيعت بهذا السعر لأنها متلاعَب بعداداتها» ويأخذ الفرق لنفسه. «إذا استغرب أبو عزام من سعر البيع فسأقول له: أنت قلتَ بِعها بسعر مخفض..قد يقول: ليس لهذه الدرجة! قلت لك بسعر لا يجلب ريبة...سأقول له: قدَّرتُ أن هذا سعر مناسب، وكنت أخبر الزبائن أن سياستنا هي الربح الصغير جدا لكن بحجم عمل كبير فلَمْ يستغرب أحد»...وكان سمير يكتب فواتير بأسعار غير التي باع بها السيارات لغايات مراجعة أبي عزام.

كان حامد يرصد هذا كله دون علم سمير، ويحتفظ بمعلومات من يستطيع من الزبائن المشترين، ليتصل به بعد مغادرة المعرض بساعات: «سيد فلان، من سياستنا أن نحتفظ بنسخ إلكترونية مشتركة بيننا وبين

الزبون. إذا سمحت صوِّر الفاتورة التي أخذتها من المعرض وضَعْ نسخة من الصورة على حساب الوتس للرقم الذي أتصل عليك منه». وكان هذا كله يتم دون علم سمير.

وخلال هذه الفترة، وثق زهير أشكالاً أخرى من تلاعب سمير من خلال البرنامج الذي زرعه على جهازه في مكتب المعرض، وأرسل من طرفه اثنين من المشترين لمزيد من توثيق التزوير على سمير.

كان سمير خلال ذلك يقوم بالأعمال الخيرية على حساب أبي عزام وعلى حسابه الشخصي أيضاً، ويُقنع نفسه أن ذلك يخفف وطأة المحرمات التي لا زال عالقاً بها في أعمال أبي عزام.

تحسنَتْ نفسية سمير خلال هذه الشهور الثلاثة، وكان محافظاً على صلاته إلى حد ما، ويتعهده أمجد في ذلك....مرضت حنان، فكانت فرصة مناسبة ليعيد سمير شيئاً من العلاقة معها، وكانت إيناس سعيدة بذلك. وتكررت زيارتها لبيت عمها أمجد بعد تلك الزيارة الرائعة...

دعا أبو عزام سميراً وزهيراً إلى اجتماع في نهاية هذه الشهور الثلاثة. تعمد فيه أبو عزام ألا يدقق في ملفات سمير، وأن يبذل معظم الوقت في مراجعة إنجازات زهير.

كانت إنجازات زهير مضخمة بشكل متعمد، وبسابق علم من أبي عزام. فأحس سمير بالغيرة والحسد تجاه منافسه اللدود زهير! وخرج من الاجتماع مصراً على ألا يفشل في المنافسة.

ماذا عنى هذا بالنسبة لسمير؟ شيئا من التراخي في موضوع المحرمات! بحيث يحقق أرباحاً أعلى ولا يفشل في المنافسة مع زهير!

وبدأ سمير يتراخى بالفعل، وأبو عزام في هذا كله لا يتدخل، ولا يحاول فرض شيء على سمير.

مر شهران آخران على هذا الحال، وزهير وحامد يدبران المزيد من الحيل ويرصدان المزيد من التزوير الذي يقوم به سمير ليسترد ماله. وجاءت اللحظة المرتقبة! دعا المعلم ثلاثتهم لقصره: سمير، وزهير... وحامد![1]

تُرى، ماذا حصل في هذا الاجتماع؟

فلنتابع.

(١) نتعمد عدم وضع تنوين الفتح على الأسماء أحيانا تسهيلا للقراءة.

«سأخبر إيناسًا بالحقيقة»
إيناس(١٩)

استغرب سمير من حضور حامد، الموظف البسيط، للاجتماع... ورابَتْه ابتسامة زهير المنتشية..وكان أربعتهم يجلسون حول طاولة ضيافة بيضاوية...وأبو عزام يمسك بملف كبير، فوضعه أمام سمير وقال:

- «سمير، كنتُ قلتُ لك أن تنبهني إذا وجدت في عملنا محرمات حتى نحاول تجنبها. ألقِ نظرةً على الملف وأخبرني إن كان فيه «محرمات».

فتح سمير الملف: توثيق للفارق بين السعر الحقيقي لبيع السيارات والسعر المسجل في حسابات المعرض...رواتب مسجلة لشهور لموظف تم الاستغناء عنه، حيث كان سمير يأخذ لنفسه هذا الراتب...ملفات مخفية على كمبيوتر المعرض يقوم فيها سمير بضرب تكاليف مواد غذائية مشتراة لحساب سلسلة المطاعم ومزرعة الدواجن بمعامل ١,٢ لتُقَدَّم لأبي عزام على أنها اشتُريت بهذا السعر ويأخذ سمير الفرق..وأمور أخرى!

كان وجه سمير يشحب وهو يقرأ هذا كله، وزهير ينظر إليه مبتسمًا، وحامد تتنقل عيناه بين سمير وأبي عزام، وأبو عزام قد أرجع كرسيه عن الطاولة قليلاً...يضع رجلاً على رجل، ويدخن سيجارته وهو ينظر في السقف.

أغلق سمير الملف وبقي ينظر في الطاولة مُقَطِّبًا حاجبيه فاتحًا فمه كالذي يفكر...

قال أبو عزام:

- «هاه...هل هناك محرمات؟...وماذا تنصح بالعمل معها؟».

قال سمير بصوتٍ منخفض:

- «أنت اضطررتني لهذا».

- «اضطررتك لماذا بالضبط؟»

أحس سمير أن أبا عزام ربما يسجل ما يدور في اللقاء ليمسك عليه مستمسكات. وقد كان زهير بالفعل يسجل ما يدور على مسجل يخفيه، فأجاب سمير:

- «اضطررتَني للذي رأيتَه».

- «هل رأيت يا سمير ما يحدث عندما نُحَمل الأخشاب ما لا تحتمل؟ كيف ينهار البناء وتنهار أنت معه؟».

تذكر سمير هنا الحوار الذي دار قبل أكثر من عشرين عاماً..حوار «الحِكَم العزَّامية»! التي علمها أبو عزام لسمير قبل أن يكشف له عالمه الموبوء:

«الواحد يا سمير يتعلم من الحياة ما لا يمكن أن تتعلمه في الجامعة أو في دورات أو مؤتمرات...ومما تَتَعلمه أن المثاليات والقيم أمرٌ مهم بلا شك، مهم لتحيا حياة نفسية سليمة وتشعر بالرضا عن نفسك. لكن إذا جعلتها تتدخل كثيراً في حياتك فَسَتُقيدك، ويسبقك الجميع في المضمار. والذي يتأخر في مضمار السباق لا يربح ربحاً أقل فحسب، بل يجرفه الطوفان، فنحن في عالَم لا يرحم...تصور هذه القطع يا سمير كأخشاب، وتصور المكتب بحراً تثير الرياح أمواجه، والقطع تروح وتجيء، تقترب وتبتعد...هل أستطيع أن أؤسس عليها بناء عالياً؟...كذلك المُثل والقيم

في عالَمنا: المجتمع هو البحر، الظروف والمتغيرات والمشاكل هي الرياح، قطع الخشب هي فُرَصنا في هذه الحياة...موطىء القدم الذي يمكن أن يتاح لنا. إذا سكَنَت الريح يوما وتقاربت قطع الخشب وحاولنا أن نبني المُثل العالية والقيم النبيلة على أساس هذه القطع، ماذا سيحصل في أول هبة للريح وتموُّج للبحر؟...ستنهار، وتنهار أنت معها! وكلما كانت المثُل أعلى كان انهيارها أسرع. لذا، فقد تعلمتُ من وجودي لأكثر من ربع قرن في سوق العمل أنَّ القيم الدينية والمُثل الأخلاقية شيءٌ جميل، لكنني أنا الذي أسمح لها بالتدخل في حياتي بالقدْر المناسب للواقع، أي أنني أُحمِّل كل قطعة من الخشب ما يمكن أن تتحمله، وما يمكن أن تحافظ عليه مهما هبت الريح وتعالت الأمواج. وبذلك أنسجم مع حاجاتي الروحية ومع الواقع في الوقت نفسه. غيري قد يُصِر على البناء العالي، لكنه عندما ينهار سيكون مستعداً للتخلي عن قيمه وأخلاقياته كلها ويَتَشبث بالألواح حتى لا يغرق! لا يا عزيزي، قليلٌ مستمر خير من كثيرٍ منقطع، لا يفنى الذيب ولا تموت الغنم».

أحس سمير أنه هو الذي «عندما ينهار سيكون مستعداً للتخلي عن قيمه وأخلاقياته كلها ويَتَشبث بالألواح حتى لا يغرق!»، وأن عليه تقديم المزيد من التنازل تحت شعار «لا يفنى الذيب ولا تموت الغنم»!

كان سمير في هذا كله لا يرفع نظره عن الطاولة، كالطالب المعاقَب... استأذن في الانصراف، فأذن له أبو عزام...وخرج.

وصل البيت، لم يُصَلِّ هذه المرة، بل أحس بالـ«خذلان» وبشيء من العتب على القدر!

كان سمير يتوقع أن يعينه الله ما دام «تحسن» عن ذي قبل، وأن يفتح عليه من الدنيا مزيداً، حتى وإن كان لا زال متلبساً بالكثير من المحرمات في عمله مع أبي عزام...

لم يتعود سمير تحمل مسؤولية أفعاله بنفسه، فكان يجد لها المبررات ما دام «أحسن من غيره»، وما دام «يعمل أعمالاً من الخير»، ولأن «غيره لو كان في مكانه لعمل ما هو أسوأ»! فوضَعَ الملامة فيما حصل على القدر الذي لم يُعْطِه في نظره ما يستحق!

لكن ما في قلبه من تعظيم لله تعالى وضع له حداً...صحيح أن نظرته لحق الله عليه هزيلة، وأنه عَتِبَ على القدَر، لكنه مع ذلك كان يقول لنفسه:

- «الله حكيم فيما يفعل، لا يُسأل عما يفعل...حتى وإن خسرت كل شيء، لا أريد أن أخسر إيماني»...

كانت إيناس تنتظر أباها لتتعشى معه...فسمير كان يحرص على تناول العشاء معها، وإذا تأخر يوماً ووجدها نائمة فلا بد أن يتناول الفطور معها قبل خروجها إلى المدرسة. لم يكن يطيق أن يمر يوم وليلة دون إيناس، الإنسانة الوحيدة التي يحبها بعمق وبصدق.

استقبَلَتْ إيناس أباها بحفاوة، لكنه رد بجفاف:

- «أنوس، معلش حبيبتي، أنا تعبان جدا الليلة، تعشي لحالك»... ودخل ينام.

صُدِمت إيناس فذهبت تصلي وتنام دون أن تتعشَّى هي الأخرى، وبقيت فترة في فراشها تفكر: «ما الذي حصل مع أبي؟ لماذا انقلب مزاجه فجأة هكذا بعدما تحسن لشهور؟»

استيقظا صباح اليوم التالي....جلسا يفطران سوية...

- «بابا، ما لك؟ لماذا أنت حزين»..

- «لا شيء يا حبيبتي، شوية مشاكل في العمل»..

أحست إيناس أن الأمر أعمق من ذلك، فأصرت على أبيها بتودد لتعرف سر حزنه وتوتره..

فكر سمير بأن يبوح لابنته بشيء من الأسرار من قبيل «الفضفضة»، فهو يحتاج لأن يسمعه أحد، وبالتأكيد لن يعود لأمجد بعد هذا الذي حصل! فجواب أمجد سيكون واضحاً وحاسماً: (قلت لك: اترك أبا عزام وعالمه وكفى غرقاً في رماله المتحركة!)...

وبالفعل، عزم سمير على إخبار ابنته بـ«شيء» مما يحصل معه، بما يناسب إدراكها، ودون أن يسقط احترامُه كليا من نفسها!

- «طيب سأخبرك بعد الفطور يا حبيبتي»....

خرجا للحديقة، وبدأ سمير يحدث ابنته بحذر عما يعانيه مع جدها أبي عزام...ويرصد ملامحها ليرى مقدار الصدمة فلا يزيد جرعة الحقائق المرة!

وإيناس في المقابل كانت تحس أن أباها يخفي أشياء وأنه متحرج مما يقوله، فتعمدت أن تجمد ملامحها وتحافظ على ابتسامة خفيفة مع أنها كانت تتلقى الصدمات!

بعد عشر دقائق من الشرح وإيناس صامتة، سألها سمير:

- «ماذا ستفعلين لو كنتِ مكاني يا أنوس؟»

ردت إيناس على الفور بعد صمتٍ طويل:

- «سأترك العمل مع جدي أبي عزام وأبحث عن عمل حلال».

تفاجأ سمير من الرد وسرعته و وُثوقيَّته! وفكر: «أيهما أصدق؟ (لا يموت الذيب ولا تفنى الغنم)؟ أم فطرة إيناس النقية، والتي جاءت متوافقة تماماً مع نصيحة أمجد؟»

- «لكن يا بابا، هذا يعني أن نترك الفيلا بكل ما فيها ونعيش عيشة بسيطة جدا»...

- «مش مهم»...ردت إيناس بسرعة الطَّلَق!

- «يا بابا، لا أسفار، لا رحلات، لا مطاعم».

- «وهل أنت الآن سعيد بهذا كله يا بابا؟!».

ذُهل سمير من السؤال! كأنه صوتٌ عميقٌ بداخله خرج ليتجسد في إيناس! فهو بالفعل ليس سعيداً بهذا كله، ومع ذلك يحس بأنه لا يستطيع التخلي عنه.

سكت سمير، لكن بعدما أحس أنه ورَّط نفسه باهتزاز صورته أمام ابنته دون استعداد حقيقي للاستجابة لنصيحتها....فقال:

- «تعالي تجهزي لباص المدرسة يا حبيبتي».

خرجت إيناس للمدرسة، وذهب سمير للمعرض وهو متخوف مما سيفعله أبو عزام: «هل سيُقَدم الملف للقضاء؟ ستكون مصيبة! لا.. لن يفعل...يعلم أني أستطيع أذيته حينها...ربما سيكتفي بأن يطلب مني إرجاع الأموال التي أخذتها خلسة».

الغريب أن الأيام مرت وأبو عزام لا يطلب شيئا من سمير، ولا حتى إرجاع الأموال التي أخذها! فبالنسبة لأبي عزام، كان «الدرس» الذي لقَّنه لسمير، وقناعة سمير بـ«حِكَم» البحر والأخشاب! وبالتالي استعداد سمير بعد ذلك لتنفيذ الأوامر دون فتح موضوع «المحرمات» مرة أخرى...كان هذا كله كافيـًا!

وللأسف، عاد سمير بالفعل شيئا فشيئا لما كان عليه قبل نصيحة أمجد. وعاد مع ذلك للتراخي في صلاته ولتوتر العلاقة مع حنان «ابنة المعلم الذي أهانني أمام زهير والموظف المندس الغدار»!

خلال ذلك، كان هناك جرح يتعمق داخل نفس إيناس! إنه جرح ما اكتشفته عن عالم أبيها وجدها يوم صارحها أبوها بـ«جزء» من الحقيقة! صار يتردد في داخلها الصوت: «كل ما نحن فيه من رفاهية مختلط بالغش والظلم والحرام؟!»...وبدأت تحس بأنها تريد أن تنأى بنفسها عن هذا الوضع الملوث، وأن تتمايز عن هذه البيئة، لكن لا تعرف كيف.

ازدادت علاقة إيناس بأخيها صادق، والذي وصل الثانوية العامة فأصبح يلزم البيت لوقت أطول بضغطٍ من والدَيه، وأحضر له سمير أساتذةً خصوصيين. ومع أن صادقـًا كان يشعر بغيرة من إيناس إلا أنها كانت بطيبتها لا تترك مجالاً لأحد أن يكرهها! أصبحت تُحَضِّر له فنجان القهوة، تضعه على مكتبه وتسأله بابتسامتها الرقيقة:

- «كيف دراستك؟ هل أستطيع أن أساعدك بشيء؟»...

- «لا، شكراً يا أنوس»...

- «عفواً...وفقك الله»...

وازدادت المودة بينهما مع الأيام.

كان في صادق شيءٌ من طيبة إيناس، لكنه كان يفتقد التوجيه...ومع فارق السنوات السبعة بينه وبين إيناس إلا أنه أصبح يأنس بالحديث إليها، إذ يجد لديها من الاهتمام الصادق به ما لم يجده لدى والديه البعيدين عنه روحياً.

وكذلك أشرف، الذي كان يتشوق لزيارة إيناس. فقد كانت فاطمة، بتوجيهٍ من أبيها، تُزود إيناس كل مرة بآية أو حديث عن الصبر ورحمة الله، مع بعض العبارات المختصرة المؤثرة. فتُسمع إيناس أخاها ما يخفف عنه في ظرفه الصعب.

خلال الفترة الماضية، كانت حنان أيضاً تحرص على نصيبها من إيناس، فتصطحبها معها لزيارات صديقاتها وصديقات أمها (سوزان). إلا أنهما بَدَأتا تلاحظان شيئاً من الانقباض على إيناس... وقد كانت إيناس تحس بالفعل بشيء من الغربة والنفور عن هذه البيئة وطبيعة المواضيع المطروحة المليئة بالتُّرهات والخالية من أية فائدة.

كانت حنان في الساعات التي تمضيها بالبيت تكثر من متابعة القنوات وتأنس بوجود إيناس بجوارها، إلا أن إيناساً أصبحت كثيراً ما تنسحب عندما ترى ما يخدش حياءها. لاحظت أمها ذلك، لكنها لم تُرِد أن تغير! مع أنه كان يزعجها كثرة ابتعاد إيناس عنها...كانت تحس أن ابنتها «تبالغ» في نفورها من أشياء «عادية» أحياناً في نظر حنان!

عادت حنان إلى الممانعة من زيارة إيناس لبيت عمها أمجد...تَرَجَّتْها

المسكينة كثيراً دون جدوى، ولم يتدخل سمير المنشغل بمشاكله. وإذا تدخل، فَرَدُّ حنان الجاهز: «إيناس تكتسب من بيت عمها صفاتٍ تبعدها عنا»!

حاولت حنان أن تشغل ابنتها بالإكثار من أخذها في عطل نهاية الأسبوع لتبيت في قصر جدها أبي عزام المزود بصالة رياضية وحديقة فيها ألعاب مختلفة وأقفاص طيور من مختلف الأشكال وحوض أسماك ضخم وغير ذلك من وسائل الرفاهية، لكن ذلك كله لم يكن يساوي لدى إيناس اللحظات الجميلة في بيت عمها أمجد ومع عائلته الودودة.

فتاتنا الطيبة هي الآن في الحادية عشرة من عمرها...دخلت إلى مكتب أبيها في يوم جمعة، بعد أن تناولا طعام الفطور، بينما تناوله صادق وحده وحنان نائمة...جاءت إيناس لأبيها في غرفته بفنجان قهوة حضَّرته بنفسها، ثم وقفت أمامه ووجهها منير كالقمر بأشعة شمس الصباح المتسللة من النافذة وقالت بابتسامة:

- «بابا»

- «نعم يا حياتي»

- «أريد أن ألبس الحجاب».

تُرى، كيف كان رد سمير؟

وما الاختبار الجديد الذي عرَّضت فتاتُنا أباها له بهذه الكلمات؟

فلنتابع.

الاختبار الصعب
إيناس(٢٠)

- «سألبس الحجاب»...كلمة لم يجهز سمير نفسه أن يسمعها من إيناس!

رفع سمير عينيه من جهاز اللابتوب الذي يحضنه، نظر في إيناس متفاجئاً ومستغرباً وقال:

- «أنُّوس، لا زلت صغيرة يا بابا».

- «لا يا بابا، فاطمة من عمري، وقد اتفقنا معاً أن نذهب للمدرسة بعد غدٍ بالحجاب».

- «أنتِ مختلفة عن فاطمة يا بابا. أنا سعيد أن فاطمة لبست الحجاب، شيء رائع...لكن أنت مختلفة عنها. نحن لنا بيئَتُنا ومعارفنا يا بابا، وإذا لبستِ الحجاب ستكونين مختلفة عمن حولك».

- «طيب عندما أكبر أكثر سأكون مختلفة عنهم أيضاً إذا لبستُه. يعني متى إذن ستدَعُني ألبسه؟».

تلبَّك سمير واضطرب ولاحظ تناقضه مع نفسه. لقد كان كلام ابنته مفاجئاً له، لم يتوقعه ولم يحسب حسابه ليجهز له جواباً.

طوال السنوات الماضية، كان سمير غافلاً في نفسه، لكنه لم يتدخل ليمنع أحداً من شيء يتقرب به إلى الله. كان سمير مقصراً في تربية أبنائه، وتَرَكَهُم ينساقون مع البيئة حولهم، لكنه لم يقف في طريق أحدهم إذا

أراد أن يُعدِّل مساره أو يُقْبِل على ربه... لذا فقد كان كلام إيناس اختباراً جديداً من نوعه بالنسبة لسمير!

تهرب سمير من التفكير فيما سيتخذه من موقف عندما تصبح إيناس مكلفة بالحجاب، فقال:

- «بابا، دعينا من الحديث عما بعد. أنت الآن صغيرة».

- «وهل ماما لا زالت صغيرة أيضا؟!»

- «أنت تعرفين أن ماما لا تسمع كلامي».

- «طيب وعندما كانت تسمع كلامك؟!»

أحس سمير بالإحراج والإستفزاز معاً، ولم يكن في حياته كلها مع إيناس قد قسا عليها أو انتهرها.

وإيناس أيضاً لم تكن تكلم أباها يوماً بهذا الأسلوب. ففي هذا الجدال اختفت بسمتها وبدأت تتكلم بشيء من الانفعال وتَرُدُّ على كلام أبيها بسرعة.

في الواقع، كانت إيناس بذلك تعبر عن تساؤلات تراكمت في نفسها وأصبحت تقلقها:

«لماذا يا بابا؟ لماذا لست كعمي أمجد؟ لماذا لا أرى مودةً بينك وبين أمي كالتي بين عمي وزوجته؟ لماذا لا تتعظ بما حصل لأشرف؟ لماذا لا تستمر على الصلاة أياماً حتى تعود فتتراخَى وتكسل عنها؟ كيف قبلت لنفسك أن تبقى طوال هذه السنوات تطيع جدي أبا عزام في هذه المحرمات التي تمارسانها؟ هل ستكون معي في الجنة يا بابا؟ هل الله تعالى راضٍ عنك وأنت على هذا الحال؟ كيف سأطيق البعد عنك إذا لم

تكن معي في الجنة؟ أنا أحبك يا بابا، وأعرف أنك تحبني، لكن هل أنت تحب الله؟ إذا كنت تحبه فلماذا لا تطيعه؟!».

هذه الأسئلة كلها قفزت إلى حس إيناس عندما جادلها أبوها رافضاً ارتداءها للحجاب، جداله أثار بركانها المتراكم عبر السنين، فبدأ قلبها الطاهر يخفق بسرعة ولهجتها تزداد عصبية.

قالت في نفسها: «إن كنت أنت لا تريد أن تُعَدِّل من حياتك يا بابا فدعني أنا»...

كان الحجاب بالنسبة لإيناس حجاباً عن العالم الملوث الذي اكتشفته عن أبيها وجدها، وشكلاً من التمايز عنهم...

كان حجاباً عن البيئة التي تُقحمها فيها أمها وجدتها سوزان، والذي لا يُعنى إلا بالماديات ولا يتذكر أصلاً أن هناك روحاً وداراً آخرة....

تمالك سمير نفسه بصعوبة لئلا يقسو على الزهرة الوحيدة في صحراء حياته، فأعاد نظره إلى اللابتوب وقال:

- «طيب بابا، نتناقش لاحقاً».

- «متى لاحقاً يا بابا؟ فاطمة أهدتني حجاباً واتفقنا أن آتي إلى المدرسة مرتدية إياه بعد غدٍ الأحد».

- «نتكلم غداً بابا...غداً عطلة، لن تذهبي للمدرسة».

هدَّأت إيناس من نفسها، اقتربت من أبيها، قبَّلت خده، وخرجت بصمت.

بقي سمير واجماً بضعة دقائق...لا يريد أن يفكر في الموضوع، ثم عاد إلى حساباته المتعلقة بالمعرض على اللابتوب.

كانت إيناس تدرك أنها لا زالت صغيرة ولا تؤاخَذ إن لم ترتدِ الحجاب، لكنه كان بالنسبة لها يمثل الكثير: يمثل حياءً أنثوياً فطريا لا تريد أن تُسلبه، يمثل تذكُّر الله وإدراك أنها موجودة في هذه الحياة لتعبده سبحانه حُباً وتعظيماً، يمثل صدقاً وعفوية وطمأنينة وَجَدَتْها لدى عائلة عمها أمجد...يمثل حجاباً عن محيطها لئلا يجرها معه إلى دوامة الغفلة، فهي لم تنبهر بهذه الحياة التي رأتها في جفاف الفيلا المترفة وضياع والدَيها وأخَوَيها...لم تكن إيناس تكره سعة العيش والنجاح في الدراسة والعمل، فقد كان هذا كله موجوداً لدى أعمامها، لكنهم سخَّروه لمرضاة الله. إنما كانت إيناس تكره انغماس أبويها وبيئتها في الدنيا واستعبادها لهم ونسيانهم لربهم ولآخرتهم...كان الحجاب يمثل لإيناس حجاباً عن قصِّ أجنحتها التي بها تحلق في سماء الإيمان وسعادة الدنيا والآخرة.

كانت إيناس قد أخبرت أمها أمس بقرارها ارتداء الحجاب، متوقعة أن تجد منها معارضة...لكن ما وجدته لم يكن معارضة فحسب، بل أشبه بالهستيريا! نظرت إلى إيناس بشكل عدواني:

- «حجاب؟! وفي هذا السن؟! هذا ما ينقصنا للحفلة القادمة! أن يراك صديقاتي بالحجاب...أنا كنت غبية حين سمحت لك بالذهب إلى بيت عمك. لا تعيدي هذه الكلمة مرة أخرى...صلي كما تشائين..اقرئي القرآن كما تشائين..لكن لا تتكلمي عن الحجاب. كله من غبائي وهبلي لأني سمحت لك بالذهاب إلى بيت عمك».

صُدمت إيناس بأمها و رَدِّها الشرس...فقالت لأمها:

- «هل تكرهين الحجاب إلى هذا الحد؟!»..

- «أنا لا أكرهه...أنا مسلمة حتى وإن كنت لا ألتزم بالحجاب...أنت صغيرة لا تتكلمي عن الحجاب الآن»....

فلجأت إيناس إلى أبيها لتأخذ الدعم منه...لكن رده الأول صبيحة الجمعة كان مخيباً للآمال...

تركت إيناس ذلك اليوم يمر...ونام سمير ونامت إيناس تلك الليلة...

في اليوم التالي، أول ما قفز إلى ذهن سمير حين استيقظ: «ماذا سأقول لإيناس إذا فَتَحَتْ الموضوع؟»...

فكَّرَ ثم أجاب نفسه: «لا أظنها ستفتحه...لعلها مجرد فكرة عابرة لتقليد فاطمة...أطفال يقلدون بعضهم...لن يهون عليها مضايقتي مرة أخرى».

أفطرا بصمت هذه المرة...ما ان انتهيا من الفطور حتى تصنَّعَتْ إيناس ابتسامة تخفي وراءها قلقاً وقالت:

- «بابا، لدي خبر رائع، بارك لي».

- «مبارك، ما هو يا حبيبتي؟».

- «سأذهب غداً إلى المدرسة بالحجاب إن شاء الله..ها هو...أهدتني إياه فاطمة».

ابتسم سمير متفاجئاً من هذا الأسلوب، ثم عاد يتناول بعض الطعام

تهرُّبـاً من النظر في عيني إيناس. فكر قليلاً ثم قال:

- «بابا حبيبتي لدينا ال(party) (أي: الحفلة) بعد شهرين من الآن، وأنت تعلمين كم هي ال party جميلة. ستكونين مختلفة عمن حولك إذا ذهبت إليها بالحجاب، ولن تندمجي معهم».

لم يذكر سمير لابنته حقيقة أنه سيُحْرج إن ذهبت بهذا المنظر إلى حفلة معارفه ومعارف أبي عزام وعوائلهم.

فاجأَتْ إيناس أباها بالجواب:

- «بابا أنا أصلاً لا أريد الذهاب للحفلة بعد اليوم..فيها أشياء لا يحبها الله».

اضطرب سمير ثم قال:

- «بابا، نحن نحافظ على مسافة من الأشياء التي لا نتفق معها، لكن لا نستطيع أن ننعزل عن المجتمع. أنا مسرور بأنك تصلين وأريدك أن تستمري على ذلك. لكن إذا حمّلنا أنفسنا فوق طاقتها في بيئة لا تساعد فسوف ننكسر».

العجيب أن سميراً، مع أنه كان في تلك المرحلة يكره أبا عزام أشد الكراهية، إلا أنه قد تشرب كثيراً من طباعه وأصبح يتكلم بمثل «منطقه»، منطق (البحر والأخشاب)!... وكما اتخذ المعلم أسماء أشرف وصادق جزءاً من بريستيجه، أصبح سمير لا شعورياً يتخذ إيناس جزءاً من بريستيجه و «ديكورِ» شخصيته!

طبعـاً، لم يكن في كلام سمير أي اقناع لإيناس وفطرتها النقية، ولم تتحمل فكرة الإزدواجية التي يريد لها أبوها أن تعيشها، ونقص رصيده

في قلبها كثيراً بهذه الكلمات...فانسحبت بصمت وذهبت تبكي في غرفتها من خيبة أملها في أبيها.

هذه المرة، انسحبت دون قبلةٍ على خد أبيها، فتركَتْه مصدوماً من هذا الانسحاب السريع، دون جدال وأخذ وعطاء! فأحس سمير بالإهانة، لأن هذه الصغيرة جعلته يواجه نفسه، بل ويزدري نفسه! كأنها صفعته على وجهه..

لقد كانت «مهمة» الغفلة سهلةً على سمير، أما مقاومة الخير في الفِطَر النقية وخنق داعي الهدى في نفس طفلته فكان مهمة أصعب!

هل دفعه الإحساس بالإهانة وكراهية النفس إلى التنازل لابنته والاستغناء عن الحفلة؟ لا! لماذا؟ هل لأن الحفلة تسعده؟ لا، لكنه يخاف التخلي عنها! كان سمير قد وصل لمرحلة تشبه ما يحصل لمدمني المخدرات! لم يعد يستمتع بالتَّرَفِيَّات التي هو فيها، لكنه يخاف من «أعراض الانسحاب» التي سيعانيها إذا تركها!

في المقابل، كانت إيناس تشكل الكثير لسمير، ومع ذلك بدأ «يتعود» على نعمة وجودها في حياته....فلم يقدم مصلحتها وسعادتها على حرصه ألا يُحرج أمام معارفه.

ذهبت إيناس كسيرة البال إلى المدرسة في اليوم التالي...فاطمة ترتدي الحجاب الذي أعطاها رونقاً خاصاً وزميلاتها يهنِّئنها به...نظرت إليها إيناس نظرة غبطة وتمنت لو كانت مكانها....أخبرت فاطمةَ بما حصل معها، فواسَتْها فاطمة وقالت لها: على كلٍّ العطلة على الأبواب...نحاول معه مرة أخرى الفصل الثاني بإذن الله.

لم تكن البنتان تعلمان ما ينتظرهما الفصل الثاني!

كلمَتْ حنان أمها سوزان عن الموقف الذي حصل بينها وبين إيناس والمتعلق بالحجاب.... وسوزان نفسها كانت قد لاحظت أن إيناس منقبضة في الآونة الأخيرة وغير متقبلة للبيئة التي يحيطانِها بها...فاتخذتا قراراً قاسياً...

ما هو؟

وما موقف سمير منه؟

وكيف سيؤثر على حياة إيناس؟

فلنتابع.

الحِياد الكاذب
إيناس (٢١)

اتصلت سوزان والدة حنان بسمير:

- «سمير، سوف نسجل إيناس في المدارس الدولية بجانب مول النجوم. هذه هي المدرسة المناسبة لطبقتنا الاجتماعية. كنتَ بررتَ تسجيلها في المدرسة التي هي فيها بمرضها. ها قد زال مرضها واستقرت حالتها. انقلها».

- «لن تطيق البعد عن ابنة عمها».

- «أصلاً أنا وحنان لسنا راضيتين عن علاقتها بابنة عمها. إيناس أصبحت روحانية زيادة عن اللزوم، وهذا يحرجني أمام صديقاتي وصديقات حنان. أحضرت لها فستاناً ماركة من فرنسا السفرة الأخيرة فرفضت أن ترتديه بحجة أنه غير مناسب! فاطمة تؤثر عليها كثيراً وهذا لا يعجبني. لا مانع لدي أن تأتي فاطمة إلى الفيلا وتزور إيناس كل فترة تحت إشراف حنان، لكن لا تبقى في المدرسة. انقلها».

- «إذا وافقَت إيناس على النقل فسأنقلها».

- «أنت تعلم أنها لن توافق...أخبرني؟ هل ستنقلها؟»

- «لا زال الوقت مبكرا والعام الدراسي لم ينتهِ بعد. نناقش الموضوع على العام الدراسي القادم».

- «لن أنتظر حتى نهاية العام ولن أدعها في هذه المدرسة للفصل

الثاني. إذا كنت لا تريد أن تنقلها فأنا أعرف كيف أنقلها»...وأغلقت الخط دون تحية.

وبالفعل، تدبَّر أبو عزام الأمر من خلال معارفه فتم نقل إيناس أثناء العطلة بين الفصلين دون حاجة إلى توقيع والدها كولي أمر لها.

لم تعلم إيناس وفاطمة بالأمر بعد..وأصبحت حنان وأمها تصطحبان إيناس معهما لوقت أطول، وأحضرتا لها الكثير من الهدايا: علب مكياج، حُلِيًّا ذهبية، فساتين، جهاز آيباد...في محل الإلكترونيات قالت سوزان لحفيدتها:

- «حبيبتي، أشتري لك موبايل؟» فردت وقالت ببراءة:

- «نعم، لأتصل بفاطمة وزينب». لم تعرف إيناس سبب هذا الاهتمام الزائد، إلى أن اصطحبتها أمها إلى المدرسة الجديدة لأخذ الزي والكتب.

نزلتا من السيارة:

- «هيا يا ماما»..

- «ما هذا المكان؟!»

- «مدرستك الجديدة».

- «أي مدرسة؟! لا أريد الانتقال من مدرستي»

- «بلى..هذه أفضل لك».

- «وفاطمة؟»

- «لا شأن لنا بها..هي في مدرسة وأنتِ في مدرسة».

صُدمت إيناس...ترجَّت أمها دون جدوى...رفضت أن تقيس الزي

وأن تحمل الكتب..

فور عودتهما إلى البيت أسرعت إيناس إلى أبيها، والذي كان يتجهز للخروج إلى المعرض:

- «بابا، لا أريد الانتقال من مدرستي، ماما تريد أن تنقلني رغماً عني...لا أريد يا بابا، لا أريد!...أرجعني إلى مدرسة فاطمة أرجوك».

- «لستُ أنا الذي نَقَلَكِ يا بابا...أنا قلت لهم اتركوا إيناس على راحتها».

- «لم يتركوني. أنت تستطيع إرجاعي يا بابا. أرجوك».

كانت إيناس تنظر بتوترٍ وخوفٍ إلى أبيها وهو لا يتحمل رؤيتها على هذا الحال.

في الواقع، كان سمير يستطيع إرجاع إيناس لو أراد، وكان سيرجعها لو تعلقت المسألة بصحتها كما أصر أول مرة. لكنه الآن يتنازعه طرفان:

فهو من جهةٍ لا يريد أن يكسر خاطر إيناس، بل وهو سعيد بتأثرها بفاطمةً -بمقدارٍ مُعَين- ويُحِبُّ أن تكون ابنته أحسن منه.

لكنه من جهة أخرى أصبح يشعر أن إيناس تبتعد عنه نتيجة تأثرها بفاطمة وعائلة عمها! لم ينسَ حين وضعَتْه أمام حقيقة نفسه...كانت من قبل تناديه كل قليل وتسأله سؤالاً أو تفتح معه موضوعاً بحماسة وانطلاق...الآن أصبحت أقل انشراحاً في حديثها معه، وأقل مبادرة إلى فتح المواضيع، تتصنع ابتسامتها، وفي نفسها منه شيء! لا يطيق سمير ذلك، لا يطيق أن يحس أن ابنته تختلف عنه وتبتعد عنه...لا بُدَّ لأحدهما أن يتغيرَ إذن حتى يعود الانسجام.

أما هو، فلا يريد أن يتغير! في انتباهته لقراءة الإمام فجر الجمعة

التي التقى فيها بأبي عزام أول مرة، كان سمير قد حدد أجلاً لانغماسه في الدنيا: أن يحقق نجاحـًا، ويجمع المال، ويعيش في رفاهية...والمبرر: حتى تستقر نفسيته فيُقبل على الله بصفاء ذهن.

ها قد تحقق هذا كله ولم تستقر نفسيته، بل لم يزدد من بحر الدنيا إلا عطشـًا!

وفقد مع ذلك الدافعية لتغيير نفسه. إذاً، لا بد لإيناس أن تتغير. هي تريد أن تحلق في سماء الحياة السوية، وهو يريد أن يبقى ملتصقـًا بطين الأرض. فالحل هو في أن تُقص أجنحتُها!

أدرك سمير كم هو بشع أن تَقُصَّ أجنحةُ فتاة بريئة ذات فطرة نقية وأن يقف في وجهها وهي تسعى إلى التحليق. لذا ، فقد برر لنفسه أنه ليس هو الذي يقوم بهذا الدور، بل حنان وأمها! فأقنع نفسه أن التزامه «الحياد» في ذلك يعفيه. لم يُرِد أن يتحمل مسؤولية هذا العمل، لكنه كان راضيـًا عن نتائجه!

نطق سمير أخيراً وقد تعلقت به عينا إيناس، وتشبَّثت بقميصه في ترجٍّ:

- «لا علاقة لي يا بابا، لستُ أنا من نقلك»...

أحست إيناس بخيبة الأمل، لم تستطع أن تقول شيئـًا...فأفلتت قبضتها عن قميص أبيها، وذهبت إلى غرفتها تبكي خذلان أبيها لها مرة أخرى..

بدأ الفصل الثاني...افتقدت فاطمة إيناس...أخبرت أباها فاتصل بسمير:

- «سمير، هل إيناس بخير؟ بدأت المدرسة من يومين ولم تأتِ؟!»

- «هي بخير...انتقلت إلى المدارس الدولية بجانب مول النجوم»...

صُدم أمجد:

- «لكن يا سمير إيناس وفاطمة كانتا تستفيدان من بقائهما معاً بشكل كبير..أصبحتا كالأختين»..

- «أعرف. لست مَن نقلها...أمها وجدَّتُها أصرتا على ذلك».

- «لماذا؟»

- «لا أعرف. اسأل أمها».

- «لا علاقة لي بأمها! أنت والدها والمسؤول عنها»

- «لقد تم النقل وانتهى يا أمجد. على كل فبإمكان فاطمة أن ترى إيناس في بيتنا. هذا بيت عمها فأهلاً وسهلاً بها في أي وقت».

فهم أمجد ما يجري فبدأ يغلي و قال بعصبية:

- «رأيتم تأثر إيناس بفاطمة، بدل أن تفرحوا بذلك تريدون أن تضعوا حداً لتأثُّرها وتُفَصلوها على مقاسكم! لن آتي بفاطمة إلى بيتكم».

- «أمجد، لقد تم النقل وانتهى الأمر. هذه ابنتي وأنا حُرٌّ فيها».

رفع أمجد صوته:

- «ابنتك هذه..أنت لا تستحقها!...السلام عليكم»...و أقفل الخط.

- «لا أستحقها؟! كيف لا أستحقها؟! لو لم أستحقها لما وَهبني الله إياها. كيف يقول أمجد هذا الكلام وهو رجل متدين يضبط ألفاظه؟!».

لم يدرك سمير أنه ليست إيناس فقط، بل كل النعم التي كان يتقلب

فيها حينئذ، لم يكن يستحقها! إذْ لا يؤدي شكرها. لم يدرك أن الله تعالى ينعم على عباده صالحهم وطالحهم بنعم كثيرة في هذه الدنيا التي ليست دار جزاء، ثم يحاسبهم عليها في دار الجزاء. هذا عدا عن أنهم قد يُجَردون من هذه النعم أو من بركتها في الدنيا إذا لم يشكروها. كان سمير في هذه المرحلة قد جُرد من لذة التمتع الهنيء بالنعم وإن بقيت هياكلها: مسكن، زوجة، عمل مربح، أموال، أولاد...بل إنه أصبح يُعذب بها! لكن وجود إيناس في حياته كان مصدر طمأنينة يشعره بأن «الله يحبني. لدي أخطاء، لكن فيَّ خير كثير، وأعمل أعمالاً كثيرة من الخير. لو كان غيري في مثل ظرفي وبيئتي لتراخى أكثر. لولا أني أستحق إيناس لما وهبني الله إياها».

لذا، تناسى سمير كلمة أخيه هذه واعتبرها فلتة غضب...مع أن هذه الكلمة ستقفز إلى ذهنه يومًا ما!

لم تنسجم إيناس في مدرستها الجديدة...بيئة لا تُذَكر بالله بل بازدواجية أبيها. لم تجد في المعلمات قدوات كالسابقات، ولا في الزميلات كفاطمة...

هناك شيء يؤلمها، فإيناس كانت تحب زميلاتها الجديدات بقلبها الحي الطري، وتشفق عليهن لأنها تحس أن «ريشهن يُنْتَفُ» كما يُنتف ريش أجنحتها! وكانت تتمنى أن ترفعهن معها إلى جنة الدنيا التي رأتها في بيت عمها أمجد. لكن إيناسًا كانت بحاجة في ذلك السن المبكر إلى أن تحلق هي أولاً قبل أن ترفع معها آخرين. فكان يعز على إيناس الطيوبة أن

تكون منقبضة عن زميلاتها لا تلقاهن بوجهها الطَّلق وضحكاتها البريئة و حديثها المرح الذي اعتادته في مدرسة فاطمة...تتمنى، لكن لا تستطيع، فقد بدأت -لأول مرة- تنكسر من الداخل!

جاءت حنان لابنتها بهدية: طقم صلاة وسجادة صلاة، كلاهما من حرير باهظَي الثمن، وتخلصت في المقابل من الحجاب الذي أهدته فاطمة مؤخراً لإيناس، مع إبقائها على طقم صلاة قديم من فاطمة أيضًا، ما دام سيستخدم في البيت فقط.

لم تستعمل إيناس شيئًا من هذا الحرير وبقيت على طقم فاطمة!

أصبحت إيناس تمضي وقتًا طويلاً في غرفتها...تفكر، وتقرأ أحيانًا في كتاب قصص أهدتها إياه زينب، أخت فاطمة الكبيرة.

افتقدها صادق وافتقد تعهدها له بنفجان القهوة والكلمات الطيبة المشجعة.

أتى إليها فرآها ممسكة بدميتها (هدى) التي أهداها إياها عمها أمجد...

كانت إيناس قد كبرت على لعبة كـ(هدى) تناسب من هُن أصغر منها سنًا، لكن (هدى) كانت تُذَكرها بعالَم عمها أمجد، وبفاطمة، والأيام الرائعة التي أمضتها في بيت عمها....

رآها صادق وقد ألبست (هدى) يانس الصلاة، تنظر إليها وهي سرحانة...

قاطع صمتها:

- «إيناس، ما لَكِ؟».

- «أريد العودة لمدرسة فاطمة».

حاول صادق أن يواسيها، لكنه لم يتعود على هذا الدور، فقد كانت هي التي ترفع همته.

ذهبت إيناس بعد هذه التطورات مع أبيها لزيارة أشرف. لاحظ أشرف تغيراً في ملامحها. قالت له كلمة سمعها سمير:

- «أشرف، لست وحدك من يعاني»...ظن أشرف وأبوه أنها تقصد من معه في مثل وضعه، وكانت تقصد أمراً آخر في الحقيقة!

لاحظت حنان وأمها حزن إيناس، ولم تتصورا أن نقلها من مدرسة فاطمة سبب كافٍ، خاصة وأن المدرسة الجديدة «أجمل» و «أفخم» و «أرقى». فخمّنتا أنها تغيرات نفسية مقدمة لليفاعة في هذه البنت ذات الأحد عشر عاماً. فذهبتا بها إلى طبيب نفسي...

استفزت الفكرةُ إيناس فاعتذرت للطبيب عن إجابة أسئلته.

وأخيراً، جاء موعد الـparty (الحفلة)...ارتفعت في الساعة الأخيرة قبل الخروج للحفلة صيحات حنان: «ستلبسين هذا الفستان».

- «لا يا ماما»

- «بل ستلبسينه»

- «لا أستطيع»

- «تيتا جاءت به خصيصاً لك من فرنسا. ستكونين به أجمل البنات»

- «غير مناسب، ليس ساتراً»

- «طيب هذا»

- «ولا هذا. لا أريد الذهاب للحفلة أصلاً»..

- «يا مجنونة! ستذهبين. إنها الpartyالتي انتظرناها طويلاً».

لم تكن حنان تدرك أن ما تقاومه في إيناس ليس «سلوكيات غريبة اكتسبَتْها من فاطمة»!

بل حياءٌ أنثوي مركوز في فطرتها التي لم تفسد.

بعد طول جدال، خرجت إيناس - على مضض - بفستان طويل كفساتين الأميرات الصغيرات، وذهبت في سيارة أمها، فالتقيَتا بسمير على باب القاعة كالعادة. دخل الزوجان (مُجمَّدا الزوجية!) مزهُوَّين بإيناس بينهما .

كانت رائعة الجمال بالفعل! مع براءة طفولية....

لكنْ شيءٌ واحد كان ينقصها: إنها الابتسامة التي تلاشت مؤخراً ولم تستطع أن تتصنعها ذلك اليوم.

حرص سمير على اصطحاب إيناس إلى إحدى الطاولات، فجاء ليأخذها من حنان، والتي مانَعَتْ لأنها كانت تدور بها على صديقاتها لتسمع منهن عبارات الإطراء على جمال إيناس.

كاد الزوجان يحتدان في الكلام أمام الناس، لكنهما تداركا الموقف محافَظةً على منظرهما. فدارت بها حنان قليلاً ثم سلمتها لسمير.

ذهب سمير إلى طاولة عليها رجل أعمال كبير، كان سمير يحرص على إنشاء علاقة تجارية معه على أمل أن يبدأ بعمل خاص بعيداً عن منظومة أبي عزام. قدم سمير ابنته لرجل الأعمال بفخر:

- «ابنتي إيناس».

- «ما شاء الله! كيفك عمو؟»

- «الحمد لله»

- «ما هذا الجمال سيد سمير؟ مثل الأميرات».

انتشى سمير! فهذه هي العبارة التي يريد أن يسمعها والانطباع الذي يريد أن يصل عن شخصيته: أنه رجل فخم راقٍ ورث المجد كابراً عن كابر، والدليل: إيناس!

حرص سمير على إبقاء إيناس بجانبه طوال الحديث مع رجل الأعمال، مع أنها مواضيع تجارية لا تُهِمها ولا علاقة لها بها، لكن سميراً كان يريدها كديكور في خلفية صورته لتُوقِع الإحساس بالفخامة في نظر «المعلم الجديد»!

كانت إيناس تحس طوال ذلك بالإهانة، وبسخافة والدَيها! لم تكن

إيناس تستمتع ولا تنتشي بعبارات الثناء على جمالها التي تسمعها من حضور الحفل، لأن رأيهم فيها ما عاد يهمها، ولأنها تذكرت كلمة سمعتها من جمان زوجة عمها أمجد وهي تناقش ابنتها زينب نقاش الأصدقاء حين قالت لها: «أنتِ جميلة، وكل البنات الصالحات جميلات بعفتهن ودينهن وأخلاقهن. نحن لا نجعل جمال القشرة الخارجية معياراً نحاكم إليه الناس...البنات اللواتي يفكرن بهذه الطريقة قد ينتهي بهن الأمر أن يكرهن أشكالهن ويفقدن تقدير ذواتهن لأمر لا يد لهن فيه». كانت إيناس تسمع هذا الكلام وهي تلعب مع فاطمة، لكنه استقر في نفسها وضبط لديها «المعيار» الذي تنظر به للناس...زينب كانت «عادية» بمقاييس جمال «القشرة الخارجية»، وكذلك كانت فاطمة...لكن إيناساً رأت منهما جمال روح وقلب لم تره في حضور الحفل كلهم! فكانت تشفق على من يُطري على جمالها الشكلي فحسب، وتحس أنهم محجوبون عن عالَم الجمال الذي عرفَته!

انتهت الحفلة، وعاد الثلاثة إلى الفيلا. دخل سمير غرفته لينام، ودخلت حنان غرفتها الأخرى، وذهبت إيناس إلى غرفتها. صلت العشاء، ثم لم تستطع أن تنام من التفكير. واتخذت إيناس قرارها.

تُرى، ما القرار الذي اتخذَتْه؟

وما الذي سيجري به القدر، والذي لم تتوقعه إيناس ولا والداها؟

فلنتابع...

يومٌ غير عاديّ!
إيناس (٢٢)

استيقظ سمير صباح اليوم التالي...تجهز للخروج إلى المعرض... لم يتعشَّ أمس مع إيناس فلا بد أن يفطر اليوم معها...وقف عند باب غرفتها، كانت تمسك بـ(هدى) وتنظر إليها وبجانبها حقيبتها المدرسية بدأت تجهزها لتنطلق ليومها العشرين في المدرسة الجديدة...

ناداها سمير بابتسامة:

- «أنوس، تعالَي نفطر سوية يا حبيبتي». رفعت إيناس عينيها في عينيه - بلا ابتسامة! - لبضع ثوانٍ...نظرةٌ غير معهودة، فيها غضبٌ يُلجِمه الأدب، على وجهٍ طفولي جميل...ثم قالت:

- «لست جائعة»...أجلسَتْ (هُدى) أمامها وعادت ترتب كتبها في الحقيبة. فهم سمير أن صغيرته مستاءة من عدم استجابته لمطالبها مؤخراً ومن خروجها للحفلة أمس...فكر في أن يجلس بجانبها على الأرض ليسترضيها، لكنه كبح حنان الأبوة وقال في نفسه: «لا بد أن تتعود، أريدها أن تنسجم معي ومع بيئتي لتبقى قريبة مني، لا أطيق بعدها ولا أن تكون مختلفة عني. مسألة وقتٍ وتتعود»...فمضى وأفطر وحده ولم تفطر إيناس.

جاء باص المدرسة فذهبت فيه إيناس ثم خرج سمير إلى المعرض. يومٌ عادي في المعرض، ويوم عادي لحنان التي استيقظت متأخرة وأفطرت وحدها أيضـًا، إلى أن جاءها اتصال من المدرسة أثار غيظها على

إيناس! فخرجت مبكرة إلى الحديقة وجلست في مواجهة البوابة تنتظر باص المدرسة، وأشعلت سيجارة - فقد بدأت تدخن مؤخراً - وجعلت تطقطق بقدمها على الأرض بعصبية.

مرَّت نصف ساعة على مكالمة المدرسة لحنان، فجاءت لسمير مكالمة من رقم لا يعرفه...كان مشغولا مع أحد الزبائن ففصل الخط، تكرر الاتصال مرة أخرى ثم الثالثة...فردَّ سمير بعصبية:

- «نعم؟!»

- «مِسْتر سمير والد إيناس؟»

- «نعم، من أنت؟»

- «مسؤول التواصل مع أولياء الأمور في المدرسة...مستر سمير، الباص الذي كانت فيه إيناس..إي...مممم».

بدأ سمير يضطرب: «ما له؟»

- «تعرض لحادث، فتم نقل بعض الطلاب لمستشفى الرحمة».

- «إيناس منهم؟»

- «نعم، للأسف»

- «ماذا جرى لها؟»

- «لا أدري مستر سمير».

أقفل سمير الخط، قال للزبون:

- «معلش، لدي ظرف طارئ»، وانطلق بهَلَعٍ إلى مستشفى الرحمة.

بعض الأهالي في قاعة الانتظار، جِراح أبنائهم وبناتهم بين خفيفة ومتوسطة...سأل عن إيناس:

- «في العناية المركزة»!...انطلق نحوها لكنه مُنع من الدخول... دقائق وخرج الطبيب يظهر عليه الإرهاق...

- «دكتور، أرجوك، كيف حالة إيناس؟»

- «من حضرتك؟».

- «والدها».

سكت الطبيب وتوجَّمت ملامحه، فشحب لون سمير وجف ريقه وكاد قلبه يقفز من صدره من شدة الخفقان!

لم يستطع الطبيب النظر في وجهه، فنظر إلى الأرض وقال:

- «أخي الكريم، اصبر...يؤلمني أن أقول لك: إيناس فارقت الحياة»!

اندفع سمير نحو الغرفة...دخل...طبيب يكتب تقرير الوفاة بحزن وممرضتان تبكيان...وإيناس على السرير، كأنها نائمة بهدوء، نزيف دماغي مع جروح سطحية في جانب رأسها، وعلى كرسيٍّ مجاور حقيبتها المدرسية و«يانس» صلاتها مضرَّجاً بالدماء...

لم يستوعب سمير الموقف...أحس وكأنه يتابع شيئاً يحدث لغيره، لا معه هو! اقترب من إيناس وقال:

- «أنوس، اصحي يا حبيبتي»..

لم تَصحُ أنوس!

هزها بيده برفق، قَبَّل جبينها الذي عليه بقايا دماء جفت:

- «أنوس، اصحي يا بابا...اصحي»...

جاءه الطبيب متأثراً:

- «اصبر يا أخي...الله يرحمها»...

التفت سمير وأزاح يد الطبيب عن كتفه وقال بعصبية:

- «هي ما ماتت، عمرها أحد عشر عاماً يا رجل، ما ماتت»، وابتسم ابتسامة هستيرية وعاد لإيناس...أمسك بيدها بين يديه...لا زالت يدها دافئة ناعمة:

- «أنوس حياتي، اصحي يا بابا»...

مرت بضع دقائق إلى أن بدأ سمير يستوعب ما يحدث، لكن دون أن يصدق! فقد كانت إيناس حيَّةً في كيانه.

بدأ يتصل بمن لهم علاقة ويقول:

- «إيناس تعبانة...في مستشفى الرحمة»، اتصل بحنان، والتي كانت قد اتصلت مراراً بالمدرسة مستغربة من تأخر باص المدرسة ولا يجيبها أحد.

ما المكالمة التي تلقَّتها حنان قبل ساعة وجعلتها تخرج غاضبة بانتظار إيناس؟ إنها مكالمة من مشرفة صف إيناس تقول لها فيها:

- «مدام، إيناس كانت إيجابية اليوم و أكثر انسجاماً مع زميلاتها، نفسيتها متحسنة، ونحن مسرورون بذلك، لكنها كانت ترتدي يانس صلاة مبررة ذلك بوجود زملاء ومعلمين ذكور! كما تعلمين مدام، هذا

يجعلها odd عن الأخريات».

لقد كانت إيناس سعيدة وإيجابية ذلك اليوم لأنها قررت أن تصبح «فاطمةً جديدة» لـ «إيناسات» مدرستها! قررت أنْ ليس لأحد أن يمنعها من الارتقاء نحو الكمال، وليس لأحدٍ أن ينتزع منها فطرتها. المعاني التي يمثلها الحجاب لم تكن قابلة للتأجيل بالنسبة لإيناس، ولا تريد أن تتعود على نسيانها ولا أن تعيش بدونها. كانت أمها قد أخذت منها الحجاب (هدية فاطمة) فلم تجد إيناس لتعيش هذه المعاني إلا يانس صلاتها، فخرجت به وإن كانت صغيرة. ضحك زميلاتها في البداية حين رأينها باليانس وظنَّها تمازحهن، لكنهن بعد ذلك سمِعْنَ منها كلاماً يخاطب شيئاً عميقاً كامناً في نفوسهن.

لم تدرك حنان شيئاً من هذه المعاني! كل ما أهمها هو أن مظهر ابنتها كان odd ذلك اليوم، فيالَلعار مما سيقوله صديقاتها حين يَعْلَمْنَ بذلك! لذا فقد كانت تنتظر رؤية ابنتها بهذا المظهر «الفاضح» بالنسبة لها حين تنزل من الباص! لتوبخها وتُحذرها من «تقليد فاطمة» مرةً أخرى!

استريحي يا حنان! فقد ماتت إيناس ولن تكون هناك «مرةٌ أخرى» أصلاً!

جاءت حنان إلى المستشفى، فأصيبت بنوبة هلع عندما علمت بوفاة ابنتها، ثم جاء أبو عزام وزوجته وإخوة سمير: أمجد وسعيد وعاصم وتالة، وأبناؤهم...صدموا جميعاً! فقد كانت إيناس محبوبة للجميع على

الرغم من قلة خلطتها بأهل أبيها والمفروضة من أمها وجدتها.

كان سمير مُتجمِّداً، لا يبكي، لا يتكلم، يمسك بحقيبة إيناس ويانسها الملطخ بالدماء. فتولى إخوته إجراءات تجهيز إيناس للدفن...

عند نظرة الوداع، كان المشهد الأكثر إيلاماً هو مشهد فاطمة: لم يسيطر عليها الخوف كسائر الأطفال، بل جلست عند رأس إيناس تقبلها ثم ترفع رأسها والدمع ينهمر من عينيها الحمراوين، ثم تنكب عليها تقبلها ثم ترفع رأسها وتُتَمْتِم بكلام وتبكي.

كانت إيناس بجمالها، كأنها نائمة بهدوء، بيضاء بياض الكفن الذي يلفها...بجمالها، لكن...بلا حياة!

صلى عليها أبوها وأعمامها وصادق، بل وحتى خالاها، الا أبا عزام وزهيراً اللذَين بقيا خارج المسجد.

دُفنت إيناس..أنزلها عمها أمجد وأخوها صادق إلى قبر بجانب قبر جدتها...ثم بقي صادق عند قبرها يبكي بصمت إلى أن قوَّاه أمجد على الوقوف على رجليه ليمضي مع سمير.

لم يظهر من سمير خلال هذا كله ما يثير الشفقة عليه! فقد كان متجمداً واجماً، يرد على من يعزيه باختصار وجمود!

إلا أنه كان يشعر بشعور غريب! كان يتمنى لشمس ذلك اليوم ألا تغرب...غروبها يعني أن ملف ذلك اليوم قد طوي، وكُتبت إيناس في موتاه، فستذهب بلا رجعة! كان لدى سمير بقية أمل أن يسمع صوتاً يقول: «حصل خطأ! التي ماتت ليست إيناس...ها قد وجدنا إيناس»

كانت الشمس تغرب على المقبرة، والظلام يخيم شيئاً فشيئاً، ومعه ظلام يخيم على قلب سمير ويقتل أمله في أن يسمع هذا الصوت! فيزداد توتراً واضطراباً...

قُتل هذا الأمل تماماً عندما أعلن المعلم أمام الحضور عن فتح بيت عزاء في قصره...ومع ذلك، بقي سمير واجماً مجمد المشاعر... فاستقل سيارته هو وصادق وذهبا لبيت العزاء..

استُقبل المعزون. بقيت حنان في قصر أبيها، وعاد سمير وصادق إلى الفيلا. دخل صادق لينام من شدة التعب وبقي سمير الذي مرت عليه أحداث ذلك اليوم سريعة جداً، والذي لم يعد من إيناس إلا بحقيبتها ويانسها المُدمى.

كيف كانت تلك الليلة الفارقة في حياة سمير؟

فلنتابع...

«خيبت ظني فيك!»
إيناس(٢٣)

وقف سمير على باب غرفة إيناس (رحمها الله!)...نظر إلى المكان الذي كانت فيه في الصباح حين التقت عيناها بعينيه ولم يكن يدري أن تلك ستكون آخر نظرة...دخل غرفتها بشيء من الخوف! وضع الحقيبة حيث كانت في الصباح، ثم بدأ يبحث في دواليب إيناس، في علب المكياج، في زوايا السرير، تحت مخدتها، بل وتحت السرير أيضاً! عن ماذا كان يبحث؟! لقد تذكر سمير يوم تركت أمه وصية في الدولاب بجانب سريرها قبل وفاتها. لم يُطق سمير أن تكون نظرة إيناس له ذلك الصباح هي آخر عهده بها، فكان يبحث عن أية ورقة أو قصاصة مكتوبٍ عليها (زعلانة منك يا بابا لكن أحبك)! وتذكر القلوب التي كانت ترسمها في صغرها وتكتب داخلها: (بابا)...

بحث سمير طويلاً فم يَجِد، كما لم يَجِد قصاصة مشابهة بحث عنها من قبلُ في غرفة أمه!

فاضطر أن يقرأ الرسالة في يانس إيناس المضرج بالدماء، وقد تصوره حول وجهها بعينيها الحازمتين حين قالت له: «لست جائعة»... قرأ رسالة تقول:

- «بابا، لقد خيَّبتَ ظني فيك!

أنا لست جائعة لفطور الخادمة، بل إلى أفراح روحي، إلى بيتٍ يظلِّله الإيمان والمودة والرحمة...

حياتكم لا تعجبني، مباهاتكم معارفَكم لا تعنيني، حريركم خشن الملمس، أضواؤكم تُظلم صدري...

دعُوني، إن لم تحَلقوا معي فدعوني. لستم سعداء، فلماذا تريدون أن تسحبوني إلى دنيا تعاستكم؟!

أنا إنسانة كرَّمَها خالقها، لست ديكوراً لأحد، ولا جزءاً من برستيج أحد، وليس من حق أحد أن يقص أجنحتي حين أشتاق إلى التحليق في فَلَك محبة بارئي. ليس من حق أحد أن يفرض علي ما يخالف فطرتي وأشواق روحي.

بابا، ألم تُدْرِك بَعْدُ أن في هذه الحياةِ حياةً؟! حاولت أن أدلك عليها، أشدك إليها، أشاركك حتى آنَسَ بك فيها...«بابا، تعال نصلي معاً»، «بابا، بيتنا ما عاد يطاق، اترك انشغالك قليلاً والتفت لترميم وضعك الأسري المتهالك»، «بابا، اترك عالَم جدي وتعال نبدأ حياةً طيبةً بالحلال»... وأنت تأبى إلا أن تبقى في قبر غفلتك...دعني إذن ولا تحبسني معك!

ترجيتك: بابا، رُدَّني إلى مدرسة فاطمة، أبقني على علاقة بعالم عمي أمجد وأسرته التي وجدت عندها ما فشلت أنت وأمي في تقديمه لي... وأنت ترفض أن تقوم بدورك وتعيدني لمدرسة فاطمة، لأنك تريد أن أكون مثلكم، وأن يختنق الخير الذي فيَّ بعدما زاد عن الحد الذي يوافق أهواءكم!

بابا، أدبي يُلجِم لساني، لكني لا أملك منعَ عينَيَّ أن تقولا لك: خيَّبْت ظني فيك».

قرأ سمير الرسالة مُوَقَّعة بدم إيناس ومختومة بختم القَدَر مكتوباً تحته: «لذلك...أنت لا تستحقها»!

رنَّت عبارة أمجد هذه في كيانه بشكل مفزع...هز سمير رأسه بإنكار: «لا، لا»...لم يُطِق تصديق الرسالة، لم يطق أن يتصور أن إيناس أُخذت منه لأنه لا يستحقها...لم يطق أن يتصور أن ابنته ماتت مجروحة منه كما ماتت أمه من قبل، وأنه لم يتعلم من وفاة أمه عبر اثنين وعشرين عاماً من الغفلة، بل طعن ابنته أيضا! لم يُطِق، لكنه لم يترك اليانس المدمى من يده أيضاً...

ذهب وتناول حبة مهدىء لينام، فقد كان متعباً جداً نفسياً وجسدياً... ذهب إلى سريره، تمدد عليه، ووضع اليانس بجانبه، أطفأ الضوء...ما إنْ غَفَتْ عيناه قليلاً حتى سمع صوت إيناس: «بابا، ماما، قوما نصلي الفجر سوية»...قام كالمصروع: «إيناس؟! أين أنت يا بابا؟» أنار الضوء: «إنها إيناس، لقد سمعتها!»...تجول في البيت يبحث عن إيناس....«لعل كل ما أعيشه الآن مجرد كابوس»...«سأصحو من نومي الآن لأجد إيناس»...

لم يجد إيناساً...فعاد إلى غرفته، حاول أن ينام، لم يستطع...أخذ اليانس، دخل غرفة إيناس...تمنى لو أنه حين نظرت إليه تلك النظرة في الصباح، لو أنه جلس بجانبها على الأرض واسترضاها ووعدها بأن يفعل ما تريده منه لتموت على الأقل راضية عنه، لا كما ماتت أمه.

تذكَّر حين قالت لأشرف «لست وحدك من يعاني»، وفهم الآن للمرة الأولى أنها كانت تعني نفسها ومعاناتها مع هذا الأب العاق!

تذكر رسالة علاء (المشتري المغشوش) قبل اثنين وعشرين عاماً: (الله ينتقم منك).

فَهِم لماذا كانت إيناس تضع اليانس على دميتها (هدى) حين رجعا من طلبة ابن أخيه (عبد الرحمن)...انحنى سمير وأخذ (هدى) وألبسها

اليانس كما كانت تفعل إيناس، وتذكر أجمل اللحظات، حين كانت تأتيه في الصباح محتضنةً (هدى) وتفاجئه بالوقوف أمامه وهو مشغول، فيرفع عينيه ليرى وجهاً كالقمر بابتسامة طفولية خلابة. بسمة (هدى) كانت تشبه بسمة إيناس، لكن بلا حياة! حين رأى اليانس المدمى على الدمية الجامدة، واجه أخيراً الحقيقة المرة: أن الزهرة الوحيدة في صحراء حياته قد اختَفَتْ فجأة من المشهد، وأن حياته أصبحت - ببساطة - : بلا إيناس!

هنا، انفجر بركان سمير، وبكى بحرقة شديدة، وعاد بذاكرته إلى أيام الطفولة يستعرضها وهو ينظر إلى (هدى) ويانسها المدمى...تذكر يوم كانوا مجتمعين هو وإخوته مع والدَيهم حول (الصوبَّة) في يومِ شتاءٍ بارد يشوون الكستناء، حين أخذ دمية تالة وقربها من الصوبَّة فصاحت وقال له أبوه: «سمير، كفى سماجة»، تذكر والده التاجر التقي الذي كان يحرص على الرزق الحلال، وكثرة تعبه مع سمير وهو يُذَكره بالصلاة... تذكر يوم ارتدَتْ تالة شالاً وجلباباً لأول مرة ودخلت على أبيهم مبتسمة فضمها أبو السعيد وقبل رأسها...تذكر بيتهم البسيط النظيف العامر بالإيمان وبتلاوة أمه الجميلة للقرآن...

كيف نسي هذه البيئة الطيبة النظيفة التي خرج منها وانتقل إلى الأوحال؟!

أحس سمير للمرة الأولى أنه، ومنذ أكثر من عشرين عاماً، كان قد دخل مضمار السباق الخطأ ولا زال يركض فيه منذ ذلك الوقت، إلى أن اعترض طريقَه شيء اسمه (إيناس)، لكنه لم يقف، بل استمر يركض إلى أن هشَّمها وتهشَّم هو معها.

أكثر من عشرين عامـًا، بدأت بوفاة أمه وهو منغمس في الدنيا يطمع في دعم أبي عزام، وانتهت بوفاة ابنته وهو أيضـًا منغمس في الدنيا يبيع في معرضه...وفي الحالَين يقفل الخط لأنه...مشغول!

حَدَثان متشابهان، بل وفي المستشفى ذاته! حدثان كأنهما شاهدان على طرفي قبر...المدفون فيه هو سمير نفسه! فقد مرت تلك الحقبة وكأنه ما عاشها، بل أحس أن اليوم الذي أسرع فيه للمستشفى ولم يدرك أمه أيضـًا كان بالأمس القريب!

كانت إيناس بمثابة مِنْسأة سليمان التي يتكىء عليها سمير ويظل يقنع نفسه بسببها أن فيه خيراً وأن الله يكرمه وأنه «أفضل من غيره».

فلما ماتت إيناس، انهار كل شيء.

لم يستطع النوم...سمع أذان الفجر، دخل واغتسل وتوضأ ثم انطلق بسيارته إلى المسجد الذي يعلم أن أمجد يصلي فيه. وقف يصلي وهو يتمالك نفسه من البكاء بصعوبة...ثم انتظر أخاه عند باب المسجد..خرج أمجد، رأى سميراً، مكسور الخاطر ذابل العينين، كالطير المنتوف، فعلم أنه بكى طويلاً تلك الليلة...فزال حنق أمجد عليه وأحس أن سميراً يمر بلحظةٍ رحمانية مختلفة.

مد سمير يده مصافحـًا أخاه وقال:

- «ممكن آخذ من وقتك قليلاً؟»

رد عليه أمجد:

- «كُلِّي لك يا أخي».

اهتز سمير من الداخل، فهو ما كان يعرف أحداً يحبه بعمق ويهتم به بصدق أكثر من إيناس، فلم يتوقع أن يسمع عبارةً ودودةً كهذه بعد وفاتها.

ذهب الاثنان إلى بيت أمجد...أم عمر والأولاد يصلون...انتظر سمير في غرفة الضيوف ريثما حضَّر أمجد فنجانَي قهوة...وقف سمير ينظر إلى المكان الذي جلس فيه من قبل ليستنصح أمجد، بعد طلبة ابن أخيه، يوم جاءته إيناس وفاطمة تترجيانه لتبيت إيناس ببيت عمها...تذكر ملامح إيناس وهي تقول له باستعطاف الأطفال: «يا بابا يا بابا خليني»...تذكر نبرتها الحلوة...لقد كان هذا كله قبل حوالي عام...

دخل أمجد بالقهوة...جلسا...التقت عيناهما...طأطأ سمير رأسه وهزه كمن يقول (لا)...

قال له أمجد:

- «فضفض يا أخي».

بصوت متحشرج متعب قال سمير:

- «لا أعرف من أين أبدأ»...رفع رأسه و أسنده على ظهر مقعده وهو يلتقط نفساً عميقاً ثم يزفره بحرارة...تمالك نفسه بصعوبة لئلا يبكي أمام أمجد ثم قال:

- «أحس أن حياتي انتهت برحيل إيناس».

- «بل ستبدأ».

- «أية بداية؟! لقد مِتُّ معها».

- «بل كنت ميْتا وستحيا بإذن الله لتكون ممن وصف الله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾».

- «معان جميلة، لكن لا أظنني من أهلها...أحس أنني لن أتغير».

- «هذا قنوط من رحمة الله».

- «ليس قنوطًا...أعلم أن الله رحيم، لكن...».

- «لكنْ هذا الشيطان يقنطك بطريقة أخرى، يقول لك: بلا شك، الله رحيم، لكنك لست من أهل رحمته ولن يوفقك لإصلاح نفسك».

- «أمجد أنت لا تتصور حجم المشكلة، أكثر من عشرين عامًا كنت فيها كالمخدَّر...كالمضروب على رأسي...وكأنني لم أصحُ إلا الليلة! لم أصدق ما كنت أفعله! لم أصدق كيف ضحكت على نفسي وخادعتها طوال هذه المدة! ومع ذلك...لا أتصور أن شخصًا بقي على هذا الحال كل هذه المدة سيتغير تغيراً حقيقيًا».

كان سمير يقول ذلك وهو يتذكر كيف نصحه أخوه المرة السابقة ثم عاد إلى ما كان فيه مع أبي عزام خلال شهورٍ قليلة.

رد أمجد:

- «عشرون عامًا؟ لم تكن فيها أسوأ من أناس حاربوا دعوة النبي صلى الله عليه وسلم قرابة العشرين عامًا أيضًا، ثم آمنوا بعد فتح مكة، فانقلبوا انقلابة هائلة حتى ضحوا بأنفسهم وأموالهم في سبيل نشر الدين الذي أحبوه».

صمت سمير...هو يعرف هذه المعلومة لكنه استغرب الآن كيف يكون هذا بالفعل! عاد فقال:

- «هؤلاء أناس كان بينهم وبين الإيمان حجاب...رُفع الحجاب، فدخل الإيمان قلوبهم وأنارها، فتحولوا هذا التحول. أما أنا فمؤمن بكل

الحقائق من قبل، لكن لم يكن إيماني بها يؤثر فيَّ، و إن أثَّر فلا يطول. ليس هناك شيء جديد علي لا أعرفه ليغير فِيَّ من الداخل».

«المعلومات الجافة في قلبك الله قادر على أن يبث فيها الحياة كما يحيي الأرض بعد موتها».

– «لكل شيء مقدمات ومؤشرات...لا أرى في داخلي أية بادرة أمل لتغير حقيقي ثابت».

– «سمير، كنت تنظر إلى نفسك بعُجب مغتراً ببعض أعمالك الصالحة ومقللا من شأن عيوبك. والآن تنظر لنفسك بسلبية شديدة وتحس بعدم صلاحيتها للهداية! ألا تلاحظ أن هذا الشيطان، ينقلك بين غرور و يأس و يبعدك عن الله في الحالتين؟!».

– «أمي ماتت ساخطة علي يا أمجد. الليلة تذكرتُ كيف أهملتها في آخر أيامها...تذكرتُ وصيتها التي لم تذكر فيها اسمي...عاقُّ الوالدين لا يوفق...كنت أظن أنني استثناء من هذه القاعدة، إلى أن حُرمْتُ من إيناس. لم أخبرك بأمر: هل تعلم ماذا كنت أفعل يوم كنتم تتصلون بي لآتي إلى المستشفى وأمي تحتضر؟ كنت مع المْعلم، أطمع في رضاه، وأسمع نكات ابن سكرتيره السخيفة، وأقفل الخط على اتصالاتكم ببلاهة!».

ابتسم سمير ابتسامة السخرية والغيظ من نفسه وتابع قائلاً:

– «بينما كنتم أنتم حول أمي تكسبون رضاها قبل أن تموت. لم أخبرك بهذا...من تموت أمه وهو على هذا الحال...محروم».

هنا، عاد اليأس فخيم على قلب سمير وأحس أن موت إيناس بداية العقوبة الصارمة...فقَسَتْ ملامحه وتلاشى شعوره بالحاجة إلى البكاء،

بل وتضايق من نفسه أنه أظهر ضعفه أمام أخيه وهمَّ بالانسحاب من الجلسة.

اقترب منه أمجد، أمسك بيده، وابتسم قائلاً:

- «وأنا أيضاً لدي أمرٌ عن أمي لم أخبرك به منذ يوم وفاتها، وهو متعلق بك».

التفت سمير باهتمام:

- «قالتْ عني شيئاً؟»

- «نعم».

- «ماذا قالت؟»...أحس سمير أنه سيجد لدى أمجد بديلاً عن «القصاصة» التي بحث عنها في غرفة أمه يوم وفاتها...

قال أمجد:

- «كان يكفي أن أقول لك أن الله يغفر لمن تاب من الشرك فكيف لا يغفر العقوق. لكن سبحان الله! كأن الله ييسر لك الأسباب ليحاصرك برحمته فلا تجد بداً من التوبة!».

- «ماذا حصل؟ أخبرني!»...

ما هو الأمر الذي خبأه أمجد عن سمير منذ وفاة والدتهما والذي سيخبره به اليوم؟

فلنتابع.

سر أمجد
إيناس (٢٤)

تعلق نظر سمير بأخيه أمجد:

- «ماذا حصل؟ أخبرني!»

سكت أمجد مبتسمًا وهو يتفحص عيني سمير ليرى إن كانت الفرصة قد حانت ليخبره بما قالته أمهما قبل وفاتها....

- «تكلم..ماذا قالت أمي؟»

- «صباح ذلك اليوم، قبل أن تتطور حالة أمي كثيراً ويأتي إخوتنا، كنت أقرأ عليها القرآن ويدي على جبهتها. بعدما انتهيت من القراءة بقليل قالت لي: (أمجد، لا تترك أخاك سمير)».

حملق سمير بعينيه:

- «هي قالت لك هذا؟!».

- «نعم. قلت لها: أمي لا تغضبي من سمير أرجوك...فتنهدت وقالت: (إيه...يبقى ابني في النهاية...الله يهديه ويرضى عنه)».

رفَّتْ شفتا سمير، أخذته رعشة، وانفجر في البكاء كالطفل الصغير... على الرغم من قسوة قلبه خلال الفترة الماضية، إلا أن ذكرى إهماله لأمه إلى أن ماتت كانت جرحًا عميقًا في نفسه يتهرب منه ويتغافل عنه، لكنه لا زال موجوداً ويسيء نظرته إلى نفسه، حتى وإن بدا أنه نسي أمه وتقصيره في حقها صبيحة الليلة التي قرأ فيها وصيتها في بيت سعيد، حين استقيظ

على مكالمة سكرتير المعلم فهبَّ ليتابع تجهيز المعرض...لكن جرحها كان لا يزال في قلبه عميقاً..

كان سمير في سنواته يجمع المتناقضات! يحس أن الله يحبه بـ«دليل» النعم التي أنعم بها عليه، وأنه «يستحق» توفيق الله له لأنه «أفضل من غيره»، وفي زاوية أخرى من كيانه جرح أمه والإحساس لأجله بأنه من أهل الحرمان!

الآن، حين سمع «يبقى ابني في النهاية...الله يهديه ويرضى عنه»، امتزجت لديه مشاعر المحبة لأمه، والامتنان لها، والحنين إليها...وبدأ كابوس الحرمان يتبدد.

- «احلف لي أنها قالت ذلك»

- «واللهِ العظيم لقد قالت ذلك»...

كان أمجد صادقاً في حَلِفه..لكنه لم يخبر سميراً بكل ما حدث في تلك اللحظات! أخبره بجزء من القصة لا بالقصة كلها..

ما الذي كان قد حدث بالفعل؟

بعدما أتم أمجد قراءة القرآن على أمه قالت له:

- «أين أخوك؟»

- «أخي مَن؟»

- «الأكبر منك»...

- «عندي ثلاثة إخوة أكبر مني»...

كانت أم السعيد تتعمد تجنب اسم سمير غضباً منه، وأمجد يريد أن

ينتزع ذكر اسمه منها!

- «سمير يا ولد، سمير»...

- «أم السعيد، يا صاحبة أطيب قلب على وجه الأرض، لا تغضبي من سمير أرجوك»..

- «أناني، فقير المشاعر، لا يفكر إلا في نفسه»...قالتها متألمة وهي تتذكر «يوم الجوافة»!!

- «هو مشغولٌ عنك، ولا عذر له في ذلك، لكنه يحبك واللهِ»...

- «لا أظن»

هنا، كذب أمجد كذبة مباحةً ليصلح قلب أمه على أخيه:

- «بلى يا حبيبتي...أمس قال لي وأنت نائمة: «أنا قلق على أمي وشاعرٌ أني مقصرٌ في حقها»

- «هو قال لك ذلك؟!»

- «نعم»...

سكتت أم السعيد مستغربة.

- «سمير يحبك جدا لكنه لا يستطيع التعبير يا حبيبة»...

- «شهر تلو الشهر، وسنة تلو السنة ولا يستطيع الخائب أن يعبر ؟!»

- «حتى في المدرسة، كان يأخذ صفراً في مواضيع التعبير»....قالها أمجد راجيا أن يُضحك أمه لكنها لم تضحك.

- «أم السعيد، ادعي لسمير»

سكتت أم السعيد...

- «أمي، لا تغضبي من سمير أرجوك...سمير أحوجنا إلى رضاك.... لا تدعيه يخوض غمار الحياة دون رضاك أرجوك...نريد أن نجتمع سوية في الجنة مع أبي السعيد، لا نريد أن يتخلف منا أحد»...

هنا، رقَّت عينا أم السعيد، ذرفت دموعها وهي تتصور مشهد الاجتماع بأبي السعيد وأبنائها في الجنة، ثم تنهدت وقالت:

- «إيه...يبقى ابني في النهاية...الله يهديه ويرضى عنه».

فرح أمجد فرحًا شديداً:

- «الله يسعد قلبك»، وانكب على يدي أمه يقبلهما.

في الواقع، كانت أم السعيد قد تعمدت أن تتكلم عن سمير بحضور أمجد...فقد كان في قلبها غصة شديدة من سمير، وتخاف أن تموت وهي غير راضية عنه... وأحست أنها قست عليه في الوصية التي كتبتها قبل يومين. فكانت - برحمة الأم - تريد أن تُنَفِّس عن شعورها و«تفش قلبها» لأحد يساعدها في انتزاع كلمة رضًا عن سمير...

أخذ أمجد من هذا المشهد ما يلزم لترقيق قلب سمير وخبَّأ عنه ما قد يحزنه....ورقَّتْ عينا أمجد لمشهد سمير وهو يبكي ويعيش أجواء كلمة أمه «يبقى ابني في النهاية...الله يهديه ويرضى عنه»...

التفتَ إليه سمير:

- «لماذا لم تخبرني بذلك من قبلُ يا رجل؟!».

- «بصراحة، لم يكن شيء ينفع معك وأنت في غمرتك...لم أتحمل فكرة أن أحدثك عن هذا الموقف فتهز رأسك بفتور كعادتك المستفزة و تتأثر قليلاً ثم كأن شيئًا لم يكن! ادَّخرتُ هذا الأمر كحبلٍ أخير أشدك

به عندما تخف عنك قبضة الغفلة...هل تذكر يوم زرتك لأنصحك بعد عرسك، وبدأت أحدثك عن يوم وفاة أمي؟ كنت أنوي أن أبشرك بهذه الكلمات، لكنك كنت صادّاً مُسْتَغْلِقاً ولم تعطني الفرصة».

- «يعني لم يَفُت الأوان؟».

- «بل قد آن الأوان!»

- سكت سمير يتفكر فقطع أمجد صمته:

- «سمير، ألا تتمنى أن ترى أُمنا وإيناساً مرة أخرى؟».

- «بلى، طبعاً».

- «أبوانا ماتا على الإيمان فيما نحسبهما، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، أيْ إنْ دخلت الجنة فسيرفعك الله إلى منزلتهما وإن كانا خيراً منك في العمل. وإيناس طفلة في الجنة بإذن الله. فشمِّر عن ساعديك وسابق في الخير لتلتقي هناك بمن تحب لقاء لا فراق بعده».

ألقت هذه الكلمات دفقة أمل كبيرة في قلب سمير...«ألتقي بوالدي، وبإيناس؟! في الجنة؟! بلا فراق؟!»...لم تكن كلمات «الآخرة» و «الجنة» تعني الكثير لسمير من قبل، والآن يحس للمرة الأولى أن أبوابها فتحت له وأنه يشتاق إليها!

قرأ أمجد ذلك في عيني سمير، فأراد أن يرتقي به فقال:

- «سمير، هنالك من يستحق أن تشتاق إليه أكثر، وتحرص على لقائه أكثر...إنه الله الذي أحب لك الخير وأن تعود إليه!»

- «أحب لي الخير؟»

- «نعم، أخذ منك إيناس لتصحو، وشرح صدرك لسماع هذا الكلام، ولو تركك على ما كنت عليه لَلَقيته وهو عليك غضبان».

- «يعني ما يحصل معي فيه رحمة وليس عقوبةَ كراهيةٍ من الله لي؟!»

- «طبعًا فيه رحمة! ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾، ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾، قال الله: (ومن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة)...ألا ترى الرحمة في ذلك كله يا رجل؟! دورك أنت أن تحول هذا الحدث الأليم إلى حياة جديدة ليصبح رحمة لك».

لم يكن سمير يتقبل هذا الخطاب من أمجد برحابة صدر سابقًا، بل كان يستثقله ويعتبره (إلقاء دروس) كما قال لأمجد حين زاره بعد العرس...أما بعد موت إيناس، فسمير إنسان فقد احترامه الزائف لنفسه، وفقد الدافعية لحياة ما عاد يراها تستحق أن تعاش لمجرد أن تعاش... فلم يكن ليتقبل سماع آراء شخصية أو مقترحات...كان يريد شيئًا يربطه بالحقائق الكبرى فيعطي لحياته مغزىً ومعنىً، ويوجه بوصلته وجهة لا شك فيها ليشعر بالأمان. فما كان ينفع معه إلا الوحي.

وبالفعل، أحس سمير نفسه محاطًا برحمة الله من كل جهة، فاستسلم بطمأنينة...التفت إلى أمجد وقال:

- «ما الخطوة الأولى؟»

- «اترك أبا عزام تمامًا»...هذه المرة لم يمانع سمير بشدة، ولم يقل

عبارته القديمة «سأخسر كل شيء»، بل قال بانكسار:

- «أتركه قبل أن أُحَصِّل منه حقي في السيارات التي اشتريتها على الأقل؟!».

- «أعلَمُ أن هذا مؤلم. وأنا لا أقول لك تنازل عن حقك، لكن ليست هناك الآن طريقة سليمة لتحصيل حقك منه. إن لم تأخذ حقك منه في الدنيا فستأخذه عند من لا يُظلم عنده أحد سبحانه. المهم الآن أن تخرج من رمال أبي عزام المتحركة».

هز سمير رأسه وقال:

- «أصلاً أنا كرهت التعب في الأسواق وكرهت التجارة كلها».

قبض أمجد على يده:

- «لا يا سمير! إصلاح نفسك لا يعني كراهية العمل. أنت أصبح لك اسم في السوق بالفعل، فاستثمره وافتح معرضاً خاصاً بك».

- «معرض؟! أي معرض هذا مقارنةً بالذي أنا فيه؟!».

- «لا تقارن يا أخي! الذي أنت فيه ليس مكانك الصحيح، فلا تقارن نفسك به. ابدأ بداية بسيطة بجدٍّ واجتهاد واحرص على أن يكون كسبك حلالاً وسيبارك الله لك. سمير، تذكر: مشكلتك منذ الصغر قلة الصبر، جَعَلَتْكَ تحرص على القفزات الكبيرة ولا تقنع بالنمو البطيء، وقد رأيت النتيجة»...

تقدم أمجد لطرف الكنبة متأهباً للقيام ليُحضر شيئاً:

- «اسمع...لدي عشرون ألف دينار زائدة عن حاجتي. خذها واستعن بها في تجارتك الجديدة».

- «لا، لا...شكراً».

- «بل ستأخذها...لا أحتاجها..تَرُدُّها لاحقاً».

رفض سمير بشدة. طُرق الباب...دخلت زينب وفاطمة وعمر وأمهم يعزون سميراً. سلم سمير على الأولاد...عندما جاء دور فاطمة، نظر إليها...عضَّت شفتها محاولة كتم بكائها...ثنى سمير ركبتيه وأمسك كتفيها بين يديه وقال لها:

- «فاطمة، عمك سيتغير...وسنلتقي بإيناس مرة أخرى بإذن الله».

هزت فاطمة رأسها وتدحرجت على خديها دموع هادئة.

خرج سمير من بيت أخيه عازماً هذه المرة على أن يصلح نفسه بالفعل، مهما كلف ذلك من ثمن...

عاد إلى الفيلا...نام بعمق...استيقظ قبيل العصر فصلى الظهر ثم ذهب إلى غرفة صادق:

- «بابا، صادق، تذهب معي إلى المسجد؟»...أحس صادق بتغير في ملامح أبيه...لم يتلكأ...ذهبا بصمت. بعد الصلاة، مر سمير بمطعم، اشترى سندويشتين له ولولده، ثم تابع بالسيارة إلى مكان مرتفع خالٍ من المباني مُطِلٍّ على المدينة. جلسا بصمت...رقت عينا صادق لذكرى أخته، فربَّت سمير على كتفه...فكر أن يضم ولده إليه، لكن لا زالت العلاقة بينهما جافة ولم يعتَدْ سمير أن يعامل ولده بعاطفة. قاربت الشمس على الغروب فقال سمير:

- «تعال نتجهز للعزاء»...تجهزا وانطلقا.

لم يحدث كلام بين سمير وأبي عزام، إلى أن انتهى العزاء وهمَّ سمير

بالانصراف مع صادق فقال المعلم:

- «حنان منهارة. سآخذها أنا وسوزان يوم الخميس إلى جولةٍ في أوروبا لتخرج من هذا الجو...صادق، تحب أن تأتي معنا يا جِدُّو؟»..

- «لا، شكراً، الاختبارات اقتربت».

تابع المعلم موجهًا كلامه إلى سمير دون أن ينظر إليه:

- «سأذهب للمكتب غداً صباحًا لأرتب الأمور قبل السفر»... ومضى المعلم.

ماذا حدث بين سمير وأبي عزام في اليوم التالي؟

وما الحرب التي خاضها الشيطان على قلب سمير من جديد؟

وكيف واجهها أمجد؟ ومن انتصر في النهاية؟

فلنتابع...

الأغلال

إيناس(٢٥)

في اليوم التالي، انطلق سمير إلى مكتب المعلم...طَرق الباب..

- «تفضل»...

دخل سمير دون تحية، مشى نحو المكتب، بقي واقفـًا، والمعلم ينظر باستغراب...نظر في عينَيْ سمير...نظرةُ سمير حازمة فيها تحدٍّ وشموخ. وقعت في قلب المعلم رهبة!...

فجأة، ألقى سمير أمام أبي عزام بمجموعة مفاتيح...نظر فيها المعلم: مفتاح معرض السيارات، مفتاح مكتب إدارة المطاعم، مفتاح مزرعة الدواجن، مفتاح الفيلا، بل ومفتاح سيارة سمير، والمسجلة باسم المعرض. رفع المعلم عينيه في عيني سمير متوقعـًا أن يسمع منه شرحـًا...

أدار سمير ظهره ومشى نحو الباب...

ذُهل المعلم:

- «سمير!»...

وقف سمير، التفت، ابتسم ابتسامة المنتصر بشيء من السخرية... لم يَرُد، بل تابع مسيره وخرج من المكتب. خرج تاركـًا وراءه أبا عزام ومتعلقاته، حتى السيارة التي جاء بها تركها في المصف...

ما إن خرج إلى الشارع حتى أحس بنشوة غامرة! كان قلقـًا ذاك

الصباح قبل الذهاب للمعلم...كان سمير يظن أن هذه الخطوة ستكون ثقيلة جداً عليه تزيد همه على إيناس هماً...لكنه -على العكس- أحس وهو يرمي المفاتيح كأنه يفك أغلالاً عن عنقه ويديه كان قد سمح لأبي عزام أن يقيده بها، والآن يفكها ويرميها أمام هذا السيد المستعبِد ويقول له: لستَ سيدي ولستُ عبدك!

تعمد سمير أن يمشي في الشارع قبل أن يوقف سيارة أجرة، ليحس بانطلاقةِ العبد المحرر! قال في نفسه: «أنا فرحان، مبسوط...أريد أن أخبر أحداً بفرحتي...مَن؟ إيناس»...

نسي سمير للحظةٍ أن إيناس ماتت...ثم تذكر...

توقف عن المشي، مسح دمعة من عينيه...ثم قال: «هذا الذي فعلته الآن تدارُكٌ لخطئي في حقك يا أنوس»، ثم اتصل بأمجد، والذي فرح كثيراً وعزَّز سميراً على هذه الخطوة الفاصلة في حياته.

أدرك سمير أن عليه الخروج من فيلا أبي عزام، فذهب واستأجر شقة مفروشة لينقل أغراضه إليها. جلس يرتاح فيها قليلاً... فجأةً، أحس أنه عاد لما كان عليه قبل اثنين وعشرين عاماً، يوم باعوا بيت الوالدين بعد وفاة أمه فاستأجر شقة وكان فيها وحده أعزباً.

أصابته غُصة حين أحس أن حياته الماضية ذهبت هباء وأنه سيبدأ من الصفر.

تردد في الاتصال بأمجد لئلا يثقل عليه، بقي يقلب الموبايل في يده، ثم اتصل:

- «آسف على إزعاجك يا أمجد».

- «لا إزعاج أبداً. قلتُ لك: كلي لك. اطلبني وقتما شئت».

- «أمجد، أنا الآن في الخامسة والأربعين...عدت إلى خط البداية في الدين والدنيا! منذ طفولتكم أنت و إخوتي وأنتم تتسابقون في المضمار الصحيح، بينما أنا أركض في المضمار الخطأ. نجحتم في دنياكم وادخرتم لآخرتكم...يسيطر علي مشهدكم وقد أحطتم أمي بهداياكم في مرضها يوم عيد الأضحى وأنا أنظر إليكم ولا أفعل مثلكم...أنتم قطعتم مراحل وأنا سأبدأ من الصفر؟!».

- «لن تبدأ من الصفر يا سمير...أنسيت قول الله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾؟ انظر كرم الله كيف يعطي لمثلك دفعة عظيمة في رصيدك لكيلا تبقى أسير الندم، بل تبدأ بهمة وانشراح».

- «معقول؟ سيئاتي تبدل حسنات؟!»

- «نعم، بإذن الله».

كان سمير بحاجة إلى أن يسمع تعزيزاً، ولو بتكرار المعلومات التي يعرفها وتأكيدِها، ليسد الفجوة النفسية التي أحس بها. حدثه أمجد قليلاً ليسليه ثم أنهيا المكالمة. استقرت نفسية سمير بعض الشيء، ثم استعد للذهاب إلى الفيلا ليأخذ أغراضه...فكر: «ماذا سآخذ من الفيلا؟ حنان عند أبيها ولن تعود لي، صادق سيختار قصر جده بلا شك، مشاعره جامدة تجاهي وليس هناك ما يدعوه لتحمل الحياة الجديدة معي، أشرف في سجنه، وإيناس في قبرها! قصارى ما سآخذه بعض حاجياتي وشيءٌ من ذكريات إيناس...كل ما يقوله أمجد صحيح، لكن...حياتي

ليست جميلة!»...

عاد سمير يحس بقتامة الحياة. رفع يده عن مقبض باب الشقة، رجع وألقى نفسه على الكنبة، يحاول أن ينام تارة ليهرب من كل شيء، يغالب نفسه ليذهب للفيلا تارة، ويستعرض ذكريات الماضي تارة.

في هذه الأثناء كان أمجد يتجهز للخروج إلى عيادته بعد أيام من تعطيلها لانشغاله بوفاة إيناس...فكر أمجد: «ترى هل تسير أمور سمير على ما يرام؟ أخبرَني أنه سلم مفتاح الفيلا...أين سيسكن؟ ماذا فعل مع زوجته وصادق؟»...

بادر أمجد بالاتصال:

- «طمئني يا سمير، أمورك على ما يرام؟».

رد سمير بنبرة متعبة فيها كآبة:

- «بصراحة...لا».

أدرك أمجد أن أخاه بحاجة إلى مساعدة حثيثة وأن الكلام على الهاتف لا يكفي.

- «أين أنت الآن يا سمير؟»

- «في شقة مفروشة استأجرتها»

- «أعطني العنوان».

- «لا تُتعب نفسك، عليك عيادة ومرضاك ينتظرونك»

- «أقول لك أعطني العنوان».

أعطاه سمير العنوان....

لام أمجد نفسه: «كيف تركت أخي في هذا الظرف؟! إنه بحاجتي». اتصل أمجد بمراجعيه لذلك اليوم واعتذر لهم عن المواعيد بخُلُقٍ راقٍ، وطلب من سكرتيره أن يُنَسق معهم لمواعيد بديلة، وانطلق لأخيه.

في هذه الأثناء كان أبو عزام في غاية الارتباك! اتصل بزوجته:

- «سوزان، خذي حنان واذهبا إلى الفيلا فوراً. سمير يتصرف بغرابة...حاولا أن تفهما ماذا ينوي أن يفعل».

طوال الطريق إلى شقة سمير، كان أمجد متأثراً على أخيه، يدعو له بكشف الحزن وشرح الصدر...وصل الشقة، استقبله سمير...جلسا...

- «عطلتك عن مرضاك وشغلتك معي كثيراً».

ردَّ أمجد بطريقة الأصدقاء: «اسكت اسكت يا رجل! قل لي: ما الذي يضايقك؟».

- «ستغضب مني».

- «لن أغضب...قُلْ».

- «أمجد، لا اعتراض على حكمة الله، وإنما هناك أناس أسوأ مني بكثير ولم يخسروا أولادهم...ستقول لي: الدنيا ليست دار جزاء... أعلم، لكني لا أستطيع منع نفسي من المقارنة...

أمجد، أعلم أني أسأل أسئلة علي أن أستنتج إجاباتها، وأعلم أني أهدم ما تبنيه فِيَّ وأظل أعود للمربع الأول، لكنك لا تتصور ماذا كانت إيناس بالنسبة لي...لا أتصور أني الوحيد الذي يخسر طفلته بين أناس لم يخسروا أطفالهم وليسوا أفضل مني. أستغفر الله، ولكن...»...

رفَّت شفتا سمير، بكى ولم يستطع المتابعة...

لم يَضجَر أمجد من كثرة تقلبات أخيه ذلك اليوم، علم أنه أمام إنسان يعاني من انسحابه من الحياة التي أدمن عليها بالإضافة إلى فقدان إيناس، كما يعاني بعض مرضى أمجد من أعراض مزعجة حين يتركون دواء تعودوا عليه طويلاً. كان أمجد يخوض حربـًا ضد الشيطان ساحتها قلب سمير!

الشيطان مستفز مصاب بالهلع وهو يرى نفسه يخسر سميراً بعد طول السيطرة عليه، فيدخل إلى قلبه من منافذ شتى، وأمجد يتعقبه فيطرده ويسد المنافذ واحداً تلو الآخر بما أُجْرِي على لسانه من نور القرآن.

قال لسمير:

- «لحظة! ماذا تقصد أنك خسرتها ولم يخسروا أبناءَهم؟»

- «ماتت وأبناؤهم لم يموتوا»

- «ليست هذه هي الخسارة الحقيقية للأبناء».

سكت سمير مستغربـًا...تابع أمجد:

- «الله تعالى أودع في أبنائنا فطرة نقية، إن أسأنا تربيتهم فإنا نقتل هذه الفطرة شيئـًا فشيئـًا...نجني عليهم وندمر عاقبتهم وإن كانوا يَبْدُون أحياء أصحاء معنا في الدنيا. سمير، تصور لو أن أشرف - ابنك - مات وهو في ضياعه! هذه هي الخسارة الحقيقية للأبناء، والتي تستوجب الحسرة الكبرى عليهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ (سورة الزُّمَر)...إيناس أنت فقدتها في الدنيا، أي نعم، لكنها أُخذت بفطرتها النقية برحمةٍ من الله. فاجتهد لتلحق بها ولئلا تخسر أشرف وصادقـًا وزوجتك».

- أعطت هذه الكلمات نظرة جديدة لدى سمير بالفعل، بل وأشعرته

فجأة بالخوف على أشرف وصادق إن مات أحدهما وخسره الخسارة الكبرى التي ذكرها أمجد...أحس بالمسؤولية عنهما وأنه يريد عمل شيء سريعًا لتَدَاركهما. لكنه عاد فأحس بصعوبة المهمة لبعد ولديه روحيًا عنه.

قاطع أمجد صمته:

- «متى ستذهب لتحضر زوجتك وصادقًا؟»

ابتسم سمير:

- «زوجتي! حنان ستختار أباها وأمها وقصرهما بلا شك. ما عاد بيني وبينها أي شيء يدعوها للبقاء معي».

- «حاول»..

- «لا فائدة...أصلاً أنا أرى حنانًا الآن جزءاً من عالم أبي عزام الذي انسحبت منه ولا أريد أن أتذكره».

- «هذا ليس من حقك!»

استغرب سمير من صدور هذه الكلمة من أخيه الذي كان يحثه على ترك كل ما يتعلق بأبي عزام!

تابع أمجد:

- «سمير، فرِّق بين حنان وأبيها...هل حنان «شريرة» تتعمد المكر والغش والخداع؟»

سكت سمير وهو يفكر في الجواب ثم قال:

- «لا».

- «ألم تكن تحبك بصدق؟»

- «بلى، كانت كذلك في الفترة الأولى بعد الزواج، لكنها بدأت تتململ بعد ذلك»

- «لماذا؟»

- «بصراحة، لم أكن أعطيها حقها من التفرغ والاهتمام، ومشاكلي مع أبيها انعكست على علاقتي معها»...سكت سمير، أطرق رأسه ثم قال: «كانت تعاتبني بِتَوَدُّدٍ في البداية، وتترجاني لأهتم بها وأبعدها عن مشاكلي مع أبيها...لم أستطع، فبدأت تتصرف بعصبية وأرد عليها بعصبية إلى أن ضعُفت المودة بيننا».

- «إذن ها قد قلتَها يا سمير! لم تكن تعطيها حقها. أسألك: ألم يكن في حنان أي خير؟»..

- «بلى! حنان لا زالت تكفل بعض الأيتام...أول زواجنا صليتُ بانتظام إلى حَدٍّ ما، فصلّت معي وكانت مسرورة بذلك لأنها من بيت لا يعرف الصلاة من قبل! ثم تراخيتُ شيئًا فشيئًا فتراختْ هي معي»...

صمت سمير كالذي يتذكر شيئًا، ابتسم ثم قال:

- «حين بدأت أنوس تصلي، صلينا أنا وحنان لنتهرب من سؤال أنوس: لماذا لا تصليان. لكني عدت فتراخيت فتراخت معي»...

تابع سمير:

- «لكن يا أمجد هذا كله قديم. حنان الآن ليست حنان الماضي. لم تعد تلك الفتاة البسيطة التي يمكن أن تتغير بسهولة أو تقلدني في تصرفاتي...هي الآن امرأة في الثانية والأربعين قد تصلبت شخصيتها ولها

عالمها الخاص مع أمها وصديقاتها، ولا مودة بيننا أصلاً حتى تتأثر بي. ثم ليس الحق كله علي. هي من البداية كانت اهتماماتها سخيفة، أهمَلَتْ تربية الأولاد حتى ضاع أشرف، و...»

قاطعه أمجد:

- «سمير، أعلم أن حنانًا تصلبت على صفات سلبية، لكنك تتحمل شيئًا من المسؤولية عن ذلك. حين أخذتَها من بيت أبي عزام لم تكن كأبيها...كانت ساذجة كما وصفت، وكانت تحبك، وتقلدك في الخير... أعطتكَ فرصة لتعينها على نفسها، لكنك أهملت تربيتها كما أهملت تربية نفسك، فسُحِبَتْ حنان إلى البيئة الأخرى...سمير، أنا لا أقول لك هذا الكلام لتندم، بل لتشعر بالمسؤولية تجاه حنان. أنت رجل البيت، فالقوامة لك، المسؤولية عليك: (كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته). لا تظلم حنانًا مرتين، ظلمتها بعدم إعطائها حقها من التفرغ والعطف والتزكية سابقًا، والآن تريد أن تظلمها بتركها لعالم أبي عزام! إصلاح نفسك لا يعني أن تنظر بعَداءٍ للماضي بكل تفاصيله، بل أصلح فيه قدر الإمكان ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾» (سورة القصص).

رقَّ قلب سمير لحنان بالفعل، وأحس بالمسؤولية تجاهها ورغبته في استدراك ما فات. عاد فقال:

- «لكن يا أمجد، مستحيل أن ترضى حنان بوضعي الجديد، هي الآن لا تحبني حتى تضحي برفاهيتها من أجلي...ثم أنت قلت لي: ابْنِ حياتك الجديدة على تقوى من الله ورضوان. هذا يعني لحنان تغيير كثير من سلوكياتها ونظرتها للأمور. لن تتقبل ذلك، ليست مهيأة له، وبينها

وبين الحياة الإيمانية مسافات بعيدة».

- «أعلم أنها ليست مهمة سهلة، وأنها قد تأخذ وقتاً قبل أن تعود إليك. لكن بينكما أولاد وذكريات جميلة. هناك ما يربطها بك. ستضطران للالتقاء والتعامل مراراً. احرص في ذلك ألا تصدر أية إساءة منك مهما أخطأَتْ هي، وتذكر أنك بذلك تعوض بعض تقصير الماضي...

ثم لا تقطع الأمل في قابليتها للصلاح. موت إيناس هز كيانها كما هز كيانك. أنت الآن تجاهد نفسك، تعالج تقلباتها، تتحمل تراجعاتها، تَحْمِلُها على الخير...لأنها نفسك في النهاية ولا غنى لك عنها. افعل الشيء ذاته مع حنان! حاول معها بنَفَس طويل وبصبر، وفي نفسك أنك لا تريد الاستغناء عنها».

هز سمير رأسه مُقِرَّاً بكلام أخيه. تابع أمجد:

- «أين هي الآن؟»

- «في قصر أبيها».

- «طيب تعال نحضر صادقاً ليعيش معك».

ابتسم سمير:

- «بهذه البساطة؟! صادق لن يوافق»

- «بل سيوافق، قُم معي».

- «يا أمجد، صادق لا يحبني»

- «كيف تقول ذلك يا رجل؟! بل يحبك، أنت والده».

- «بصراحة، أهملته كثيراً ولم أكن أعدل بينه وبين إيناس»...تذكر

سمير وَمَضات من الماضي، تذكر يوم كان يَعِد إيناس بهدية إن جاءت بعلامات جيدة فتقول: «وصادق أيضاً، صح بابا؟» فيرد: «صادق مهمل لدراسته» ظاناً أن هذا الحزم ينفع صادقاً، فيزيح صادق عينيه إلى المائدة التي هم حولها متضايقاً من كلام أبيه...تذكر يوم كان يلقي هو وحنان بمسؤولية تدريس صادق كل على الآخر، وصادق ينظر إليهما...

استرجع سمير هذه الومضات المختزنة في ذاكرته واستغرب من قسوة قلبه وسوء تصرفه فيها.

قاطع أمجد صمته و أمسك بيده وقال:

- «قم، تكلم أنت معه، إن لم يتجاوب فسأكلمه أنا...صادق يسمع مني».

- «ماذا أقول له؟ من أين أبْدأ؟!».

- «ببساطة، تذكر أنه ابنك ولا غنى لكما عن بعضكما، ولا تتكبر عليه...لم تعطه حقه من عطفك فيما مضى فلا تبخل عليه الآن».

انطلقا بسيارة أمجد نحو الفيلا. في الطريق قال سمير:

- «أمجد، هل إيناس عوقبت بذنوبي؟»

- «لا طبعاً! ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾...وفاتها ليست عقوبة... أخرجها الله إلى هذه الحياة، أدَّت دورها، ثم استرد الله وديعته ليرحمك، وهي الآن في رحمته سبحانه، طير من طيور الجنة بإذن الله»...

سكت سميرٌ متأملاً...

وصلا الفيلَّا ونزل سمير...قال له أمجد:

- «سأذهب لأحضر الأولاد من المدرسة وأعود لكما بإذن الله... تكونان قد جهزتما الأغراض».

- «لكن صادق...قلت أنك ستكلمه...انتظر»...

رد أمجد بابتسامة حازمة:

- «إنه ابنك...السلام عليكم»...وانطلَق!

ماذا كان موقف صادق؟

وماذا كان موقف حنان؟

وكيف أمضى سمير لحظاته الأخيرة في الفيلا العامرة بذكرياته مع إيناس؟

وما الاتصال الذي تلقاه سمير من مدرسة إيناس؟

ولماذا طلبوا منه القدوم إلى المدرسة؟

وهل كان مخطئًا حين توهَّم للحظةٍ أن المدرسة قد تخبره بأن إيناسًا لم تَمُت وأنهم وجدوها؟

فلنتابع...

وجدنا إيناس!
إيناس (٢٦)

توجه سمير إلى باب الفيلا، لكن هذه المرة ليس معه مفتاحها. رن الجرس، فَتحت له الخادمة باستغراب...توجه نحو غرفة صادق وفي نفسه خوف من ردة فعل ابنه...طرق عليه الباب، دخل...

كان صادق يغالب نفسه وحزنها محاولاً أن يدرس استعداداً للاختبارات، في أجواء لا تشجع: لا أحد يرفع همته، ولا إيناس لتأتي له بفنجان القهوة وتبتسم له وتُسْمعه كلماتٍ طيبة...

ناداه سمير:

- «تعال يا بابا»...

قام إليه صادق...وقف أمام أبيه...شابٌّ في الثامنة عشرة، رجولي الملامح، عاش طفولة مترفة، لكن جافة من عطف والدَيه المهملَين له...فيه طباع سيئة من رفقة السوء، لكنَّ الأعمقَ في نفسه طيبةٌ طفولية شبيهةٌ بطيبة إيناس، مختفية خلف ملامحَ خشنةٍ وجمود يحافظ عليه لئلا يستجدي العاطفة التي يفتقر إليها من أحد...

وضع سمير رأس ابنه بين يديه، نظر في عينيه، وقال له:

- «صادق، آسف يا بابا...سامحني...لم أنصفك فيما مضى...أنت ابني، حبيبي، أحتاجك وتحتاجني، لا غنى لنا عن بعضنا...أريدك أن تبقى معي وأن نكون صديقين...لا تبتعد عني أرجوك»...

كأن سميراً بهذه الكلمات طرق الطبقة الصخرية على وجه صادق، فانجرفت فجأة وظهر تحتها وجهٌ بملامح إيناس! بكى صادق، فضمه سمير إلى صدره، وبكى معه...بكاءَ الدهشة من ردة فعل صادق العفوية المذهلة، بكاءَ الفرحة بتيسير هذه المهمة التي ظنها ستكون في غاية التعقيد، بكاءَ الشكر لله وهو يرى أبواب الخير تفتح له، بكاءَ الخجل من نفسه أنْ قصَّر في اكتشاف ولده طوال الفترة الماضية، وبكاءَ العثور على إيناس جديدة في شخصية صادق!

أفهم سميرٌ ولدَه أنه سلم مفتاح الفيلا لأبي عزام، وأنه استأجر شقة متواضعة...ثم قال بخوف وقلق:

- «لك الخيار الآن يا بُني بين الذهاب إلى قصر جدك أو المجيء معي إلى الحياة الجديدة البسيطة»...

تسارع قلب سمير وهو ينتظر إجابة ابنه...

فقال صادق دون تردد:

- «سأبقى معك طبعاً»...

فرك سمير شعر رأس صادق بفرح، قبله وضمه إلى صدره. ثم بدآ يجهزان الأغراض للرحيل...

جاءت حنان وأمها...استغربتا من تجميع الأغراض عند الباب... تفاجأ سمير عندما رآهما...

قالت حنان:

- «إلى أين يا سمير؟».

- «حنان، تركتُ العمل مع أبيك واستأجرت شقة متواضعة...سأبدأ

عملاً جديداً وحياة جديدة أحرص فيها على الحلال والبركة ورضا الله. يَسُرُّني أن تكوني معي فيها».

هزت حنان رأسها بالرفض بصمت...كانت متعبة منكسرة...نظرت إلى صادق:

- «صادق، تعال معنا يا ماما لنعيش في قصر جدك»

- «سأبقى مع أبي»

- «أريدك بقربي، تكفيني مصيبتي في إيناس».

قال لها سمير:

- «سيزورك صادق باستمرار إن شاء الله، وأهلاً بك في شقتنا طبعاً»...

وجهت سوزان كلامها لصادق:

- «صادق، سنخصص لك الجناح الذي كان لخالك عزام قبل أن يتزوج بدلاً من أن تحشر نفسك في شقة ضيقة»...

تمالك سمير نفسه ولم يرد على هذا الأسلوب غير اللبق متذكراً وصية أخيه أن يحرص على ترك أثرٍ طيب.

تعلقت أنظار الجميع بصادق...طأطأ رأسه قليلاً ثم نظر إلى أمه وقال:

- «أمي، مكاني ومكانك المناسب هو مع أبي...مع ذلك لن أتخلى عنك وسأبقى أزورك، وأتمنى أن أراك تستقرين في شقتنا يوماً ما».

صمتت حنان وأمها ولم تدريا ماذا تقولان.

اتصل أمجد:

- «سمير، ها أنا بانتظارك في الخارج. عندما تجهزان الأغراض نادني

لأساعدكما في حملها».

كان أمجد خائفـاً أن يـرد عليـه سـمير بـأن صادقـاً رفض الانتقـال معه، لكنـه تفاجـأ به يقـول على الهاتف:

- «صـادق، عمـك أمجد بانتظارنـا في الخـارج، هيـا نتجهـز». ابتسـم أمجد بانشـراح وحمـد الله وبـدأ يتصـل بإخوتـه لأمرٍ يرتبـه.

جهـز سـمير وصـادق حاجياتهمـا. أخذ سـمير جولةً في الفيلا يسـتحضر فيهـا ذكريات مـكان سـكنه لاثنين وعشـرين عامـاً...

دخـل غرفـة إينـاس، فتبعتـه حنـان وأمهـا خائفتيـن أن يأخـذ ذكريـات إينـاس. لـم يُـرد سـمير أن يدخـل في جـدال... فكـر أن يأخـذ (هدى) دميـة إينـاس، لكنـه أحـس أنهـا سـتذكره بكمٍّ مـن الألـم لا يتحملـه...فأخذ يانسـها الـذي لا يـزال مضرجـاً بدمائهـا الزكيـة، أخذ تنـورة الصـلاة، وزجاجة عطر مفضـلٍّ لهـا يذكـره برائحتهـا، وبيجامـا اشـتراها هو لها وهي في الخامسـة من عمرهـا، كانـت تـأتي إليـه بهـا في الصبـاح. أخـذ هـذه الحاجيات...ألقى نظرة على غرفتها...أخذتـه رعشـة، ثـم خـرج.

مـر بالمطبـخ: «لا زال كرسـيها الطفولـي على زاويـة المائـدة، تركنـاه ليذكرنـا بيـوم كانـت في السـنة الأولى مـن عمرهـا تصـر على الأكل بالملعقـة لوحدهـا فتمـلأ نفسـها والكرسـي بالطعـام ونحـن نضحـك»...

وقـف أمـام غرفـة المكتـب، تذكَّـر إينـاسـاً وهـي تقـف على بـاب الغرفـة لتمنعـه مـن الدخـول...تذكرهـا وهـي تقـول «ممنـوع، تعـال العـب معي»... بابتسـامةٍ طفوليـة مـع قـوة شـخصية.

نظـر إلى المكتـب....«مـن هنـاك كانـت إينـاس تسـحبني مـن يـدي لأقرأ

لهـا قصـة أو ألعـب معها»...

نظـر إلى الكنبة...«هنـاك كانـت تـأتي إلـي متسـللة لتفاجئني بصحـن الفواكـه»...

مـر بالحمام...«هنـا كانت إيناس تضع كرسـيها الطفولـي، تصعد عليه، ثم تشـمر عن سـاعديها لتتوضأ»...

مشى سـمير إلى غرفـة المعيشـة...«هنا، على هـذه السـجادة، كانـت إينـاس تنثر قطـع الـPuzzle لنركبهـا سـوية...أبوك تناثر يـا إينـاس كقطـع الـPuzzle، وهـا هـو يحـاول لملمـة شـتاته وتركيب نفسـه من جديـد، لكن هـذه المـرة لـن تكـوني معـي!».

نظـر إلى مسـاحة بجانـب الكنبـات: «هنـا كانـت إينـاس تفرش سـجادتها ثـم تصلـي بثيـاب الصـلاة البيضاء...هنـا كانـت تجلـس للتشـهد وترفـع إصبعهـا الصغيـر»...

نظـر إلى مكتبـة غرفـة المعيشـة ومـا فيهـا مـن قصص...ثـم إلى الكنبـة بجانبهـا: «هنـا، بجانـب المكتبـة كنـت أضـع رأسـك على صـدري يـا أنوس، ويـدي تلفـك لأقـرأ لـك قصـة»...

قبـل أن يغـادر الفيـلا، وقـف سـمير ينظـر إلى المكان الـذي جلس فيه هو وإينـاس بعـد طلبـة عبـد الرحمـن وقبل مغيـب الشـمس. تذكر لحظـة اليقظة التي لـم يحسـن اسـتغلالها...تمنى لـو تعـود الأيـام ليكـون هـو الـذي يقـول لإينـاس: تعالـي نصلـي المغـرب يـا أنـوس. قـال في نفسـه: «تأخيـر اليقظة له ثمـن باهـظ، باهـظ جـداً! لكنـه خيـر مـن أن لا تصحو على كل حـال»...

نادى:

- «هيا يا صادق»...فتح الباب وبدآ ينقلان الأغراض بمساعدة أمجد.

وقفت حنان وأمها عند الباب...قبل أن يغادر، قال لها سمير (ليترك أثراً طيباً):

- «شكراً على كل شيء»...قبَّل صادق أمه وجدته ثم انطلق مع أبيه...فبكت حنان على انتهاء حياتها العائلية الهشة، وألقت برأسها على صدر أمها التي حاولت مواساتها...

في سيارة أمجد، كانت فاطمة وعمر بانتظار عمهما وابنه...استقبلاهما بحفاوة أشعرَتْ سميراً بالأُنس.

انطلق أمجد، لم يسلك طريق شقة أخيه الجديدة فقال له سمير:

- «أمجد، ليس من هنا»...

ابتسم أمجد ابتسامة تخفي شيئاً وقال:

- «أعرف طريقي»...استغرب سمير...عاد بعدها بقليل فقال:

- «أمجد نحن نبتعد عن الشقة».

- «ستبيتان عندنا الليلة».

- «لا، لا، شكراً».

- «رغماً عنك»...قالها أمجد بلهجة الصَّديق الذي يُمضي رغبته على صديقه...

وصلوا...الغداء في الانتظار...بساطة، عَفَوية، أجواءٌ حيوية لعائلة متحابَّة، حفاوة بالضيوف...فهم سمير عندها لماذا تعلقت روح إيناس ببيت عمها.

قُبيل الغروب، بدأ إخوة سمير وأولادهم يتوافدون...سعيد، عاصم، تالة وزوجها وأبناء إخوته...كلهم يرحبون بسمير...ما الذي يجري؟! إنها أجواء احتفال بهيج! لم يمض سوى يومين على الحادث الذي فجع الجميع، وفاة إيناس، ولا زال جرحها في نفوسهم جميعـًا، لكنهم كانوا في الوقت ذاته سعداء بـ«ميلاد سمير»! كأن سميراً كان مدفونـًا طوال السنوات الماضية ثم دبَّت فيه الروح وخرج لهم من جديد!

لقد تعمد أمجد أن يصنع هذه الأجواء وأفهم إخوته ذلك ليُعِينوا سميراً على حياته الجديدة، مع ما في الجميع من ألمٍ على فقدان إيناس. وبالفعل، أحس سمير بالعِوَض والإيناس وانشرح صدره وبدأت روحه تحلق بعد أن كانت تقوم وتتعثر في اليومين الماضيين.

في غمرة هذا الاحتفال، نظر سمير إلى أمجد، والذي كان مشغولاً بإنعاش الأجواء بكلامه والتفنن في ضيافة أهله...نظر إليه نظرة امتنان وعرفان على كل ما قدمه له، خاصة على انتزاع كلمة «يبقى ابني...الله يهديه ويرضى عنه» من أمهما قبل وفاتها...

انتهى هذا الاجتماع البهيج الذي لم يكن له عنوان محدد أو سبب معلن، وهمَّ إخوة سمير بالإنطلاق إلى بيوتهم...

وقفوا معه كلٌ يقول له:

- «تعال معنا نَمْ عندنا الليلة أنت وصادق»...

- «بل عندنا»...وأمجد يصافحهم مبعداً إياهم عن سمير واحداً واحداً ومربِّتـًا على أكتافهم قائلاً بدعابة:

- «الله يسهل عليكم. سمير لنا ولن يأخذه أحد منا»...

وقف سعيد قائلاً لسمير:

- «طيب سأَمُر عليك غداً صباحـًا لنذهب ونبحث عن معرض... الساعة التاسعة يناسبك؟»...

لقد أحس إخوة سمير بتقصيرهم معه وسلبيتهم إذ ملُّوا منه في سنوات غفلته، وغبطوا أمجد على صبره وعودة سمير على يديه...

قال سمير:

- «يسُرُّني ذلك لكن لا أريد أن أعطلك عن عملك»...

- «يا رجل! قل لي: التاسعة مناسب؟»

- «مناسب»

- «طيب أكون عندك بإذن الله. السلام عليكم».

- قال سمير: «سعيد، لحظة لو سمحت»...التفت سعيد...

- «أريد أن أتحمل نفقات علاج أمي». موقف شبيه بالذي كان بين عاصم وسعيد قبل اثنين وعشرين عامـًا، لكن هذه المرة لا يكتفي سمير بالنظر إلى إخوته يتسابقون في الخير، فقد دخل المضمار معهم...أصبح يستعرض مواقف الماضي: ما المكان الذي كان ينبغي أن يكون فيه ولم يكن؟ من ظَلَم؟ كيف يمكن تدارك ما فات قدر الإمكان؟

مهمة ضخمة، لكنه عزم على المسير فيها مستعينـًا بالله.

قال له سعيد:

- «سمير، أنت الآن بحاجة للمبلغ الذي بين يديك لتجارتك الجديدة».

- «أرجوك»...

أدرك سعيد حاجة أخيه إلى القيام بأمرٍ فيه وفاء لأمه يعوض شيئاً مما فات، فوافق، ودفع له سمير التكاليف كاملة بسرور وانشراح، وانطلق إخوته إلى بيوتهم.

بقي أمجد وسمير وصادق في الغرفة....أراد سمير أن يشكر أخاه أمجد...نظر إليه وقال:

- «أمجد، لا أعرف كيف أعبر لك عن امتناني...ما فعلته معي..»...

قاطعه أمجد وكأنه لم يسمع ما قال وغيَّر الموضوع:

- «تُفَضِّلان النوم على الكنبايات أم أحضر فرشات؟ سأحضر فرشات احتياطاً»...وذهب سريعاً...

كان أمجد - على قوة شخصيته - يستحي أن يسمع شكراً له في وجهه...كان رجلاً طاهر القلب، يفعل المعروف ويحاول ألا يتذكره.

في اليوم التالي انطلق سعيد وسمير وصادق بحثاً عن محل يمكن استئجاره لمعرض صغير...أثناء الجولة تلقى سمير اتصالاً...إنه رقم مَدرسة إيناس...استغرب! ماذا تريد مدرسة إيناس مني؟

- «صباح الخير»

- «صباح النور، أهلا»...

- «مستر سمير نرجو أن تكون معنا في المدرسة غداً الساعة التاسعة صباحاً».

- «لماذا؟!»

- «دعها تكون مفاجأة»

- «طيب بإذن الله»...استغرب سمير! ما المفاجأة التي أعدَّتها مدرسة إيناس؟ ماذا يريدون مني بعد وفاتها؟

تم استئجار محل مع ساحة صغيرة تتسع بالكاد لخمس سيارات، لكن سميراً كان مسروراً به كباب رزق لا مِنَّةَ لأحد عليه فيه إلا لله، لا لأبي عزام ولا لزهير. بقي سعيد مع أخيه إلى أن اشترى سيارة مستعملة بسيطة، عاد بها مع صادق إلى الشقة المفروشة.

جلس صادق يدرس بهمةٍ وأبوه يشجعه. ثم ذهب سمير يُحَضر فنجاني قهوة له ولابنه...هذه أول مرة من سنوات طويلة...فقد كانت الخادمة تأتي له بالفنجان إلى عنده. فارت القهوة، اتسخ المكان، وسمير مع ذلك منشرح لما يفعل...أتى لصادق بفنجانه...قهوة غير متقنة، ومع ذلك كانت فرحة صادق عظيمة بأول فنجان يُحَضِّره له أبوه!

جلس سمير...تذكر أولَ شخص غشه: علاء، مشتري السيارة الأولى... كان سمير لا يزال يحتفظ برقمه، بل وبرسالته التي يقول فيها: «الله ينتقم منك»...أرسل له سمير برسالة: «الأخ علاء، أنا سمير الذي باعك السيارة قبل خمسة وعشرين عاماً وظلمتك فيها. ستستغرب من هذه الرسالة، لكنني، وبعد المرور بظروف كثيرة، صحوتُ من غفلتي وأريد أن أعود إلى ربي. أرجو أن تحدد لي مكاناً لآتي إليك وأعوضك بالمبلغ المناسب»...

ضغط سمير زر الإرسال بشيء من القلق: «ترى هل سيرد علي علاء؟ هل سيتصل بي ويشتمني؟ هل سيدعو علي مرة أخرى؟»...

انتظر سمير...بعد ساعة جاءه الرد من علاء برسالة، فتحها سمير بتلهف مع خوف...سطران:

- «أخي الكريم، ما دام الأمر كذلك فحقي سأعتبره حلوان هدايتك. مسامحك دنيا وآخرة»!

ذرفت عينا سمير من الفرح، أبواب قبول تُفَتح، وعُقَد قديمة تنحل عن روحه واحدة تلو الأخرى.

استلقى سمير على فراشه الجديد تلك الليلة مستغرباً من سبب اتصال مدرسة إيناس: «ماذا يمكن أن يكون؟!»....

للحظةٍ تصوَّرَهم يقولون له: «أخطأنا... إيناس لم تَمُتْ، لقد وجدنا إيناس»...خفق قلبه وابتسم لا شعورياً، لكنه عاد يذكر نفسه أنه سيواجه قضاء الله برضاً...

نام سمير، استيقظ لصلاة الفجر في اليوم التالي وأيقظ صادقاً... أشرقت شمس ذلك اليوم...صادق يصر على تحضير الفطور هذه المرة...أفطر سمير وصادق ثم انطلقا إلى مدرسة إيناس...

كانت إيناس الطالبة الوحيدة التي فُقِدت في ذلك الحادث، فتركت أثراً عميقاً...

دخل سمير وصادق المدرسة...يافطة كبيرة مكتوب عليها: (إيناس، لن ننساكِ)، وعدد كبير من الطلاب والطالبات قد علقوا على صدورهم باجات (badges) بالعبارة ذاتها: (إيناس، لن ننساكِ)...كانت حنان وأمها أيضاً هناك...اقتربت إحدى المعلمات وقالت:

- «هذا نشاط نظمه الطلاب أنفسهم وفاءً لذكرى إيناس».

صعدت إلى المنصة: ريم، طالبةٌ متحدثةٌ في الثالثة عشرة، تكبر إيناس بسنتين، تحدثت بالإنجليزية كما هو المعتاد في تلك المدرسة، فقالت ما

ترجَمَتهُ:

- «نحن مجتمعون اليوم على إثر الحادث الأليم الذي تعرض له أحد باصات المدرسة لنهنىء الناجين بالسلامة، وندعو لزملائنا الذين يعالَجون بالشفاء.

شخص واحد ليس معنا ولن يكون معنا بعد اليوم، إنه: إيناس. لقد عرفت إيناس من أسبوعين فقط. كُنْتُ متضايقة من موقف حصل معي، فجلست في الفرصة بعيداً عن الجميع أبكي. لم تكن إيناس تعرفني، لكنها مع ذلك جلست بجانبي...بقيَتْ صامتة، ثم قالت لي: «حبيبتي لا تبكي»، وبقيَتْ تواسيني حتى هدأْتُ، فتكونت بيننا صداقة سريعًا...أحببتها جداً! طيبة، حنونة، كريمة، مع أنه كان فيها شيء من الحزن لسبب لم أعرفه.

يوم الحادث، جاءت إيناس بشيء كالحجاب...كان لإيناس رونق خاص ذلك اليوم وجمال من نوع آخر! أحسست أنها كانت مرتاحة، منسجمة مع ذاتها، راضية عن نفسها...قبل أن يصعد كل منا إلى حافلته، سحَبَتْ دفتراً من حقيبتي ورسمت عليه رسمة مضحكة».

فَرَدَتْ ريم كرتونة رسمت عليها تكبيراً لرسمة إيناس أضحكت الطلاب:

تابعت ريم:

- «ثم غمزَتني إيناس وهي على درج الباص مع ابتسامتها الحلوة، ولم أكن أدري أن هذه آخر مرة أراها فيها...لا أنسى ابتسامتها تلك»... ثم سكتت ريم ودمعت عيناها، فبكى الطلاب معها. تمالكَتْ ريم نفسها بصعوبة ثم قالت:

- «عندما وصلني خبر وفاتها ذلك اليوم، لم أستطع التوقف عن البكاء...لم أتصور أن حياة زهرة صغيرة كإيناس يمكن أن تنتهي بهذه السرعة...تساءلتُ في نفسي: ما هو الهدف من حياتنا إذاً؟ بقيت أتقلب طوال الليل ولا أستطيع النوم..صباح اليوم التالي أمسكت الموبايل وكتبت على اليوتيوب: The Purpose of Life (الهدف من الحياة)...فإذا بي أجد محاضرة بهذا العنوان لدكتور أمريكي كان ملحداً ثم أسلم...سمعت المحاضرة كاملة، فقلَبَت كياني...كانت المدرسة معطلة حداداً على إيناس، فاستمعت المحاضرة مرة ثانية وثالثة...وفي كل مرة أحس أن هناك عالماً محجوباً عنا مع أنه أمامنا، والحُجُب تسقط تباعاً...لقد كانت إيناس كأنها ومضة أضاءت سريعاً ثم انطفأَتْ، لكن بعد أن دلَّتْني على طريقٍ سلكتُه لأجد عالَم النور!

بدأتُ أقرأ لأعرف لماذا كانت إيناس مرتاحة ومطمئنة ذلك اليوم بالذات...فعرفت، وغرتُ منها وتمنيتُ أن أكون مثل إيناس، نعم... تمنيت. أما الآن، فقد قررت أن أكون مثلها»...أخرجت ريم حجاباً من كيس كان معها، لبسَتْه، ثم قالت:

- «إيناس لم تَمُتْ فينا، وحجابها لم يَمُتْ»...

ضجَّت الـمَدرسة بالتصفيق الشديد... لم تكن ريم قد أطلعت أحداً على تفاصيل ما تنوي فعله، ولم يكن ما فعلته منسجماً مع توجه المدرسة...لكن عِظَم الموقف، وصدق الكلمات، والعاطفة الجياشة دفعت الطلاب وعددا من المعلمات للإعجاب والتصفيق...

بعينين دامعتين، اختلس سمير نظرة إلى حنان...رآها تبكي، لكنها هذه المرة تبكي فخراً بإيناس واشتياقاً إليها...

التقت عيناه بعينيها...أحس بشيء من المودة والرحمة تجاه حنان... وعظُم لديه الأمل أنها قد تعود إليه يوماً لتسير معه في الطريق إلى الله...

أصبح سميرٌ حيَّ القلب، يلتفت فيرى وجه إيناس في وجوه من حَوله، في وجوه زملائها وفي وجوه إخوته وأولادهم وصادق...

أدرك أنه حين قال لنفسه الليلة الماضية: «هل ستقول المَدرسة لي: أخطأنا... إيناس لم تَمُتْ، لقد وجدنا إيناس»...أن ذلك لم يكن حلماً خيالياً غير واقعي، بل كما قالت ريم بالفعل: «إيناس لم تمت فينا»، وقد وُجدت «إيناسات» جديدة في زملائها بالفعل!

اكتشافاته المزعجة لحِيَل أبي عزام ومكائد سكرتيره حل محلها اكتشاف الخيرية والقابلية للصلاح في نفوس مَن حوله. قبل وفاة ابنته، كان سمير مستوحشاً من حياته كلها إلا من إيناس، لكنه حين أحسن الاتعاظ بموتها أصبح يرى في حياته كلها الألفة والإيناس!

هناك شخص غائب عن غمرة الأحداث كلها...من هو؟ إنه أشرف!

خرج سمير من المدرسة وقال لصادق:

- «تعال نزور أشرف».

كان سمير قلقاً وهو يُقْدم على هذه المهمة الصعبة...كيف سيخبر أشرفاً بوفاة إيناس؟! ظل يدعو طوال الطريق. وَصَلا..لاحظ أشرف تغير ملامح أبيه وأخيه: شيء من الحزن يتفلت من الثنايا وهما يخبئانه، لكن مع نضارة وإشراقة جديدة لم يعتدها فيهما، وعلاقة ودية بينهما.

قدَّم سمير بكلمات البشارة والأمل، ورسم صورة جميلة لمستقبل أشرف، خاصة وأنه لم يبق له سوى بضعة أشهر ليعود إليهم...تفاجأ أشرف، فليس هذا أباه الذي يعرف! مثل هذه الكلمات كان يسمعها من إيناس ببساطة طفولية...

بعد المقدمة الطيبة أخبره سمير بالخبر المؤلم...كان وقعه ثقيلاً على أشرف...نزلت يداه على القضبان ونزل على ركبتيه يبكي....

- «أشرف، ابني، حبيبي، الدنيا ستمر ونلتقي بها في الجنة بإذن الله... كل ما علينا هو أن نطيع الله فيما يأتي من أيام»...لأول مرة يقول سمير لأشرف: حبيبي من سنواااات طويلة...فقالها بصعوبة، لكن أحس بعدها براحةِ من يبدأ بسداد دَين ثقيل...

تمالك أشرف نفسه بصعوبة، قام وكفكف دمعه، وخفف عنه أنه رأى ولادة إيناس جديدة في شخصية أبيه وأخيه اللذَين تركاه مع عبارات التصبير والاستبشار...

جهز سمير معرضه الجديد المتواضع، واجه صعوبات، الأرباح محدودة، نموه بطيء، ليست هناك قفزات كبيرة كالتي كان يحرص عليها، كثير مما كان من «الضروريات» بالنسبة له أصبح كماليات لا بد من الاستغناء عنها...وهو مع ذلك كله راضٍ منشرح الصدر مستبشر

طيب النفس، ينظر إلى نفسه نظرة إيجابية ويَطْمَئِنُّ إلى أن الله معه بما يستشعره من نعيمِ قلبه وراحةِ روحه...فهو ما عاد يقيس رضا الله عنه بما ينعم عليه من متاع الدنيا، بل أدرك بعمق أن (الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا لمن أحب).

صحيح أن سميراً أضاع سنوات طويلة في المضمار الخطأ...

وصحيح أنه خسر فيه كثيراً ودفع الثمن غالياً...

لكنه طوى صفحة الماضي، وحول الألم أملاً، والتراجع انطلاقاً...

وحلقَّ عالياً، فرأى الدنيا بحجمها الحقيقي...

ودخل المضمار الصحيح بعزمٍ وبقوة، رافعاً لشعار:

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

انتهت بحمد لله.

الفهرس

مقدمة	٣
«من أين أبدأ؟»	٥
«تجسير الهُوَّة»	١٨
«ما لك يا أمجد؟»	٣١
«أمي ليست حِملاً»	٤١
دعوة مظلوم	٥١
«أنا معذور»	٦٠
قصاصة أمي	٧٠
الصعود إلىٰ القصر	٧٩
«يعطيني إذن يحبني»	٨٩
لا يموت الذيب	٩٦
ولا تفنىٰ الغنم	٩٦
بقايا فطرة	١٠٣
ماءٌ لا يروي!	١١٣
زهرة نبتت في الصحراء	١٢١
أين أشرف؟	١٢٨
العذاب بالنعيم!	١٣٧
أجمل يوم!	١٤٨

كشف الحساب!	١٥٩
«توبة» أبي عزام!	١٦٧
«سأخبر إيناسًا بالحقيقة»	١٧٤
الاختبار الصعب	١٨٣
الحِياد الكاذب	١٩١
يومٌ غير عاديّ!	٢٠٢
«خيبت ظني فيك!»	٢٠٩
سر أمجد	٢١٨
الأغلال	٢٢٧
وجدنا إيناس!	٢٣٩